AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

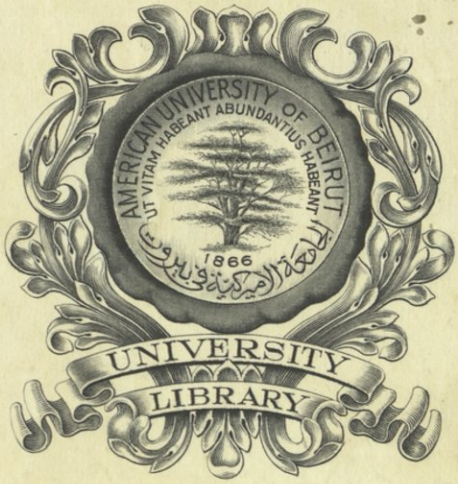

809
R162FA
c.1

من الشرق والغرب

فصول مقارنة

بين أدبي الشرق والغرب

للدكتور جمال الدين الرمادي

LIBRARY

مقدمة

هذه دراسات مقارنة بين أدبى الشرق والغرب ، وفصول منها فى هذا الكتاب الذى أرجو أن يلقى قبولا حسنا لدى القراء ، اذ أنه لون جديد من البحث والمقارنة حتى نستطيع أن نتبين مكانة أدبنا بين الآداب الغربية، ونقارن بين المذاهب المختلفة التى طرقها الأدباء والشعراء فى الشرق والغرب ، كما تناولت فيه جهود علماء الغرب فى الشرق ، واثر علماء الشرق فى الغرب .

والكتاب يضم فصولا فى الاجتماع فضلا عن فصول الأدب ، غير أن الاطار الذى تتراءى فيه هذه الفصول هو اطار المقارنة بين الشرق والغرب ، حتى يمكن تحديد مكانة العرب فى المجتمع البشرى كله .

ولقد كان النقاد يعتقدون ولا يزالون يعتقدون حتى الآن أن أنجح الوسائل لتوضيح مكانة الأدب هى مقارنته بالآداب الأخرى ، وحينئذ تتجلى قيمته ، وتتضح لنا مكانته .

هذا هو هدفى من هذا الكتاب ، لهذا جعلته زاخرا بالمقارنات ، حافلا بالمساجلات لنعرف مالنا وما علينا .

وقد قامت الجامعات فى أوربا بتخصيص كراسى الأستاذية للأدب المقارن ونهض كليمان وفيلاريت شاسل ، وبنلو ، وتكست بتدريس هذا الأدب فى فرنسا وانجلترا ، كما قام دى سانكيتس بتدريسه فى نابلى وارتوروجراف بتدريسه فى تورين ومارك مونيه بتدريسه فى جنيف ، وكانت الدروس الافتتاحية لهذه المحاضرات لا تقتصر على الجامعات فحسب ، بل كانت تنشر فى الصحف والمجلات ، وظهرت عقب ذلك ـ الدراسات التفصيلية والقوائم الاجمالية والكتب الوافية ورسائل الدكتوراه فى هذا الأدب .

ولم تكن هناك دراسة اجتماعية تخلو من هذا اللون من المقارنات.

والدراسة المقارنة تدرس فى الغالب عن طريق علاقات ثنائية أى علاقات بين عنصرين فحسب سواء كان هذان العنصران كتابين أو كاتبين أو طائفتين من الكتب أو الكتاب أو أدبين كاملين أو وضعين اجتماعيين متشابهين .

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب يحقق هدفه وعلى الله التوفيق.

LIBRARY
UNIVERSITY OF TORONTO

حديث فى الشتاء

بين الشرق والغرب

نظم الشعراء العرب الشعر فى الفصول جميعا ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم الى الربيع ولم يفز الخريف ولا الشتاء الا بقسط ضئيل ... ولكننا سنحاول فى هذا الحديث أن نعرض لما ذكره العرب فى الشتاء فقد قيل : انه فى يوم ٣١ من ديسمبر تكون أشعة الشمس عمودية على درجة عرض ٢٣١/٢ جنوب خط الاستواء أو على مدار الجدى بتعبير أدق ، فيحدث الانقلاب الشتوى ، وفى الشتاء يشتد البرد ، ويخشن الهواء ، وتتساقط أوراق الشجر ، وتدخل الحيوانات الى الجحور ، ويظلم الجو وتصير الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت .

والشتاء كما تعرف موسم النشاط والحركة والعمل المتصل الذى لا يعرف التوانى ولا الكسل ، ففيه ينفذ أغلب المشروعات وأكثر الرغبات وهو يختلف بين قطر وقطر وبين أرض وأرض ، ولكنه عند الاوربيين يتخذ طابعا جميلا ، فالصقيع يتساقط ، والجليد يغمر الارض كأنه مرآة ناصعة ، والطبيعة ساحرة فاتنة برغم عبوسها وظلمتها وبرغم أن الشمس لا تشرق على تلك الاماكن الا لماما ، وأن الشتاء يعقل الاحباء فى ديارهم ، ويمنع الأحباب من مزارهم فى بعض الأحيان ، ويدفعهم الى ترك المغانى التى كانوا يأنسون بها ، ويتجمعون فيها ، ويسكنون اليها .

وقد كان شعور العرب منذ العصر الجاهلى نحو الشتاء شعورا حسنا جميلا ، فهو الذى كان يجمعهم حول النار يتجاذبون أطراف الحديث ويتطارحون فنون الكلام ، وهو الذى يجعلهم يغنون ويرقصون ويهرجون ويطربون حول هذه النار . وهو الذى يدفعهم الى السخاء والكرم والجود ، وفى هذا يقول شاعرهم :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

فهم يدعون فى الشتاء الناس الى موائدهم ومجالسهم ، وهم ينتهزون هذه الفرصة ليظهروا كرمهم وسخاءهم وجودهم ، ولقد ظل هذا الشعور نحو الشتاء ماثلا فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى والعصر الاسلامى حتى العصر الحديث .

ففصل الشتاء اذن عند العرب فصل الجود والكرم وفصل السخاء والوفاء وقد وصف بعض شعرائهم برودته وزمهريره ، وقال بعض

الأدباء : ان له برودة تغير الالوان وتقشف الأبدان وتجفف الريق فى الاشـــداق والدمع فى الآماق ، وهو الذى يحول بين الـكلب وهريره والأسد وزئيره والطير وصفيره والماء وخريره وقال ابن المعتز :

قد منع المـاء من اللمس وأمكن الجمر من المس
فليس تلقى غير ذى رعدة ومسلم يسجد للشمس

والواقع أننا اذا ما أردنا أن نتلمس بعض الصور الفنية والأدبيـة التى قيلت فى الشتاء وجدناها صورا طريفة حقا غريبة حقا :

فهذا شاعر يدعو شاعرا أن يحرك عودا ويحرق عودا ، يحرك عودا لسماع أشجى الانغام وأعذب الالحان ، ويحرق عودا ليستمتع بالدفء وينعم بالهناء ....

وهذا شاعر غيره وهو أبو سعيد المخزومى يعرض علينا صورا عن الشتاء أكبر الظن أننا لمسناها فى حيـاتنا العامة كثـيرا ، وتمثلت أمام عيوننا جميعا فيقول :

اذا كنت فى بلدة نازلا وحل الشتاء حلول المقيم
فلا تبرزن الى أن ترى من الصحو يوما صحيح الاديم
فكم زلقة فى حواشى الطريق ترد الثياب بخـزى عظيم

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يعتبرون الشتاء فصل الجود والكرم كما يعتبرونه فصل البرد القارس والزمهرير الشديد والذى تأخذ فيه الطبيعة صورا جديدة لم يألفها العرب من قبل .

والشتاء فى بلاد العرب فصل قصير الأمد واحساس شعراء العرب بالحر ورمضاء الصحراء أكثر من شعورهم ببرد الشتاء .

ونحن اذا ما أردنا أن نقارن بين موقف الشعراء العـرب وموقف شعراء الفرنجة استطعنا أن نقول : ان شعراء الفرنجة كانوا أشد احساسا وأعمق شعورا من الشعراء العرب بالنسبة للشتاء للأسباب الجغرافية المعروفة : فالشتاء عند الفرنجة فصل طويل الأمد ، والشمس لا تشرق فيه الا لماما ، والشمس نائرة فى الغرب على عكس الحال فى الشرق ، فهى محرقة شديدة الوقدة .

والشعراء الفرنجة يجتمعون فى الشتاء على النحو الذى يفعـله الشعراء العرب الا أنهم يكثرون من الحديث عن المدفأة مثل الشـــاعر الانجليزى شيللى والشاعر الفرنسى فرانسوا كوبيه الذى قال : فى المساء فى حمى المدفأة .

فكرت عدة مرات فى صوت عصفور
كان يغرد بين ألفاف الغابة فى أيام الشتاء
ذات الأوقات الناعسة والروح الخاملة
وكانت الأعشاب المهجورة

تميل بهاماتها فى عرض الفناء

تحت القبة الساكنة للسماء

أواه ! كم تتمنى العصافير أن يبقى الشتاء .

فالشاعر الفرنسى فرانسوا كوبيه فى هذه القطعة يصور جلسته فى حمى المدفأة فى الشتاء ويصور مشاعر الطيور الشاردة فى الفضاء ، وكذلك كان يفعل الشاعر الانجليزى المشهور وليم شكسبير من قبل ، اذ صور شكسبير فى احدى مقطوعاته موقفه مع صاحبته حين قال :

ما أشبه فراقى عنك بفصل الشتاء

ولت مسراتى مع سنتى الهاربة

فكم لطمات قارسة أحس بها

وأى جدب لديسمبر العتيد فى كل مكان ....

وهكذا كان الشتاء ملهما لشعراء العرب والفرنجة ، ولم يكن الالهام مقصورا على فصل الربيع وهو فصل الخضرة والنضرة والبهاء ، انما كان ممتدا الى الفصول جميعا ، ولكنه ظهر فى كل فصل بطابعه الخاص وسماته المميزة .

فاذا كان الربيع تحدث الشعراء عن الأزهار اليانعة والاوراق المورقة والاطيار الصادحة والطبيعة الباسمة والآمال المتفتحة ومغانى الحب والهوى ومواطن الجمال وتباريح الود والجوى .

واذا كان الخريف تحدث الشعراء عن الاوراق الذابلة والازهار المصوحة والآمال النائية والأحلام الضائعة .

واذا كان الصيف تحدث الشعراء عن الحر اللافح والقيظ الشديد والبحر والشاطىء والفيد الحسان والكواعب الملاح ، وتحدث الشعراء عن المدفأة والنار والدخان والأحلام والآمال المكبوتة والأمانى المكتومة والنفس المحترقة وقد قال أبو تمام :

ضربت الشتاء فى أخدعيه ضربا غادرته عودا ركوبا

وكان ابن المعتز يعيب على أبى تمام هذه الصورة ويقول فى كتابه « البديع » انها من الاستعارات الرديئة التى استخدمها أبو تمام .

وقد تأثر الشاعر الانجليزى المعروف بيرس شيللى بالشتاء فنظم قصيدة من درر قصائده فى الشتاء جاء فيها :

جثم الطائر ينتحب على حبيبه الراحل
فوق فنن رطيب
وكانت الريح الباردة تزحف فى الأعالى
والجدول المتجمد يرسخ فى الوادى
ولم تكن هنالك ورقة فى الغابة العارية

ولا زهرة منثورة فوق الأديم
ولم تكن هناك حركة للهواء
الا جعجعة عجلة الطاحون تدوى فى الفضاء

فهذه صورة طريفة من الأدب الغربى يمكن أن نقارنها بصورة أخرى شرقية كقول الشاعر العربى :

حتى اذا ما أقبل الشتاء
جاءتك منه غمة عمياء

لو أنه روح لكان قدما
أو أنه شخص لكان جهما

يأتيك فى أيامه رياح
ليس على لاعنها جُناح

حراكها ليس الا سكونا
تضرب الأسماع والعيونا

يحدث من أفعالها الزكام
هذا اذا مافاتك الصدام

ثم يأتيك مطر مداوم
كأنه خصم لنا ملازم

هذه صور جميلة من الشتاء فى الآداب وهى صور باهرة مجلوة فى معارض الجمال والخيال بديعة المناظر حلوة الاطارات .

وهكذا كانت فصول الطبيعة دائما وأبدا وحيا موحيا والهاما ملهما للادباء والشعراء والفنانين على مر العصور وتوالى الايام .

الخريف

فى الأدب الانجليزى

قسم كثيرمن نقاد الأدبالانجليزى وغيره منالآداب الاجنبيةالطبيعة قسمين : طبيعة هامدة وطبيعة حية ، والطبيعة الهامدة كل ما فى السماء والارض مما ليس له روح وليس له قلب يخفق وعرق ينبض . فزهرة السوسن طبيعة هامدة .... وشجرة اللبلاب ودوحة البلوط طبيعة هامدة والبحر والنهر والغدير طبيعة هامدة ..... والربيع والخريف والصيف والشتاء طبيعة هامدة .... أما الطبيعة الحية فتشمل الحيوان المستأنس والطير الأليف وغير الأليف ... وكل موجود ذى روح سواء كان مما يعيش على الارض ويطعم من رزقها ... ويأكل من حشائشها أو كان من نسج الخيال ، ووهم الاساطير ...

فنظرة الشعراء الى الخريف اذن كانت على أنه أثر من آثار الطبيعة الهامدة ومظهر من مظاهر الحياة الطبيعية وقد اختلف الشعراء فى احساسهم به :

فمنهم من يحس الطبيعة احساسا عميقا جارفا يخالط دمه ويمازج روحه ... ويسرى فى أعصابه فاذا بحواسه متنبهة ، واذا بمشاعره متيقظة ... فلا تفوته حركة عصفور ولا هديل حمام ولاتغريد طائر ، ولا يفوته مذاق تفاحة ، ولا عبير زهرة ، ولا نأمة ولا نهمة ولا حركة ، ولا سكنة ...

ومنهم من يمزج العواطف بنفسه ويسكب على الطبيعة أفراحه ومزاحه .. وأشجانه .. واتراحه ...

ومنهم من يصور الناس بين أكناف الطبيعة متنعمين بخيراتها .. متمتعين بأفضالها بين جدول جار ، ونهر عذب سلسال ، ويخرج من ذلك بحكمة الهية ... ونزعة صوفية تمتلك نفسه امتلاكا وتستحوذ على روحه استحواذا ...

بهذه العواطف المتباينة وبهذه المشاعر المتفاوتة يستقبل الشعراء والكتاب فى الأدب الانجليزى الخريف ولا يزالون يستقبلونه حتىاليوم .... فهو مبعث الهام كثير منهم ومهبط وحيهم ... ومنبع أفكارهم ... وملاذ خواطرهم .

وقد رمز بعض الشعراء الى الخريف بالشيخوخة كما رمزوا الى الربيع بعنفوان العمر وشرخ الشباب ، ورمزوا الى الأمل بالخضرة والى الحب بالوردة والى العفة والطهر باللون الابيض الجميل .

ولقد استهوت صفرة الشمس فى الخريف وقلة الضوء وخفوت النور ... وذبول الزهر ونضوج العشب وتساقط الاوراق الجافة على الارض ... وأوبة الأطيار الى الأوكار .. والضوارى الى الأوجار ... والناس الى الديار ... استهوى ذلك كله فى الخريف أنظار الكتاب والشعراء فاذا بآمالهم تصفر وتشحب ، . . ويخيم عليها ظلام مقبت وكآبة موجعة ... واذا بأحلامهم تذبل وتذوى وتتبعثر على الارض وتذروها يد الريح فى وجه الفضاء ... واذا بهم ينظمون القصائد الرقيقة والمقطوعات العذبة الجميلة التى تنضح رقة وجمالا ... وتقطر لوعة ودموعا على العمر الذاهب ، والشباب الفائب ، والخريف المنصرم الذى لا يحمل شيئا ولا يبقى على شىء .

وكان شعر الشعراء فى الخريف فى العصر الكلاسيكى تقليدا ... وتمثيلا لشعراء اليونان والرومان مثل ثيوقريطس اليونانى أحد أدباء الاسكندرية القدماء ومن الذين وضعوا أساس الشعر الريفى ، وفرجيل الرومانى الذى نظم أغانى الرعاة فكتب لها الخلود ... وترنم بها ثغر الزمان ...

والملاحظ فى أدب الخريف وغيره من شعر الفصول فى العصر الكلاسيكى أنه ممزوج بذكر آلهة الطبيعة وأرباب الخصب والجمال وأساطير الاغريق والرومان : فعروس الجمال (أكو) بارعة الجمال تفرم بشاب وسيم الطلعة جميل الشكل يسمى (نارسيس) أو النرجس فتغازله وتشرع فى ملاطفته ولكنها لا تستطيع من ذلك شيئا ولا تجد الى ذلك سبيلا لانها فقدت المرونة فى الكلام والقدرة على التعبير ، وأتى عليها الخريف فذوت كما تذوى الزهرة ولم يبق لها الا الصوت الذى لقنتها اياه آلهة القمر .

وقد كتب أدمند سبنسر فى القرن السادس عشر تقويم الراعى وهو قصيدة طويلة تشتمل على شهور السنة جميعا . وقد خص شهور الخريف بكثير من روائع وصفه وبدائع قصصه ، فدعم بذلك الأدب الريفى فى انجلترا الذى ازدهر فى ايطاليا على يد (بترارك) وفى فرنسا على يد (دوديه) .

وتستهل قصيدة تقويم الراعى بنشيد حزين أو أغنية متأوهة ينشدها كولن كلوت فى شهر يناير ليشكو حبيبته روزالند ، ثم يتلو شهر يناير شهر فبراير حيث يقص علينا سبنسر قصة السنديانة والعوسج حتى اذا ما وصل الى شهر أغسطس تحدث سبنسر عن الغناء والطرب والايقاع والابداع ، وشكا فى سبتمبر نوم القساوسة فى الكنيسة الرومانية حتى اذا ما وصل سبنسر الى شهر أكتوبر عاد الى أناشيد الرعاة ، وظل بين أنغامها حتى يتم الحول وينتهى العام . ومثله فى ذلك كله ــ كما يقول وليم وردزورث ــ مثل القمر يشق طريقه فى السماء الغائمة فى ثقة وخطوات وئيدة .

ومن الشعراء الذين مجدوا الخريف الشاعر الانجليزى الكسندربوب فى نهاية القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر .

وقد أنشد قصائده عن الخريف والربيع والصيف والشتاء وهو في العشرين من عمره بعد ما أنشد وهو في الخامسة عشرة من عمره ملحمة شعرية ضمنها كثيرا من خواطره وأفكاره وأحلامه وأوهامه في هذه السن ولم يلبث أن مزقها وقدمها غذاء للنار .

والواقع أن شعر بوب في الخريف لايخلو من روعة وجمال وقد كتبه على نسق الشاعر الروماني فرجيل ، غير أن الصنعة ظهرت في أسلوبه في كثير من المواضع ظهورا واضحا .. متعمدا ، فهو يهتم بمتانة التراكيب ، وبانتقاء الالفاظ .. واختيار التعابير كما يهتم بالانغام والانسجام .. والاصباغ والالوان . وهذا الاهتمام قد يقلقه ويؤرقه في بعض الاحيان .. فاذا بأسلوبه باهت شاحب لا أثر عليه من جمال .. ولا مظهر عليه من حسن . واذا ببوب نفسه لايذوق من أجل ذلك النوم الا غرارا .. واذا هو يجلس في بستانه .. أو يسير بين المروج أو على ضفة جدول أو غدير . ينظم قلائد أسلوبه .. ويحوك طراز شعره .. لايكاد يدرك أو يعى ماحوله .. ومن حوله من الاحياء والاشياء ..

وكتب جيمس تومسون James Thomson قصيدته في الخريف وهو في الرابعة والستين من عمره في القرن الثامن وتشيع بين قصيدة تومسون برغم مابها من وصف دقيق لمظاهر الطبيعة رنة حزن عميقة وصدى شجن دفين ، ولعل هذا يرجع الى أن تومسون كان ميالا الى الحزن والتشاؤم مسرفا في اليأس والقنوط .. فقد حبيبته أنضر ماتكون شبابا وأروع ماتكون جمالا وأخلب ماتكون فتنة وهو يحمل لها بين جوانحه الحب العميق .. والهيام الشديد .. وفقد أخاه الذى كان صفيه ومعينه على صروف الزمان .

وبرغم هذا الحزن وهذا الالم الذى يشيع في شعر توسون نجد في قصيدة الخريف نزعة جارفة نحو الطبيعة ووداعا صادقا حارا للتعلق بأهدابها ولوعة مفرطة خالصة على تغيرها وامحالها ، وقد نفى توسون بهذه القصيدة مازعمه الكسندر بوب من قبل وهو أن مايجب أن يدرسه الانسان هو الانسان ! ..

والخريف المثقل بالثمرات الشهية والخيرات الناضجة أشبه شيء في عين توسون بالرجل الذى أثقلته الخبرة وحنكته التجارب وربته الحياة ، اسمعه يقول :

عندما ينشر الخريف أشعته المتفرقة
التى ينذرها مقدم الشتاء
تمرح الخيرات في آفاق رحيبة
وتلتف بين جنبات السماء الساكنة
وينساب تيار الماء هادئا رقيقا
قبل أن يحين الشتاء ..
وتشيع الجلبة والضوضاء في الضفة الآمنة
ايه أيتها الطبيعة التى تزخر بكل شيء !

امنحينى بعضا من أسرارك الخفية
واجذبينى الى السماء .. الى هذا العالم اللانهائى
ودعينى أرقد بجوار الجدول الخفيض وأتاغى أحلامى
فمنك تبدأ وفيك تعيش واليك تنتهى أنغامى !
ثم تأمله مرة ثانية وهو يخاطب الخريف :
يافصلا يجثم فيه الضباب وينضج الثمر
ياصديقا حميما للشمس التى تهب الازهار والحياة والاشراق
كأنما دبرت مع الشمس مصير الكروم التى تغطى السقوف
واتفقت معها لتغمرها بالثمر والخير والبركات
كما اتفقتما أن تثقلا بالتفاح أشجار الكوخ
التى يغشى جذوعها نبات الطحلب
وتحمل النضج الى لباب الفاكهة الجميلة
من ذا الذى لم يرك ياخريف بين خزائن محصولاتك
وشعرك تعبث به الريح حتى أوشكت أن تذروه
أين أنغام الربيع ... أين ؟
دع عنك أنغام الربيع فلك ياخريف أنغامك !

وعندما قامت الحركة الرومانتيكية فى انجلترا ، وقدمت الاثر الرومانتيكى أو الفن الذى يحدث أكبر متعة ممكنة للشعوب على حد تعبير ستندال Stendhal لم يغفل الشعراء ولا الكتاب الاصول القديمة فى الادب الريفى ، ولكنهم أصبحوا أفرادا يعبرون عن ذواتهم بأدق معانى هذا اللفظ ولم يسجل الشاعر منهم الا تجربته الفردية.. ومشاعره الذاتية .. وخلجات حسه ونبضات شعوره دون أن يعبأ بالمجتمع ولا بأوضاع المجتمع .. ودون أن يرى الا قلبه على حد تعبير مايثو أرنولد ولا ينعكس الا على « الأنا » كما يقول علماء النفس وهى التى تحركه كيفما هوت وحيثما شاءت .

واذا كان جيمس تومسون رجلا متشائما حزينا فان لورد بيرون كان كما يقول اميل فاجيه Emil Faguet أقوى من ساهم فى وضع نموذج للرجل الرومانتيكى أو « الرجل المكتئب الجبرى » اسمعه يقول : ــ

لقد طفقت يد الحاصد
تحصد النبت الرمادى الناضج ..
والكن صوت الناعى ..
أخذ ينتحب على الشباب الذاهب ..
وأقبل الخريف فى اندفاع
يحمل بين طياته الاوراق الجفاف ..

ولكن زهرة حبنا لاتزال يانعة الاشراق
برغم دنو شبح الجفاف الذريع ..
وكقطرة الانداء فوق الجبل ..
وكزبدة الامواج بين البحر ..
وكانبثاقة الماء بين المعين الدفاق ..
ولى شبابى الى الأبد ..

والى جانب لورد بيرون يقف الشاعر الحالم بيرس شيللى وقصيدته الحالمة « زكا » التى استهلها بقوله :

« مات الصيف واخلولق الخريف يتنفس » وفى فقرة أخرى يقول : « مات الصيف وعشت أنا لأبكى وأغرق فى بلبلة من النحيب »

والى جانب هؤلاء جميعا يقف شاعر الحب والجمال جون كيتس John Keats الذى بهرته مجالى الطبيعة واستهوته مفاتن الخريف فكتب بعض القصائد العذبة يتغنى بوجهه الجميل وطلعته الساحرة .

الصيف

فى الأدب الانجليزى

الفرق فى الحديث بين الربيع والصيف كالفرق بين الطبيعة المزخرفة ذات الزهر المتفتح والورد المتألق والمروج الخضراء وبين الطبيعة السافرة المجلوة التى تتبدى كما خلقها الخلاق العظيم .

فصل الصيف فصل الحرية والانطلاق ، وسماء الصيف ناصعة لايعكرها سحاب ولا يطمسها ضباب ، وأرض الصيف واضحة لايفرقها مطر ولا يعرقلها ثلج ولا برد، ووجوه الصيف فرحة مستبشرة تستقبل النور والضياء، وتستمتع برخى الهواء لايكبلها قيد ولا يسترها حجاب.

واذا كان الجغرافيون والفلكيون يقولون ان الفصول أربعة : الصيف والخريف والشتاء والربيع ، فاننا لانكاد نميز هذه الفصول فى مصر تمييزا ظاهرا ، انما نجدها تختلط اختلاطا وتمتزج امتزاجا ليس بينها الا فروق ضئيلة تزداد كلما دنونا من الصيف أو قربنا من الشتاء .

أما فى أوربا بوجه عام وفى انجلترا بوجه خاص فان الامر يختلف عن مصر كثيرا : فالفصول واضحة ظاهرة ، والشتاء شديد البرودة ممتد الجليد غزير المطر ، والصيف معتدل جميل ، ولذلك كان احتفال الشعراء والادباء من الانجليز بالصيف عظيما كما كان احتفالهم بالشتاء عظيما كذلك .

وقد أخرجت الدكتورة أديث ستيول كتابا سمته كتاب الشتاء جمعت فيه القصائد التى قيلت فى الشتاء ونظمها شعراء كثيرون من مختلفى البلاد سواء فى الأدب الانجليزى أو الأدب الفرنسى ، وعرجت على الادب الصينى واليابانى فذكرت لنا مجموعة من القصائد العذبة والمقطوعات الرقيقة .

أما الصيف فقد عده الانجليز فصل المتعة والحرية والانطلاق فلا يكاد يقبل الصيف حتى يدع الناس البيوت ليذهبوا الى سواحل البحار أو سفوح الجبال ، وتكون ربة البيت الانجليزى فى هذه الفترة كما يقول « لى ستامب » قد فرغت من تنظيف بيتها من بقايا الفحم فى الشتاء ، فغدا منعشا مبهجا يبعث على الراحة والاطمئنان .

وهناك من يقضون الصيف على سواحل البحار بين مرح ولهو ولعب وقصف ، ويتهادون متباطئين متئدين يخطرون فى مختلف الملابس والازياء ، وهناك من يقضونه على سفوح الجبال بين صعود وهبوط

محتذين أحذيتهم السميكة ، سائرين فى شعاب الجبال المتعرجة ، أو ممسكين بالامراس القوية والحبال المتينة المتدلية .

وقد سجل كثير من الشعراء هذه المظاهر الجميلة والمباهج اللطيفة فى أشعارهم ، وامتاز الادب الانجليزى بتلك القصص الموسيقية القصيرة المسماة « بالاد » Ballads ، وهى التى تناقلها الخلف عن السلف ، وسرت عبر السنين من أفواه الشيوخ الى أفواه الشبان ، وتضمنت بعض هذه الاقاصيص الموسيقية أو « البالاد » مغامرات كثيرة حدثت فى الصيف مثل بالاد ابنة ايرل مار The daughter of Earl Mar وهى قصة فتاة خرجت ذات يوم فى الصيف تتنزه بين المروج الخضراء والزهور المائسة فألفت طائرا جميلا يغرد على فنن ، فدعته الى أن يعيش معها ويرتع بين أكناف قصرها وألفاف حديقتها ، ولكن ما ان جن الليل وهبط الظلام حتى غدا هذا الطائر الجميل شابا وسيم المظهر حلو القسمات فى شرخ العمر وعنفوان انشباب ، فاشتدت دهشتها وازدادت حيرتها ، غير أنه لم يلبث الشاب الوسيم أن انقلب الى طائر مفرد كما كان ، وانطلق الى قفصه الذهبى .

وتقدم الخاطبون الى الملك يطلبون يد ابنته الفتاة ، ولكنها كانت تردهم واحدا تلو الآخر ، وتأبى عليهم ذلك اباء شديدا ، قانعة بصحبة هذا الطير الجميل الذى تأنس بجواره ، فأقسم الاب قسما غليظا أن يقتل ذلك الطائر ، وأن ينتقم منه شر انتقام ، غير أن الطائر علم بما اعتزم عليه الملك فذهب الى مهبط رأسه ، وأحضر بغاث الطير وخلصوا العروس من انخاطبين .

وهذه « البالاد » Ballad أو القصة الموسيقية خرافة مافى هذا شك ، ولكنها تعطينا صورة واضحة عن ذلك اللون من القصص فى الادب الانجليزى الذى طار صيته فى الآفاق ، وتندر به الموسيقيون الجوالون فى شتى البلاد ، كما تصور هذه القصة الموسيقية احدى مغامرات الصيف عندما تخلص الطبيعة من أغلال الشتاء وقيود الجليد .

ولم يكن احتفال شكسبير بالصيف أقل من احتفال غيره من الشعراء ، فقد ضمن مقطوعاته المسماة « السونات » Sonnets كثيرا من الاحلام التى تراوده والهواجس التى تنازع قلبه عندما يقبل الصيف كما كتب مسرحية « حلم ليلة فى منتصف الصيف » وهى مسرحية ابداعية من نوع الملهاة يغمرها ضوء الشمس وينسكب فوقها ضوء القمر تجيش بالعواطف الرقيقة والاحاسيس الجميلة والاشجان الانسانية ، وضمن بعض مسرحياته الاخرى أشعارا رقيقة عن جمال الطبيعة فى الصيف فوق شطئان فينسيا .

وقد صور شعراء البحيرة فى الادب الانجليزى مثل كوليردج ووليم وردزورث بهجة الطبيعة فى الصيف واصطفاق الموج مع الشاطىء فى صخب وجلبة أو فى خفوت وهمس كما صوروا الزبد وهو يتناثر كالقطن المندوف ويترامى تحت أقدام الصخور الشامخة .

حتى اذا ما أدبر الصيف وحل الخريف ثارت فى نفوس الشعراء عواطف جديدة وأحاسيس أخرى كالشاعر الرومانتيكى لورد بيرون أو الشاعر الحالم بيرس شيللى الذى قال :

مات الصيف وعشت أنا لأبكى
وأغرق فى بلبلة من النحيب
ان العالم يغرق فى دنيا الرؤى
وكم أنا تعب مكدود
لأنى أجول من غيرك
كانت لدى فرحة دائمة
فى صوتك الحنون وبسمتك الضحوك
ولكنها تولت الى الأبد وسأذهب فى اثرها !

الربيع
فى الأدب الانجليزى

ليس الاعجاب بالطبيعة وقفا على شعب من الشعوب ولا لغة من اللغات ولا أدب من الآداب ، وليس الاعجاب بالطبيعة مقصورا على زمن دون زمن ولا عصر دون عصر ، ولكن الاعجاب بالطبيعة وجد منذ وجد الانسان ووجدت الطبيعة ، فألهمت الشعراء والكتاب والفنانين ، وستظل تلهم الشعراء والكتاب والفنانين حتى يرث الله الارض ومن عليها وما عليها ....

ومن مظاهر الطبيعة فصل الربيع حيث يعتدل الجو ، ويرق النسيم ، وتصفو السماء، وينضر الزرع، وتتفتح أكمام الازهار ، وتترنم الاطيار بأعذب الاغاريد وأشجى الانغام .

واذا كان الادب الانجليزى يعتمد فى أصول كثيرة على الادب الاغريقى والادب الرومانى فينبغى أن نقرر حقيقة لامحيص عنها ولا مفر منها وهى أن الادب الكلاسيكى القديم حافل بوصف مظاهر الطبيعة ، وبوصف الربيع .

وقد ذكر جوته أن الطبيعة عند اليونان قد بلغت أوج الجمال فى شعرهم وأبعد مراحل الفتنة والبهاء .. وقد أسس ثيوقريطس فى القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة فى الشعر الريفى ووصف المروج والمراعى وأعياد الربيع .

وهذا فرجيل حذا حذو ثيوقريطس فألف أغانى الرعاة .

وهكذا نما الادب الريفى والشعر الريفى أو مايطلق عليه الانجليز رورال بويترى Rurol Poetry

وأخذ أدب الطبيعة ينمو فى عصور الادب الانجليزى المختلفة حتى جاء شكسبير فى القرن السادس عشر فصور مجالى الطبيعة وفتنتها وصور صخب الطبيعة وقسوتها فى أدبه الذاتى وأدبه الموضوعى .

وان من يقرأ مقطوعات شكسبير وأغاريده يجد وصفا رائعا للربيع بين ثناياها، وقد أهدى شكسبير المقطوعات الاولى الى نبيل مجهول الاسم اختطف منه معشوقته وحرمه جمال الطبيعة ورونق الربيع وبهجة الصيف وفتنة الخريف ، وأهدى المقطوعات الباقية الى فتاته وهى ذات شعر أسود واهاب أسمر ، فخالف بذلك عادة الشعراء الذين كانوا يرون عرائس أحلامهم وملهمات فنهم فتيات ذوات شعور شقراء وبشرة بيضاء ...

وحوت مقطوعات شكسبير جملة من أوصاف الطبيعة ومباهج الربيع وفرق شكسبير بين الطبيعة والحب فكتب جنون الحب ويأس الحب والهوى والشباب حتى أن الشعراء الرومانتيكيين استمدوا أصول فهم ومقومات مذهبهم من هذه المقطوعات الرائعة التى دبجتها براعة شكسبير .

اسمعه يقول :

تعالى واحيى معى وكونى حبيبة فؤادى ...

فسوف تنبت لنا مسرات الحياة ...

ان التلال والوديان والمروج ...

والجبال الشماء تبدى لنا الرضوخ ...

هنالك سوف نجلس فى الربيع فوق الصخور ...

حيث يتراءى الرعيان يطعمون الاغنام ...

وتتجلى الاطيار الصوادح فوق الغدران ...

تترنم سكرى بأعذب الالحان ...

هنالك سأصنع لك سريرا من ورود ...

ومن نوار آلاف الازاهير

سأصنع لك قبعة وثوبا ..

موشى بأوراق من الزهر بيضاء ...

وقد ألف الشاعر الانجليزى جون دن John Downe فى نهاية القرن السادس عشر ومستهل القرن السابع عشر مدرسة شعرية كانت تهتم كل الاهتمام بالناحية الميتافيزيقية فى الشعر وكلفت بما بعد الطبيعة كلفا شديدا ، وقد شاع مذهبها فى جميع اغراض الشعر حتى شمل الغزل والحب ووصف الربيع فقال جورج هربرت George Herbert من أتباع هذه المدرسة :

أيها النهار الصبوح الذى لانسمع فيه ركزا ...

وغمره الاشراق ورخى النسيم ...

كأنك يوم عرس للسموات والارض

ان الظل سيحزن عليك عندما يهبط المساء ...

لانك ستلفظ آنفاسك الاخيرة ...

أيها الربيع الطيب الباسم اليوم المتفتح الورود ...

كأنك الصندوق امتلأ بصنوف الحلوى الشهية ...

ان ألحانى تخبرنى أن لأيامك نهاية محدودة ..

ولابد لكل شىء حينئذ أن يموت ...

فجورج هربرت ينظر الى الربيع على أنه جمال زائل وحسن لايدوم ، ويخرج من ذلك الى حقيقة لا خلاص منها ولا محيص عنها وهى أن كل شىء ماخلا الله باطل لايدوم ....

وقد سبقت المدرسة الرومانتيكية فئة من الشعراء تغنوا بوصف الطبيعة والريف كان منهم كوبر الذى قضى الجزء الاكبر من حياته فى بلده على ضفاف أحد الانهار وفى حمى الاشجار المتشابكة المتدلية والمراعى الممتدة الفسيحة فأرانا الشمس وهى تشرق على الغابة ، وأسمعنا هديل الحمامة وهى تهدل فى عشها ، وصوت جناح اليمامة وهى ترفرف فى الاجواء ، وجعلنا نستنشق أريج الزهر وهو يفوح فيعبق الارجاء .

كذلك فعل وليم كولنز Collins وبليك Blake الذى وصف الربيع وصور مفاتنه ولكن تصويره ممزوج بألم دفين وحزن عميق يعصف بقلبه عصفا ويهز أركان نفسه هزا .

وكتب الشاعر الانجليزى جيمس تومسون James Thomson فى القرن الثامن عشر قصيدة بعنوان « الفصول » تعد من روائع شعره ، فمهد شعره لمدرسة الحديقة فى الادب الانجليزى أو مدرسة الحالمين الذين يحبون الطبيعة لما تمثل فيها من جمال وتجلى على وجهها من أمارات الفتنة والسحر والرواء ...

ومن الشعراء الذين وصفوا الربيع وتفننوا فى وصفه الشاعر الاسكتلندى وليم دنبار رب القوافى فى اسكتلندة كما يقول الانجليز . اسمعه يقول فى قصيدته :

عندما أدبر شهر مارس بعواصفه الهوجاء

وأقبل أبريل مفضض الانداء ...

وطلع على الطبيعة الهادئة ..

بريح عاتية آتية من الشرق ...

وأعقبه شهر مايو مشرق الازاهير

طفق الطير يغرد ...

بين الورود العبقة البيضاء والحمراء والسمراء ...

فقد وقع أنغامها متعة للسامعين ...

كنت هاجعا فى مخدعى حتى تبلج الصباح ...

فخلت فلق النور يطل بأعين من بلور ...

وخلت مايو الصبوح يمثل حيال مخدعى ...
فى ثياب مزخرفة الالوان ...
هادئا رزينا ينبض بالحياة والنشاط
ويتدثر بدثار ناصع متآلف من الازهار اليانعة ..
ذوات الالوان الرائعة بيضاء حمراء سمراء زرقاء ...
يعلوها الظل وتفضضها أشعة الشمس الذهبية ...

واهتم القصاص فى انجلترا بوصف جمال الربيع والمشاعر التى تنتاب أبطال قصصهم فى الربيع من حب ، كما اهتم الشعراء الرومانتيكيون فى انجلترا اهتماما بالغا بوصف الربيع وذلك لان الرومانتيكية كان من مذهبها الرجوع الى الطبيعة أو المعيشة داخل الكل كما يقول الفيلسوف الالمانى جيته. ان الرومانتيكية حب للاسفار وترنم بالاشعار والاحاسيس الجياشة والمشاعر الدفاقة .

وكان من أعلام هذه المدرسة الشاعر وليم وردزورث وجون كيتس والشاعر الحالم شيللى ولورد بيرون ، قد حوت دواوين هؤلاء الشعراء شعرا عن الربيع ومباهجه والأحاسيس التى تنتاب الشاعر فى ابانه وغضونه ، فهم يصورون نضرة الطبيعة فى الربيع وتفتح الزهر واخضرار الزرع وتفريد الطير وهم يتخيلون للربيع وجودا معنويا ويخاطبونه مخاطبة حسية ويتحدثون اليه حديث القلب الى القلب ونجوى النفس الى النفس ، ويتفنن الشعراء فى ذلك ماوسعهم التفنن ، فأسمعونا قلب الربيع وخلجات نفسه كما صوروا الابداع الالهى دون زخرفة ولا بهرجة بين ألفاف الغاب ومجرى العيون والينابيع ، وقمة الصخور ، وأعماق الوديان .

ولم يتمسكوا كل التمسك بالمناسبات الدقيقة بين المشبه والمشبه به على نحو ما نجد فى الشعر العربى انما غدا شعرهم مشاعر دفاقة وأحاسيس جياشة تنساب فى سهولة وبساطة كما ينساب الجدول الهادر ، والغدير الرقراق ..

وقد ظهرت نزعة تصوفية فى وصف الربيع كتلك التى نجدها عند الشاعر الانجليزى كوفنترى باتمور Patmore والشاعر الانجليزى فوجهان . فليس «فوجهان» شاعرا رومانتيكيا يحب الازهار ويعشق الورود فى الربيع، وليست الازهار تتجلى حيال عينى «فوجهان» كحسناء ذات فتنة أو ربة من ربات الجمال نصفها انسية ونصفها زهرة ، ولكن «فوجهان » يخرج من الربيع ليلقى ربه ، ويخاطب خالق هذا الجمال الساحر الخلاب ، فاذا كان كولريدج يتحدث عن الزهرة من جذرها الى كأسها ، ويصور فتنة الروض ، فان «فوجهان» يصور قدرة الخلاق سائرة بين البساتين ، مارة عبر المروج ...

وفى الادب الانجليزى الحديث نجد وصفا للربيع عند د . هـ . لورنس ، وت . س . اليوت واوسكار وايلد وغيرهم برغم أن أكثر الادباء الانجليز فى العصر الحديث يمكن أن نطلق عليهم أدباء الكارثة لعبوسهم وسخطهم وفقدهم الامل فى مظاهر الحضارة الحديثة .

بين الربيع والخريف

أوشك الصيف أن يدبر بحره اللافح ، وقيظه الشديد ، وأخذ الخريف يتقدم فى اختيال شيئا فشيئا حاملا نسائمه الرخية الناعمة الوادعة الى الدنيا ساكبا روحا حلوة لطيفة فى النفوس ، والخريف ككل فصل من فصول السنة له طابعه وسماته وله صبغته ومميزاته ، وان من يتصفح دواوين الشعر العربى يجد أن الشعراء العرب قد تحدثوا كثيرا عن الفصول ، فتحدثوا عن الربيع وتحدثوا عن الخريف وتحدثوا عن الصيف وتحدثوا عن الشتاء ووصفوا مفاتنها ومظاهرها ومجاليها ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم الى الربيع منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث وتفننوا فى ذلك ماوسعهم الافتنان ، وابتدعوا فى ذلك من المعانى ماوسعهم الابتداع، فالربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد يتكلم ، والدنيا معاش للورى حتى اذا أقبل الربيع فهى منظر ، وتبدو أوراق الشجر حيال الشاعر فى الربيع عذارى ، والنضارة ضحكا ، واهتزاز الغصون مغازلة ، ويبدو ثغر الريح يلثم خد الزهور ، ويبدو الروض حيال الشاعر فى الربيع عرسا جمع أنواع السرور ، وما الى ذلك من تأملات رقيقة وتصورات طريفة وخيالات جميلة .

وان الباحث فى شعر الربيع يجده فى سهولة ويسر ، ولكن الباحث فى شعر الخريف يصادف مشقات كثيرة وعقبات أكبر ، ولكنه بعد هذا كله وبرغم هذا كله ينتهى الى أن الشعراء العرب قالوا فى الخريف شعرا طريفا مافى هذا شك .

فالطبيعة معلمة المعلمين جميعا كما يقول ليونارد دفنشى والطبيعة ملهمة الفنون . وقد يحب الشاعر الطبيعة ، ويحب الفن بعدها على حد تعبير الشاعر الانجليزى وليام كولنز .

وقد قال العرب فى الخريف : انه ربيع النفس ، كما أن الربيع ربيع العين فطبعه بارد يابس، فيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان، وتنضج الثمار ويغير وجه الأرض ويصفر ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الهوام وتنحجز الحشرات .

وقد ربط كثير من الادباء والشعراء بين الربيع والخريف فقال أحدهم كل مايظهر فى الربيع نوار ، وفى الخريف نجنى ثماره فهو الحاجب أمامه والمطرق قدامه .

وقد افتخر شاعر بالخريف على الربيع فقال :

محاسن للخريف بهن فخر ... على زمن الربيع وأى فخر
به صار الزمان أمام برد ... يراقب نزحه وعقيب حر

قلت ان أحد الأدباء قد وصف الخريف بأنه ربيع النفس كما أن الربيع ربيع العين ، وقد حاول بعض شعراء العرب التحدث عن خلجات نفوسهم ونبضات شعورهم وخطوات عقولهم أكثر مما يتحدثون عن مباهجه ومفاتنه ان كانت له مباهج أو مفاتن .

وقد كان شعور شعراء العرب بالطبيعة على أشده وبالفصول فى أوجه ، فمنطقة البحر الابيض المتوسط لما تمتاز به من مناخ معتدل وتربة خصبة وسهول خضر كان شعور شعراء الشام ومصر والاندلس فيها بالطبيعة والفصول جليا واضحا ، وامتاز شعر الاندلس بوجه خاص بهذا اللون من الادب على يد ابن خفاجة وابن هانىء وابن زيدون ، وكان بعض الشعراء العرب يشاركون الطبيعة فى حليها وعطلها وفى كسائها وعريها ، كما كانت الطبيعة تشاركهم فى أفراحهم وأتراحهم وفى غنائهم وبكائهم كتلك المشاركة الوجدانية التى نجدها فى الأدب الأوربى والتى عبر عنها الشاعر الفرنسى بول فاليرى فى قوله :

« انى أعرف هذه الطبيعة وتعرفنى ولم يبق لدى منها شىء مستور فهى تخفق فى كل نبضة من نبضات قلبى ... »

وقد عبر عبد الله بن المعتز عن هذه المشاركة بين الطبيعة والشاعر فى قصيدة له عن أيلول أو عن الخريف بمعنى آخر ولكن مشاركة ابن المعتز للطبيعة لم تكن الا لتساقى الراح غداقا وتعاطى كئوس الخمر دهاقا ، ولم تكن الا مشاركة محدودة مختصرة .

طاب شرب الصبوح فى أيلول
برد الظل فى الضحى والاصيل
وخبت جمرة الهواجر عنا
واسترحنا من النهار الطويل
وخرجنا من السموم لبرد
ونسيم وطيب ظل ظليل
وشمال تبشر الارض بالقطر
كذيل الفلالة المبلول
فكأنما تزداد قربا الى الجنة
فى كل شارق وأصيل
ووجوه البقاع تنتظر الغيث
انتظار المحب رد الرسول

وان من يقرأ هذه الابيات يجد فيها مشاركة بين الشاعر والطبيعة ، ولكنه يجد بعد هذا كله وصفا للطبيعة والخريف ولا تطلعنا هذه الابيات على نفسية الشاعر اطلاعا ينقع غلتنا ويروى صدانا ، ونحن يمكن أن نعرف ذلك كل المعرفة اذا قارناها بقصيدة للشاعر الانجليزى (تومسون) فى الخريف ، ذلك الشاعر الذى جمع قصائده فى الشتاء والربيع والصيف والخريف فى مجموعة بعنوان الفصول على النحو الذى فعله الشاعر الفرنسى سان لامبير Saint Lambert ويكفى أن أذكر نبذة من قصيدة لامارتين فى الخريف لنعرف الفرق بين الشاعرين :

سلام أيتها الغابة المتوجة ببقايا الخضرة ...

ويأيتها الأوراق المصفرة فوق الأعشاب المنثورة ...

سلام أيتها الأيام الجميلة الاخيرة فبعدك أحزان الطبيعة

لأنك توافقين حزنى وتسرين نظرى ...

أجل انى فى أيام الخريف هذه حيث الطبيعة تحتضر

أجد الجمال الذى أنشده فى نظراتها المتحجبة ...

فهى وداع الصديق وهى الابتسامة الاخيرة ...

من شفاه سوف يغلقها الموت اغلاقا أبديا ...

ان الوردة تسقط بعدما تعطى اريجها الهواء ...

وهنا جثم فى الشمس والحياة الوداع ...

أما أنا فسأموت ، وروحى وقت الغناء ...

سوف تردد صوتا حزينا رقيق الايقاع ...

فالشاعر الفرنسى لامارتين يصور أثر الخريف فى نفسه أكثر مما يصور أثر الخريف فى عينه كالشاعر العربى ، ويجارى فكرة الحزن التى كانت مسيطرة على الادب الرومانتيكى فى فرنسا وانجلترا ، ويعبر عن ألمه وشجنه على العكس من الشاعر العربى الذى تسيطر على نفسه مشاهد الطبيعة كقول الصنوبرى فى الخريف :

نحن منـــه على تلقى شـتاء ... يوجب القصف أو وداع مصيف
فى قميص من الزمان رقيـــع ... ورداء من الهواء خفيـــف
يرعد المـاء منه خوفا اذا ما ... لمسته يد النسـيم الضعيف

ولكن الخريف مع ذلك لم يكن داعيا الى شعر الوصف فحسب ، بل كان داعيا الى شعر النصح كذلك ، وقد اكتسى ذلك النصح بأسلوب طريف رقيق كقول الشاعر :

خذ بالتوتر فى الخريف فانه ... نصديقها ومن الصديق يخـاف
يجرى مع الايام جرى نفاقهـا ... مستوبل ونسيمه خطـــاف

ومهما يكن من شىء فاننا ينبغى أن نعترف بأن نظرة الشاعر العربى للطبيعة كانت نظرة مكانية أكثر مما كانت نظرة زمانية ، ولم يكن شعور الشاعر العـربى بالزمان الا فى خطوات قليـلة تتناثر كالأزاهير هنـا وهناك .

المسرح المصرى والمسرح الانجليزى

يلتقيان فى حركات تطورهما

ان المتتبع لتاريخ المسرح المصرى يجـــده قد مر بتطور عظيم منذ نشأته حتى العصر الحديث يشابه الى حد بعيد، ما مر به المسرح الانجليزى الا أن نهضته عندنا قد بدأت كليلة ضعيفة منذ الحملةالفرنسية علىمصر حتى نظم الخديو اسماعيل علاقاته بالغرب ، فأرسل البعوث العلمية التى تثقفت بثقافات الغرب المختلفة، وتطبعت بطابع الحضارة المختلفةومتابعة العلوم والفنون كالمسرح والسينما والنحت والتصـــوير ، ولم يكن لمصر قبل عهد اسماعيل عهد بالتمثيل الا ماكان من ملاعب فى الاسواق والمواسم والحفلات الخاصة حتى شيد الخديو اسماعيل دار الأوبرا الخـديوية بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس الذى حضره كمـــا نعلم ملوك العالم وأمراؤه وكبار رجاله فأحب الخديو اسماعيل أن يرفه عنهـم وأن يستقبلهم أحسن استقبال .

وكانت أول رواية أخرجت على مسرح الاوبرا رواية (عايدة) منعمل الموسيقى الايطالى الشهير جوزيف فردى ، اشترك فى وضـــع الرواية وتصوير مناظرها «ماريت» نفسه ، ومثلت فى مساء ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٧١ بحضور كبار القوم واشترك بعض الجنود فى الظهور على المسرح

وهذه الرواية من الروايات التى طالما مثلها المرحوم الشيخ سلامة حجازى بعد أن ترجمهـا الى العربية الأديب المعروف سليم نقاش ، وقد اشتركت السيدة منيرة المهدية فى بعض الروايات التى كانت تمثل فى ذلك الوقت فى بعض المسارح المحلية وان كان اشتراك المرأة المصرية فى التمثيل محظورا ومقصورا على المرأة الاسرائيلية أو المسيحية السورية .

وهكذا نشأ التمثيل فى مصر ضعيفا فاترا حتى جاء شوقى فألف مسرحياته الرائعة التى كانت ـ برغم ما يوجه اليها من نقد فنى فى بعض الاحيان من ناحية المسر ح ـ حجرا راسخا فى بناء نهضة المسرحالمصرى وتشجيع الكتاب على الخوض فى غمار المسرح والاتيان بثمار قرائحهم والابداع فى حبك المسرحيات ولا نزال حتى الآن نتقدم فى سبيلالنهضة المسرحية ، ونرجو أن يستمر تقدمنا حتى نقف تيار السينما الجارف ونجعل الناس يؤمنون برسالة المسرح الخالدة .

وقد مر المسرح الانجليزى كذلك بتطور كبير حتى وصل الى حالته الراهنة، فقد شهد المسرحالانجليزى فى منشئه روايات الطلاسم والالغاز

وكانت تدور حول أشخاص الكتاب المقدس وأحداثه كما شهدت روايات المعجزات التى تعرض لما لا قاه القديسون الصالحون فى حياتهم من آلام وأوصاب ٠

وشهد المسرح فى القرن الخامس عشر المسرحية الخلقية ٠ وما جاء العهد الاليزابثى حتى كان المسرح يقام فى جنوب التيمز حيث يزدحم بائعو الفواكه والجعة والجوز ، وكان المسرح نفسه بدائيا يختلف كل الاختلاف عن مظهره فى العصر الحديث فى بنائه وتقسيمه ٠

وقد مر المسرح الانجليزى بأزمات عنيفة كل العنف فى فترات مختلفة من حياته الفنية ، فأغلق فترة طويلة من الزمان حتى أتيح له أن يفتح بعد ذلك وأن يدخل عليه كثير من التحسينات سواء كانت فى بنائه وتقسيمه أو كانت فى رواياته التى تعرض على خشبته وقد تعددت وتنوعت المسرحيات وأصبحت ذات غرض اجتماعى أو غرض سياسى أو غاية عالية ٠

ونهضة المسرح الانجليزى فى العصر الحديث انما كانت بفضل أعلام كبار حاولوا أن يقتفوا أثر شكسبير ودريدن واضرابهما مثل أوسكار وايلد وبرناردشو ، وسومرست موم وجالزورثى الذى يعد من تلاميذ الكاتب المسرحى المعروف ابسن ٠

ان من سنة الحياة التطور ، ولقد تطور المسرح الانجليزى كما تطور المسرح المصرى حتى وصل الى حالته الراهنة ٠

وانا لنرجو أن يستمر هذا التطور ، فلا نرجع بحركة الاحياء الى الوراء ، كما نحب أن يقتبس المسرح من المسرح الانجليزى بل من المسرح الغربى بوجه عام محاسنه وفضائله حتى يكون مسرحا عالميا بأدق معانى هذه الكلمة ٠

كشف مسرحى عظيم

عن المسرح فى الشرق

اتفق نقاد المسرح أو كادوا على أن العـــرب لم يعرفوا المسرح أو المسرحيات فى عصورهم القديمة وأنهم تقدموا بعض التقدم فى عصورهم الحديثة ، فعرفوا المسرح والمسرحيات ، وكانت معرفتهم بها قبل شوقى بأمد وجيز ، ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يبحث أو يستقصى نصيب هذا القول من الصحة أو الخطأ حتى قام أحد المستشرقين ــ ولا أقول أحد العرب المعنيين بشئون المسرح ــ فقدم للعالم تمثيليات عربية مثلت فى القرون الوسطى وضعها محمد بن دانيال الموصلى أيام الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر الميـلادى ، وهذا المستشرق هو البروفسور باول كاولى وقد نقل بعض هذه المسرحيات عن أصلها العربى ، وقد فقد البعض الآخر ، فترجمها عن النص الانجليزى الدكتور محمد تقى الدين الهلالى الحسينى ، وعرف بهذه التمثيليات جميعا الدكتور فؤاد حسنين

وهذا العمل ان دل على شىء فانما يدل على كشف مسرحى عظيم وكســـب تاريخى كبير ، وقد ذكر المستشرق الـكبير جورج جاكوب محتويات هذه التمثيليات فى كتابه تاريخ مسرح تمثيل الظل وقال : ان ابن دانيـــال أعظم شاعر ممتع فى العربية ، وقد نبه جاكوب الى هـذه المسرحيات البروفسور مركوس جوزيف مولر فوجد هذه المسرحيات فى مكتبة « سكوريال » الاسبانية وقد فهم جاكوب نصوصها بمعاونة نولدكه وجولدزيهر ودى خوبى

وأول هذه المسرحيات مسرحية (طيف الخيال) وهى تعطينا صورة رائعة للحالة السياسية والثقافية فى مصر فى عهـــد بيبرس ، والذى نلاحظه عليها أنها ليست مسرحية متناسقة الأجزاء متناسبة الأطراف ، ولكنها تصور الحياة تصويرا فريدا ، أما ألفاظ هذه المسرحية فهى رائعة ومعانيها رقيقة وشخصياتها متداولة طريفة « **كالأمير وصال** » الذى زها على الناس بأعماله العظيمة وأمجاده الكبيرة وقد رغب فى الزواج والمعيشة عيشة الاستقامة والهناء ، فطلب من الخاطبة اختيار نصف دينه وانتقاء شريكة حياته

أما ثانية هذه المسرحيات فهى مسرحية « عجيب وغريب » وتصور الحياة المصرية فى الأسواق تصويرا رائعا رائقـــا ، وتبين المهن المختلفة والصـــنائع المتعـــددة وتظهر فيها ضروب مختلفة الألوان من الأخلاق والطباع ، كفنى صانع المباضع ، وخويش الحـــاوى ، ومقـدام الآسى ، وعجيب الواعظ ؛ ومبارك الفيال الذى يخرج على المسرح قائلا :

انظر الى الفيـــل فى تهويل خلقته
واعجب لاتقان صنع الخالق البارى
كقبة بنيت عمدا على عمـــد
وقيرت ظاهرا بالزفت والقـــار
تخال من ورق القلقـاس قد نبتت
أذناه حين تراه عاديا « **سارى** »

وان من يسمع هذ الأبيات يرى أنها رقيقة هزلية ، ويستطيع أن يستشف جو المسرحية فهو يدعو الى المرح والفكاهة .

أما المسرحية الثـالثة فهى « المتيم » وهى تتعلق بعشق المتيم لليتيم وفيها تحريش الديوك على الـكفاح والثيران بقصـــد الفرجة والتسلية ، ونرى فى هـذه المسرحية الجزار « تعاشـــير » والكبابجى « أبو جعران » ، ونرى الوليمة والخمر والعود والند والبـــخور ونرى المتيم فى آخر المسرحية يطلب التـوبة من الهـوى ، فيلتفت الى القبلة ويموت حيث يغسل ويدفن

واننا نسمع فى هذه المسرحية كثيرا من نغمات العشـق والهوى كهذه التى نسمعها فى مسرحيات مجنون ليلى وقيس لبنى وجميل بثينة فها هو ذا ابن دانيال يعرض لشخص تيمه الهوى فيقول :

أهل الغـــرام تجمعوا وتوســـــلوا وتضرعوا
موتوا تعيشـوا فى الهوى وتمـــزقوا وتقطعـــوا
وخـــذوا حديث متيـــم عمـــن ســـواه أودعوا

ولست أكتب هذا الفصل لأتحدث عن القيمة الفنية فى هـــذه التمثيليات أو عن قوة الحوار وسلاسته أو عن جمال العرض ودقته ، وانما أكتب هذا الفصل لأبين قيمة اكتشاف هـــذه المسرحيات من الوجهة التاريخية فى دراسة فن المسرح عند العرب فليس من شك فى أنها هدت الى تراث كان مجهولا والى حلقة كانت مفقودة فى دراسة المسرح .

وان كانت هنالك كلمة يمكن أن تقال فى ختام هذا الفصل فهى أننا ينبغى أن نبحث عن أصول المسرح عند العرب ، ولا نكتفى بهذه الأحكام النهائية التى يظن كثير من كتاب المسرح أنهم وصلوا اليها ، واننا ينبغى أن نجد فى بحثنا ونمعن فى دراستنا ، والا نقف مكتوفى الأيدى مشلولى الحركة منتظرين أحد المستشرقين كالبروفسور باول كاولى ليقدم الينا هذه المسرحيات الثلاث التى ألفت فى القرن الثالث عشر الميلادى . !

أمير الشعراء الانجليزى
فى الأدب العربى الحديث

تصدر جامعة الدول العربية ترجمات جديدة لمسرحيات شكسبير ، ولسنا فى هذا المقام نحب أن نتعرض لهذا المشروع من حيث قيمته وخطره، فهذا قول قد فات أوانه ، وأقدم المترجمون على الترجمة منذ سنوات ، وها هم أولاء قد انتهوا منها ، وها هو ذا الأستاذ عباس محمود العقاد قد انتهى من تأليف كتابه « التعريف بشكسبير » الذى يعد بمثابة التمهيد لسلسلة الترجمات التى ستطبع وقد صدرت من المجموعة عدة كتب .

لسنا نريد أن نتعرض لهذا كله ، انما نحب أن نقول : ان فضل شكسبير ليس وقفا على الأدب الانجليزى ، انما تعداه الى الآداب العالمية جميعا ، ومنها أدبنا العربى الحديث ، وأثر شكسبير على العربية يمكن أن نقسمه قسمين : القسم الأول متصل بالنشر وهو الترجمة ، والقسم الآخر يتصل بالتأثير فى الشعر العربى .

ومسرحيات شكسبير لا يجد فيها المتعة القارىء الانجليزى وحده ، بل يجد فيها هذه المتعة كل قارىء فى أى قطر أو مصر ، لأنه يجد فى شخصياتها أناسا يشعرون مثل شعوره ويتحركون فى مثل اتجاهاته فى التفكير ، فهى موضوعات انسانية تمس النفس الانسانية مسا رفيقا رشيقا

وقامت جهود أدبية كبيرة منذ مطلع النهضة الأدبية الحديثة لترجمة هذه المسرحيات .

ومنذ نصف قرن تقريبا عنى الأستاذ ابراهيم زكى ، من كبار موظفى وزارة المالية بهذه الترجمة فأصدر كتيبا فى ١٢٠ صفحة صغيرة الحجم لخص فيها بعض مسرحيات شكسبير ، ولعله نقل هذه الترجمة عن كتاب « شارل ، وماري لام » الذى تقوم دار الهلال بنشره ، ونشرت منه حتى الآن جزأين يضمان مسرحيات : الزوبعة وحلم ليلة صيف وقصة الشتاء وضجة بلا طائل و « كيفما تريد » وسيدان من فيرونا وتاجر البندقية وترويض النمرة وصاع بصاع والليلة الثانية عشرة ومتاحف أثينا وهاملت وعطيل وبركليس .

وبرغم أن اسماعيل عبد المنعم كان موجزا فى ترجمته لبعض مسرحيات شكسبير أكثر من ترجمة دار الهلال فقد وجد فى ترجمته المتعطشون الى الثقافة الاجنبية شيئا يزيدون به ثقافتهم ، ويلونون به تفكيرهم ، ولا سيما أنهم كانوا يتوقون الى أبواب جديدة من المعرفة بدلا

من هـــذه الأساليب الأدبية العقيمة ، التى سيطرت على الفكر الغربى آن ذاك ، وبدلا من هذه الموضوعات السقيمة التى لا تســاير الحياة ، ولا تجارى الزمن ، وأسرف فيها الأدباء والمتأدبون فى هذه الفترة .

لذلك كان من الجميل أن يقوم اسماعيل عبد المنعم بهذه الترجمة ، التى صدرها بمقدمة وصف فيها هذه الروايات فقـــال : « وقد اخترنا من رواياته ذلك النوع المعروف بالمأساة لأنه برع فيه وأبدع أيما ابداع وكأنه غاص فى سويداء القـــلوب ، ووقف على أخـــلاق الناس وأظهر ما تكنه الضمائر وباح بما هو فى طى الـكتمان ، فسطرها من أنفـاس العاشقين وعبرات البائسين ، وأرانا فيهـــا أشكالا متضاربة من الطبائع وصورا شتى من العادات ، فهذب النفوس وقوم الأخلاق وثل بها عروش الظلم وقوض دعائم الاستبداد » .

وترجم طانيوس عبده رواية هملت . وكان طانيوس شاعرا متأثرا متفننا فى كلتـا الصـناعتين جيد الملـكة لطيف التخيل عصرى المعنى مستعذب اللفظ ، أكسبته رواياته شهرة بعيدة عنـــد قراء العربية ، وأنزله شعره منزلة كريمة بين أوائل الشعراء ، وامتاز سليمان افندى القرداحى والشيخ سلامة حجازى ومحمد بهجت بتمثيل دور هملت .

وكانت مسرحية « عطيل » أول رواية مثلت لشكسبير على المسارح العربية فى مصر ، وترجمت باشارة سليمان افندى القرداحى ومثل فيها سليمان أفندى دور البطل ، وقام بهـذا الدور بعـد ذلك أحمد فهيم ومحمد بهجت ، كما قام جوق اسكندر فرح بتمثيل هذه المأساة ، فأحرز فى تمثيلها نجاحا منقطع النظير .

وترجم محمد عفت القاضى فى المحاكم الاهلية مسرحية « ماكبث » وكان يمتاز الى جانب عقليته القضائية الممتازة بذوق أدبى رقيق وحس فنى مرهف . فأقبل على ترجمة « ماكبث » بشغف ونهم ، وكان عفت يحسن قرض الشعر ، وله فيه قصائد جيدة فنظم ماكبث بالشعر ، وحاول أن يحافظ على روح النص محافظة دقيقة ، والملاحظ فى ترجمة محمد عفت أنه لم يحذف منها شيئا الا اشارات بسيطة جدا كان لابد من حذفها فى النص العربى ، لأنهـا لا تناسب ذوق القارىء فى البـلاد العربية .

ولمـا عاد الممثل الكبير جورج أبيض من الخـارج وتشبع بروح المسرح الأوربى وأراد أن يقوم بنهضـــة مسرحيـة فى مصر ، طلب من الأستاذ خليل مطران أن يقوم بترجمة بعض روائع شكسبير . وفعـلا أقدم مطران على التـــرجمة وقدم للمسرح المصرى « ماكبث وهمـلت وعطيل وتاجر البندقية والعاصفة وريشارد الثالث والملك ليرويوليوس قيصر »

وجدير بالذكر أن « مطران » كان يترجم عن الفرنسية ، ولذلك وجدنا بعض الاختـــلاف عن النص الانجليزى الاصلى ... كمـــا أن « مطران » حذف كثيرا من المشاهد والتفاصيل فى مسرحياته : ومثال

ذلك أنه أدمج فصول هملت الخمسة فى أربعة وحذف مشهد الجنايات فى الفصل الاول من مسرحية « ماكبث » ، وبرغم حذف بعض المشاهد وصل الى ذروة الادب الصافى الرفيع ، ولولا أن « مطران » ترجم عن الفرنسية لبلغت ترجمته أعلى درجات الكمال الفنى .

ومن الذين عكفوا على ترجمة مسرحيات شكسبير كذلك ، الأستاذ عوض محمد والأستاذ عوض ابراهيم والأستاذ ابراهيم رمزى والأستاذ محمد حمدى ، وترجم الأستاذ سامى الجريدينى المحامى روايتى يوليوس قيصر وهملت وصدر أولاهما بمقدمة جاء فيها :

« ولم أكن أفكر قط فى الاقدام على ترجمة هذه الرواية لو لم يكن لى من « عطيل » أكبر مشجع ، ليس لأنى ممن يجرون فى مضمار خليل مطران ، ولكن للتشـــبه بالكرام ، فخليل مطران على ما أعتقد أقدر عربى يستطيع ترجمة شكسبير ولعله أول من ترجمه ترجمة حقيقية .

ولم يكن أثر شكسبير مقصورا على الترجمة فحسب ، انما شاع فى شعر الشعراء ، وأخيلتهم وتصويرهم الفنى بطريق مباشر وغير مباشر ، ولولا أن « شوقى » قد اطلع على انتاج شكسبير المسرحى وتشبع بفنه ما أقدم على تأليف مسرحياته الشعرية ، وما أخرج لنا الروائع من شعره مثـــل مجنون ليلى ومصرع كليوبترة وعنترة وقمبيز وأميرة الاندلس ، وغيرها ، بل انى لأذهب الى أبعد من هذا فأقول : ان «شوقى» فى «مصرع كليوبترة » حذا حذو شكسبير فى فنه المسرحى فى بعض أحداث الرواية ، وفى بعض المشاهد المسرحية وحاول أن يتسم انتاجه بالخصب والتشعب مثل شكسبير .

وقد نظم شوقى قصيدة من عيون شعره فى ذكرى شـــكسبير . والقصيدة همزية ، استهلها بالمجد الذى نالته انجلترا فى البحار وفوق الجزيرة وأخذ يزهو بنظام الانجليز الدستورى ومشاعرهم بشكسبير . فما أنجبت انجلترا شاعرا مثله ، وما تغنى طائر بأعذب من شعره . وبه وصل مجد الجزيرة الى النجوم الزهر فى السماء . اذ كشف الشـــاعر عن سرائر النفوس وكوامن القلوب ، وشـــعره ملهم يصـــدر عن نفس موحية ، ومعانيه أبكار عذارى ، ومسرحياته ككتاب الدهر فيها شـــتى العبر ، وفيها الاضحاك والابكاء ، وفيها الأفراح والأتراح ، وفيها الآهات والبسمات تأمله فى قوله :

ما أنجبت مثل « شاكسبير » حاضرة
ولا نمت من كـــريم الطير غنـــاء

نالت به وحـده انجلتـرا شرفا
ما لم تنـل بالنجوم الـــكثر جوزاء

لم تكســـــف الشمس لولاه ولابليت
لهـــا ســـرائر لا تحصى وأهـــواء

شـــعر من النســـق الأعلى يؤيده
من جانب الله الهـــام وايحـاء

وكل معنى كعيسى فى محاســـــنه
جاءت به من بنـــات الشـــعر عذراء
أو قصـــــة ككتاب الدهر جامعة
كلاهما فيه اضـــحاك وابكاء

وقد ختم شوقى قصيدته بالدفاع عن شـــكسبير ، اذ رماه بعض النقاد بأنه صور الانسان بصورة ذئب متعطش الى الدماء ، وأجرى أنهار الدم فى مسرحياته ، وملأها بحوادث الاغتيال والقتل . فقال : ان هذه الصور ليست الا صورا مستمدة من الحياة ومنتزعة من الواقع ، فانظروا الى العالم كيف تتقاتل الأمم وتتطاحن ، وكيف مشى لؤم الحياة فى الناس كما مشى آدم فيها وحواء .

ودعا شكسبير الى أن ينهض من رقدته حتى يبيـــد بقلمه دولة الظلم ، ويحطم صرح الطغيان فى أركان العالم ، وقد سطر لهؤلاء الباغين صفحة سوداء هى العزاء الوحيد والبلسم الشافى الذى يخفف الآلام ، ويمسح أتراح البائسين فى خضم الحياة الرحيب .

ولم يكن أثر شكسبير مقصورا على شوقى فحسب ، انما امتد الى شعر حافظ ، ولكننا قبل أن نتعرض لهذا الأثر على شعر حافظ نحب أن نعرض لأثر شكسبير على شاعر آخر من الشعراء المجيدين ، وهو الشاعر محمد الهراوى ، الذى نشر منذ ســـنوات قصيدة عن خنجر « ماكبث » الذى رفعه للانتقام فى مسرحيته الخالدة فقال :

أرى خنجـــرا يدلى الى بمقبض
أنصلا ترى عينـــاى أم أنا خائله ؟
فيأيها النصل الذى لاح فى الدجى
وقد حال دون اللمس لا اللمح حائله
ترى أنت نصل أم تخيـــل واهم
به خبـــل الحمى فخابت دلائله
نعم أنت فى عينى تمثـــلت مثلما
يجرد نصل هذبته صـــياقله
وقد جئت تهدينى طريقـــا شرعتها
وتشبه نصـــلى فى الذى أنا فاعله
أكذب عينى أم أصـــدق ما رأت
وهل صح حسى أو دهى الحس خابله
والا فمـــا بالى أراك وقد بدا
عليك كما لم يبد من قبـــل سائله

أما شاعر النيل ، حافظ ابراهيم ، فصور هذا الخنجر فى احدى قصائده الرائعة المنشورة فى ديوانه ، صوره وهو يتـــراءى أمام بصره ، بعد أن نزعه من غمده فى الليل البهيم ، فأخذ يتألق كاللهب اللامع ثم حمله والرهبة تملأ جوانحه ليجهز على ضيفه الملك « دنكان » ليعتـــلى عرشه ويحتفظ بالملك لنفسه ويخضع الرعية لأمرته .

صور حافظ خنجر « ماكبث » تصويرا أدبيـــــا خلاقا ، رقى بقصيدته الى مصاف الشعر الرفيع ، فهى حاوة اللفظ ، جيدة الصوغ ، رائعة الأسلوب ، واستخدم فيها حافظ كل ملكاته الفنية ليسمو بها الى فن شكسبير الأسلوبى !

غير أن شكسبير يمتاز على حافظ ابراهيم بالناحية النفسية فى التصوير ، اذ جاءت قصـيدته مفعمة بالعواطف ، مصـورة للانفعالات النفسانية التى تساور بطل المسرحية . وقد حاول حافظ ابراهيم أن يستخدم هذه الأداه الفنية فى شعره ما استطاع الى ذلك سبيلا فوفق حينا وفشل أحيانا ، وقد جاء فى قصيدته :

كأنى أرى فى الليل نصـلا مجردا ... يطير بكلتـــا صفحتيه شرار
تقلبه للعين كف خفيـة ... ففيـــه خفوق تارة وقـــرار
يماثل نصـــلى فى صفاء فرنده ... ويحكيه منه رونق وغـــرار
أراه فتدنينى اليه شراستى ... فينـــأى وفى نفسى اليه أوار

امارة الشعر

بين شوقى ودريدن

أمير الشعر المصرى هو أحمد شوقى بلا منازع ، أما أمير الشعر الانجليزى فقد يظن ظان أنه وليم شكسبير ، الذى ترنم بشعره الحادى ، وتغنى بذكره الركبان ولكنه فى الواقع ليس وليم شكسبير ، بل هو جون دريدن الذى منحه الملك شارل الثانى لقب « أمير الشعراء » .

وأنا لا أذكر « شوقى » فى الأدب المصرى الا أذكر دريدن فى الأدب الانجليزى ، فقد تربى شوقى فى أكناف القصر الملكى كما تربى دريدن ، وقال عن نفسه : ان جدته أدخلته على الخديو اسماعيل وهو فى الثالثة من عمره ، وكان بصره لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه ، فوقع على الذهب يشتغل بجمعه واللعب به ، وقال الخديو لجدته : اصنعى معه مثل هذا ، فانه لا يلبث أن يعتاد النظر الى الأرض ، فقالت : هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتك يا مولاى ، قال : جيئى الى به متى شئت !

وهكذا تربى شوقى فى أكناف القصر ، ولد بباب اسماعيل ، واسترعت مواهبه الشعرية « الخديو توفيق » فأوفده الى أوربا ثم اتصل بعدئذ بالقصر .

وهكذا كان دريدن : انحدر من أسرة عريقة ، ومدح وهجا من أجل الملكية ونظم قصيدتى ابشالوم واكتيوفل Absalom and Achtiophel التى تعد من أروع قصائد الهجاء فى الأدب الانجليزى ، ضد شافتسبرى الذى اتهم بالخيانة العظمى للملكية ، وأنتج كثيرا من المسرحيات التى نالت الرضا السامى كفتح غرناطة التى نال عليها لقب أمير الشعراء .

وقد كتب شوقى للمسرح كما كتب دريدن ، وألف الأول « مصرع كليوبترة » وألف الأخير « فى سبيل الحب » وهاتان المسرحيتان تمثلان حياة كليوبترة ، الأولى تبرز ناحية المصرع والمأساة ، والأخيرة تبرز ناحية الحب التى تطغى على كل شىء حتى على الواجب عند بعض الناس .

كان شوقى أميرا للشعراء ، وكان كما يقول خليل مطران « لا يكد فكره ولا يجهده فى معنى ولا مبنى » وقال عنه عبد العزيز البشرى : « انه كان من أمهر الصاغة فى هذا الزمان » ، ولكنه فى الواقع علا وهبط ، وأبدع وأسف ، وأحيانا كان من هؤلاء الشعراء الذين يقول عنهم شللى : « ليس عليهم الا أن يهزوا بجذع الشجرة فتساقط عليهم ثمارا جنية .

ويغلب أن تنشأ الأشعار فى أذهانهم من تلقاء ذاتها ، ولا دخل لارادتهم فيها ، بل برغم ارادتهم » .

أما دريدن فقد كان أميرا للشعراء ، وزعيما للمسرح بلا منازع . ولد سنة ١٦٣١ ، وتعلم فى مدرسة وستمنستر ، ويقول بعض النقاد : ان دريدن فى سنيه الأولى قبل عهد الاصلاح لم يكن يملك أذنا موسيقية، ولا ذوقا شعريا لقرض الشعر ، ولعل هذا يرجع الى أنه قد بدأ شعره متأثرا بالمدرسة الميتافيزيقية التى كان على رأسها الشاعر جون دن John Donne ، ويمتاز شعره بالغموض والابهام والمفارقات ، والاقتصاد فى استعمال الكلمات ، وكان من رجال هذه المدرسة جورج هربرت ورتشارد كراشو Richard Crashau ، ولكن دريدن لم يلبث أن جنح عن هذه المدرسة وهذا المذهب الشعرى .

وقد ساعدت عودة الملكية دريدن على الانتاج الخصب ، فألف عدة مسرحيات ــ حين أمرت الملكة بفتح أبواب المسارح بعد اغلاقها ــ تعد من روائع المسرح الانجليزى ، ولقد تأثر دريدن ببن جونسون أحد معاصرى شكسبير ، كما تأثر بشكسبير ، وقال: « انى أعجب ببن جونسون ولكنى أحب شكسبير ... »

وقد برع دريدن فى تأليف المأساة البطولية Heroic Play كما تابع تأليفه فى ملاهى السخرية Commedy of humow ومسرحيات دريدن متنوعة : ففيها مأساة البطولة ، وفيها ملهاة السخرية ، وفيها الجامعة بين المأساة والملهاة .

وملاهى دريدن قليلة ، ولكن أقوى مناصر لها وهو سكوت يقول : انها « ثقيلة » غير أن هازلت ، وهو أحد المدافعين عن ملاهى عهد الاصلاح قد وجد فيها بعض وجوه الحسن ولكنه فى شىء من السرف أو القتامة !

ولقد سما بدريدن كثير من النقاد ، فذكر سير والتر راليه مبلغ نبوغه فى التهكم السياسى الذى جارى مختلف العصور . وقال كونجريف : « انى أجازف فأقول : انه لم يكتب أحد فى لغتنا الانجليزية فى كثرة دريدن وتنوع فن دريدن ، ووصل الى جودته . ويقول أيضا : ان شعره يحوى بين ثناياه كثيرا من فنون الجمال بل لئن لم يكن له سوى أغنياته أو مقدماته لكفى أن يند بذلك على بنى جنسه .

ويقول سانتسبرى : ان دريدن قد بلغ ذروة الدراما ، أو كما يقول الفرنسيون La tête dramatique فى مسرحيات « فى سبيل الحب » و « الزوج والبدع وأورنج زيب » .

هذا عن دريدن أمير الشعراء الانجليزى ، أما شوقى أمير الشعراء المصرى فقد كتب للمسرح « مصرع كليوبترة » و « مجنون ليلى » ، و « أميرة الاندلس » ، وغير ذلك ، فأضاف الى الشعر فنا مسرحيا جديدا فاستحق لقب أمير الشعراء بلا مراء .

بين لورد بيرون وعمر بن أبى ربيعة

يجد كثير من النقاد مشابه شتى بين الشاعر العربى المعروف عمر ابن أبى ربيعة والشاعر الانجليزى الذائع الصيت اللورد بيرون ، وترجع تلك المشابه الى أسباب عدة وبواعث مختلفة .

فعمر بن أبى ربيعة انحدر من أصل طيب ومنبت كريم وعاش بين عامى ٢٣ ، ٩٣ هـ فى الحجاز ، وكلنا يعرف البيئة الحجازية فى ذلك الوقت ويعرف الشباب الحجازيين من أبناء الخلفاء والامراء ووجوه القوم الذين عاشوا فى بسطة من العيش وسعة من الرزق .

وقد عكف الشبان على قلوبهم يمتعونها غاية الامتاع ، فأيامهم قنص وطرد واقامة فى البادية أو لهو ومرح ومزاح فى الحضر أو اجتماع حول جدول من الجداول المنسابة أو غدير من الغدران الصافية ، أو فى ظل دوحة من الأدواح الفارهة أو مجرى ينبوع من الينابيع السائغة ، ولياليهم أنس وبشر وغناء وطرب .

كان عمر بن أبى ربيعة شابا من أولئك الشبان السراة ، فارع الطول غض الأهاب ، مرح الشباب ، ظاهر الجمال ، وكان يطوف بالكعبة ينسب بالغوانى ويترنم بالأغانى ويتشبب بالجوارى ، ويترقب مواسم الحج ليتغزل بالرائحات والغاديات .

وكذلك كان لورد بيرون فهو ينحدر من أصل طيب ومنبت كريم عاش بين عامى ١٧٨٨ م ، ١٨٢٤ م ونشأ نبيلا من سلالة اللوردات ، ورث اللوردية وهو لم يزل طفلا ، ثم أضاف الى مجد الحسب طلعة جميلة لولا ما كان فيه من طلع يسير ، وعرف الحب وهو فى الثامنة من عمره ، فانه لما كان طالبا فى المدرسة الثانوية أحب فتاة تكبره وتزوجت سواه ، فلم ينقطع تفكيره فيها وأخذ ينشد فيها الشعر .

وعاش بيرون متمتعا بحقوق النبالة الا أنه لم يرعها حق الرعاية، وانطلق متحررا من الاوضاع الاجتماعية ، فطرد بقوة الرأى العام من انجلترا . وهام فى أوروبا ، وتجرع من كل كأس قطرة ، وعاش فى اليونان وبين الجنود الاتراك ، وقطع البسفور سباحة ، وتحمس لاهل اليونان الذين يحاربون الاتراك فى سبيل حريتهم ، وقصد الى بلادهم يريد القتال فى صفوفهم ، فنالت منه حمى الملاريا هناك ومات فى أبريل عام ١٨٢٤ .

وكان لورد بيرون على حد تعبير ماتيوارنولد أقوى قوة دافعة فى الادب الانجليزى ، نظم الروائع من الشعر والبدائع من الملاحم مثل عرس أبيدوس وتشايلد هارولد وما نفرد وغيرها ، وكان الى جانب انتاجه الادبى الممتاز يمتاز بطلاقة وجهه وبشاشة محياه وأطلقت عليه

الناقدة الفرنسية المعروفة مدام دى ستيل « نيرون الحب » كان يفزو المجتمعات بقامته المديدة فاشتدت الغيرة بين النساء على حبه ، ودبت الشحناء وعمت البغضاء ، وتحطمت نفوس ، وتقطعت أنفاس .

وهو فى ذلك يشبه الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، الذى كان يحب المغامرة والمخاطرة ، فلم يكن الرجل الذى يقف ويصف ويحوم ولا يرد كما يقول الزبير بن البكار انما كان رجلا بليغ القول بالغ العمل ، تارة ينسب بزينب وتارة ينسب بهند وحينا يتشبب بالرباب وحينا بالثريا وغير ذلك من الأسماء .

فقال فى الثريا :

قال لى صاحبى ليعلم ما بى ... أتحب القتول أخت الرباب ؟
قلت وجدى بها كوجدك بالعذ ... ب اذا منعت طيب الشراب
من رسولى الى الثريا فانى ... ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

وقال فى هند :

ليت هندا انجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة ... انما العاجز من لا يستبد

وقال فى عبلة :

أحب لحب عبلة كل صهر ... علمت به لعبلة أو صديق
ولولا أن تعنفنى قريش ... وقول الناصح الأدنى الشفيق
لقلت اذا التقينا قبلينى ... ولو كنا على ظهر الطريق

وحدث قدامة بن موسى قال : خرجت بأختى زينب الى العمرة ، فلما كنا نشرف على عشر ليال من مكة لقينى عمر بن أبى ربيعة على فرس ، فسلم على فقلت له : الى أين أراك متوجها يا أبا الخطاب ؟ فقال : ذكرت لى امرأة من قومى برزة الجمال ، فأردت الحديث معها ، ثم أخذ يصفها لى ويصف مكانها ، فقلت هل علمت أنها أختى ؟ فقال : لا واستحيا وثنى عنق فرسه راجعا الى مكة ! ...

وبينما عمر بن أبى ربيعة منصرف من المزدلفة يريد منى اذ أبصر بامرأة فى رحال ففتن بها وسمع عجوزا تناديها : يا نوار استترى لا يفضحك ابن أبى ربيعة ، فاتبعها عمر وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمنى فى مضرب قد ضرب لها فنزل الى جنب المضرب ، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها ، واذا هى أحسن الناس وجها ومنطقا فزاد ذلك من اعجاب عمر بها ، ثم اراد معاودتها ، فتعذر ذلك عليه وكان ذلك آخر عهده بها ، فقال فيها :

علق النوار فؤاده جهلا ... وصبا فلم تترك له عقلا

الى آخر الأبيات ..

وكذلك كان لورد بيرون يتغزل بالنساء مثل مارى شوارت ومارى باركر وسارة صوفيا وكارولين لامب . ولعل أتعس امرأة وقعت فى حب بيرون هى الليدى كارولين لامب التى أحبته حبا ملك فؤادها وقد أهدت له خنجرا مرصعا بالاحجار الكريمة فقدم اليها الخنجر وقال : تفضلى ... !

وكما كان عمر بن أبى ربيعة جريئا فى معاملته للنساء كان لورد بيرون ، وقد تزوج عام ١٨١٥ وهو فى السابعة والعشرين من عمره فتاة كان ينتظر أن ترث ثروة طائلة ، ولكنه لم يقم على حياته الزوجية الا ريثما ولدت له بنته ، وبعدئذ ضاقت زوجته بالعيش معه وهجرته الى أهلها ، فلم يستطع بيرون الحياة فى انجلترا فأزمع الرحيل الى سويسرا حيث التقى بالشاعر الرومانتيكى شيللى فى حمى الثلوج هناك .

وقد أحب بيرون « أوجستا » فتاة وتزوجها وهى شابة ممتلئة الجسم جميلة الوجه هيفاء القد حلوة التقاسيم ، ثم تبين بعد الزواج أنها أخته من أبيه . ويقول أندريه موروا انه نقب عن المستندات التى خلفها بيرون فعثر على بعض الرسائل التى كتبها الى أصدقائه وأثبت فيها حبه وغرامه بأوجستا . وقد أثمر هذا الحب فتاة تدعى «ميدورا» .

وقد برع عمر بن أبى ربيعة فى الشعر الغنائى ، غير أنه برز فى الاسلوب الشعرى القصصى الطريف الذى يختلب الالباب اختلابا وينتزع الاعجاب انتزاعا . فأنت مضطر حين تقرأ قصيدة من قصائده أن تتابع القصيدة لتعرف نهاية قصته فيها ، بل أنت مضطر حين تتصفح ديوانه أن تتلوه من أوله الى آخره ، لأن عمر يمتاز بجاذبية عنيفة وقدرة على الاسر والاستهواء للقلوب والعقول جميعا .

وقد جاء فى الاغانى أن عمر فاق نظراءه بسهولة الشعر وشدة الاسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر واستنطاق الربع وانطلاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وقال نصيب :

كان عمر أوصفنا لربات الجمال . وقال الفرزدق بعد سماع أبيات من شعره ؟ اتق الله يا أبا الخطاب ياأغزل الناس وقال جرير : انكم ياأهل المدينة يعجبكم النسيب وان أنسب الناس المخزومى !

أما لورد بيرون فبرغم انه شاعر خرج على التقاليد ــ مدح النقاد انتاجه الأدبى كالناقد المعروف ماثيو أرنولد الذى عده أقوى قوة دافعة فى الادب الانجليزى كما قلت آنفا . اسمعه وهو يقول لمارى شوارت التى تزوجت جون ماسترز :

حسنا انك ترفلين فى حلل السعادة

وكم أتمنى أن أذوق الهناء ...

فقلبى لا يزال يرنو الى الرفاهية معك كما دأب على ذلك من قبل

***

بورك زوجك !فسوف يستقى الآلام ... كى يكون على مرأى من حظه السعيد ولكن كم يحمل قلبى له من الشحناء ...

ان لم يحمل لك الحب الاكيد ...
وداعا يا مارى ... فحتم على الرحيل
فكلما كنت هانئة لا اعرف طعم الاشجان
ولكن قربك لا أستطيع البقاء
خشية أن يهوى قلبى سريعا فى هواك !

وقد امتاز بيرون الى جانب هذه الناحية الفزلية الرفيعةبوصف الطبيعة حتى أصبح زعيما من زعماء المدرسة الرومانتيكية فى الادب الانجليزى ، تلك المدرسة التى قامت على أيدى بيرون وشللى وكيتس وورد زورث وغيرهم من شعراء الرعيل الاول فى الادب الانجليزى ، وامتازت هذه المدرسة بمسحة رائعة من الجمال فى وصف الطبيعة وتصوير الخلجات الانسانية فى أسلوب عذب رقيق بديع .

ويقول الناقد و. ليك :

« ان انتصارات العباقرة ، لأعظم شرفا وأجل فخرا من تلك الانتصارات التى تحرزها القوة الجسدية فى المواقع الطاحنة فوق الارض والمعارك الضروس فوق اليم ! تتخرب من اثرها الممالك وتتدمر المدائن وتزهق حياة الجند وتنساب الدماء ! ولكن انتصارات العباقرة لاتسيل فيها قطرة من الدماء ، وانما تشير كآثار ضخام فوق الخرافات والاساطير وتهدى الأمم الى الكمال ... وان بيرون من هؤلاء العباقرة ... يأخذ سمته الى كل طريق يصل الى شغاف القلوب فالقلوب تقرع عند قراءاته بالافراح ... والعيون تنهل عند تلاوته.. بالدموع .. فربما كان لبيرون نقاد .. ولكن لم يكن له منافس ...! »

وكان عمر بن أبى ربيعة يستمد كثيرا فى شعوره من وحى الاسلام ويضمن شعره بعض معانى القرآن الكريم ، وقد لقيته صاحبته فى المسجد ينظر الى نساء وفى يدها خلوق طيب من خلوق المسجد ، فمسحت به ثوبه ومضت تضحك فقال :

أدخل الله رب موسى وعيسى ... جنة الخلد من ملانى خلوقا
مسحته من كمها بقميصى ... حين طافت بالبيت مسا رفيقا
غضبت أن نظرت نحو نساء ... ليس يعرفننى مرن الطريقا
وأرى بينها وبين نساء ... كنت أهذى بهن بونا سحيقا

وكذلك كان لورد بيرون يستمد بعض قصائده من الدين فكتب ملحمة بعنوان « قابيل » استمد بعض أصولها من الدين المسيحى ، صور فيها سخط قابيل على خطيئة أبيه آدم وعلى خروجه من الجنة فى جو دينى رهيب تلعب فيه الأرواح والشياطين ، كما كتب ترانيم عبرية عذبة المعنى رائعة الخيال ، واستمد بعض صورها من الكتب المقدسة القديمة.

الليـــل
بين الشرق والغرب

كان صاحبى أديبا رائق الحس مرهف الشعور ، صادق الوجدان لا يقر شيئا جميلا من الشـعر أو النثر حتى أراه يسعى الى ويحدثنى عنه ، حديث المعجب المتذوق ، وكنا نتحدث عن بعض الكتب الأدبية التى ظهرت حديثا للفيف من الأدباء والشعراء وكنت أعجب بسعة اطلاعه ، ووفرة محصوله ، وتمكنه من الاحاطة بكل شىء جديد غير أنى فى هذه المرة وجدته ساكتا ساكنا ، وكنا نجلس فى حديقة غناء فى الهـــواء الطلق والليل مرخ سدوله علينا غير أن النجوم كانت تلتمع فى السماء ، وتتألق على صفحتها كالزهر الأبيض المنثور · ولم يلبث صاحبى أن خفض بصره وقال : هذا الليل الساحر الأخاذ بنجومه المتألقة وكواكبه المتلألئة فى صفحة الســماء ، وهــذا القمر المختال على عرشه فى أجواز الفضاء ، هذا الليل بسكونه الرهيب ، وصمته المهيب ، وهمسه الرقيق كم ألهم الشعراء ، وكم سكب ذوب السحر فى قلوب الفنانين ! قلت : أراك تتحدث بانفعال عن الليل ، تراك هل أمسيت محبـــا واقعيـا ؟ فقال : كلا يا سيدى فانما الليل قد حظى فى الآداب العالمية بأهمية كبيرة ومنزلة رفيعة ، وظل يلهم أرباب الشعر ورسل الفن منذ الأزل الى وقتنا هذا ، وأكبر الظن بل أكبر اليقين ، ان كان اليقين يصغر ويكبر ، أنه سيظل يلهم أرباب الشعر ورسل الفن حتى يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها ، وجدير بك أن تتحدث الى قرائك هذه المرة عن الليل فانى أجد فى حديث الليل متعة ليست بعدها متعة وسعادة لا تعدلها سعادة · قلت :

كان الليل فى الشعر الجاهلى ملهما للشعراء الذين كانوا يضربون فى الصحراء ويهيمون فى الفلاة بين الرمال الصفر والسماء الزرقاء ، وقد ذكر امرؤ القيس الليل فى معلقته كما ذكره طرفة بن العبد ولبيد وغيرهم من شعراء المعلقات ، وترنم الأعشى صناجة العرب بسحره وفتنته. ولكن الشاعر الجاهلى لم يجد غير « ليل كموج البحر أرخى سدوله عليه بأنواع الهموم ليبتلى » كما هو الحال عند امرىء القيس ، ولم يجد غير « ليل بطىء الكواكب » كما هو الحال عند النابغة ولم يجد غير ليل قد مضى عطف منه فرجع كما هو الحال عند سويد بن كاهل اليشكرى ، وغير ذلك من التشابيه والتصاوير التى يستمدها الشاعر الجاهلى من البيئة العربية والطبيعة الصحراوية وتســـاير نفسيته الحرة وتجارى خياله الطليق ، فالليل يتمطى بصلبه ويردف أعجـــازا ، والليل لا يتقدم الا ليتأخر ، ونجومه كأنها دواب يسحبها الليل سحبا ويسوقها النهـــار سوقا ، كأن بها تثاقلا من العرج وتباطؤا من الوهن ، فهى لا تتحرك الا بمقدار ، وهى لا تتقدم الا بمعيار ·

الليـــل
فى العصر الاسلامى

ولما انقضى العصر الجاهلى وجاء العصر الاســـلامى وجدنا العـــرب يتفننون فى وصف الليل تفننا ، ويتنوعون فى تصويره تنوعا ، فالليل قد انتصف عمره والليل قد استغرقنا شبابه ، والليل قد شاب رأسه ، وشمطت ذوائبه · وتقوس ظهره ، وتهدم عمره · والليل تقوضت خيامه ، وخلع الأفق ثوب الدجى ، والليل قد تطرز قميصه بغرة الصبح وافتر الفجر عن نواجذه · وما الى ذلك من خيالات جميلة وتأملات طريفة ·

ومن الطبيعى أن يتعرض الشعراء لوصف النجوم عند حديثهم عن الليل ، ولعل أظرف ما وصفت به النجوم قول ابن الرومى :

رب ليـــل كأنه الدهـــر طولا ... قد تنـــاهى فليس فيـه مزيد
ذى نجوم كأنهن نجـــوم الشيب ... ليســـت تزول لكن تزيـــد

كما تعرض الشعراء لظلمة الليل ولطوله فى كثير من المناسبات ، ولكن الفرزدق ذكر العلة فى طول الليل حين قال :

يقولون طال الليل والليل لم يطل ... ولكن من يبكى من الشوق يسهر

وتابعه بشار فى هذا المعنى فقال :

لم يطل ليـلى ولـكن لم أنم ... ونفى عنى الـكرى طيف ألم
واذا قلت لها جودى لنـــا ... خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفسى يا عبـــد عنى واعلمى ... أننى يا عبـــد من لحم ودم
ان فى بردى جســـما ناحـلا ... لو توكأت عليـــه لانهـــدم

وهكذا أكثر الشعراء من الشكوى من طول الليل وتفننوا فى ذلك ماوسعهم التفنن : فمنهم من استعدى محبوبه على وحشـــة الليـــل ، ومنهم من طال ليله حتى نسى النهار أو سمات النهار ، ومنهم من ظل ساهرا لان محبوبه ظعن عنه فاذا الكرى يفر عن عينيه فرارا ويزور عن جفنيه ازورارا . واذا السهد قد امتلكه امتلاكا فيه كثير من الشـــدة وفيه كثير من الظلم كذلك · وفى هذا يقول العباس بن الاحنف شاعر العفة الاسلامى :

نام من أهـــدى لى الارقا ... مستريحـــا سامنى قلقـا
قـــد يبيت النـــاس كلهم ... وسهادى بيض الحـــدقا
أنا لم أرزق مودتـــكم ... إنمـــا للعبـــد ما رزقا
كان لى قلب أعيش بـــه ... فاصـطلى فى الحب فاحترقا

شعراء الحرب

وكما أن الليل كان ملهما للعشاق من شعراء الحب كان الليل ملهما لشعراء الحرب كذلك . فهاهو ذا المعتصم يفتح عمورية ويصب عليها جام غضبه صبا ، وها هو ذا أبو تمام يشهد هذه المعارك الطاحنة وهذه الحرب الضروس والمآسى المروعة فى الليل ، فيرسل نفثة من أعماق قلبه ، ويبعث زفرة فى أغوار نفسه ويقول :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يشاه وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلاليب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب

وقد وقف أبو العلاء المعرى وقفة أمام الليل يخالف فيها هؤلاء الشعراء جميعا :

فأبو العلاء رجل مفقود البصر وليس الظلام عنده بفان ، أبو العلاء يرى الليل عروسا من الزنج عليها قلائد من جمان ، ويتخيل أن الهلال والثريا معتنقان ، والواقع أن أبا العلاء كان برغم فقده بصره شاعرا مرهف الحس رقيق الشعور متفتح المدارك بعيد التأمل .

***

أما الليل فى الاندلس فقد ظفر بمنزلة عظيمة ومكانة سامية ، غير أن الوصف كان يكاله فى أغلب الاحوال ، فالسماء بساط أزرق موشى بالزهر الابيض ، والليل تجنى فيه اللذات دهاقا وتفترع فيه المسرات سراعا .

وهكذا شاعت فى الادب الاندلسى ظاهرة التزيين والتزويق فى الصور والمعانى ، وبرزت النزعة الابيقورية كما يسميها مؤرخو الفلسفة أو نزعة المتعة كما يحب أن يسميها مؤرخو الادب .

الليـــل
فى العصر الحديث

وفى العصر الحديث لم يغفل الشعراء الكتابة عن الليل ، وعند ما نفى الشاعر محمود سامى البارودى الى جزيرة سرنديب أهاجت الغربة شاعريته وأرهفت أحاسيسه ، وأخذ ينظم الشعر فى وصف خلجات قلبه ، ونبضات شعوره ، ووصف الليل الذى يخيم على الادغال والاحراج وصفا ممتعا جميلا ، غير أنه تمنى أن يعود الى أهله وبنيه ، فهو لايستطيع أن يتحمل وحده العيش ، ورهبة الليل

أما أمير الشعراء أحمد شوقى فانه تنقل بين بلدان شتى ، سافر الى الآستانة ، وسافر الى الاندلس ، وجاس خلال دورها وقصورها ، وتعرض للتعبير عن مشاعره فى الليل ، ولكنه استمد من الليل كثيرا من حكمه المشهورة وأمثاله المعروفة كقوله :

كم ساهر خائف والدهر فى سنة
وراقد آمن والدهر فى سهر
فلا تبيتن مختالا ولا ضجرا
ان التدابير لا تغنى عن القدر

وشعر شوقى حافل بليل الاستبداد وليل الظلم ، وما الى ذلك من استعارات ومجازات استدعتها الظروف السياسية المحيطة فى هذه الفترة .

وهذه المجازات والاستعارات تبلغ ذروتها عند شاعر النيل حافظ ابراهيم الذى كان شاعرا شعبيا يعبر عن أحاسيس الشعب الوطنية أصدق تعبير، ولا تفوته مناسبة قومية دون أن ينظم فيها قصيدة يبين فيها كفاح الشعب المصرى فى سبيل الحرية والاستقلال ، ومن الابيات الطريفة التى نظمها حافظ ابراهيم قوله :

ياساهر النجم هل للصبح من خبر
انى أراك على شىء من الضجر
أظن ليلك قد طال المقام به
كالقوم فى مصر لا ينوى على سفر

ففى هذه الابيات يصور حافظ القلق الذى يعترى المصريين لعدم ادراكهم للحرية فى ذلك الوقت ورغبتهم فى نهار الحرية المسفر المشرق الطلق .

أما عبد الرحمن شكرى فانه كان متأثرا الى حد بعيد بالشعراء الرومانتيكيين فى انجلترة مثل بيرس شللى ، ولورد بيرون ، وجون كيتس وكولريدج وغيرهم ، اذ عكف عبد الرحمن شكرى على قراءة الادب الانجليزى عكوفا تاما ، فبان أثر هذا الادب فى انتاجه الفنى ، وقل مثل ذلك عن الاستاذ عباس محمود العقاد ، وقد نهل من المنهل الذى نهل منه شكرى ولا سيما كتاب « الكنز الذهبى » الذى جمعه «بالجريف»

وعلى ذلك فالسمة البارزة فى شعر شكرى والعقاد عن الليل هى استمداد شعرهما من المعين الرومانتيكى الصافى .

أما شاعر الجندول على محمود طه فله قصيدة عذبة فى غرفة الشاعر بالليل وهى من اللون الغربى فى الشعر ، صور فيها الشاعر ساهدا ساهرا ، تحت ضوء مصباح خافت وهو يفكر ويطيل التفكير ، ويتأمل ويبعد فى التأمل ، وهى من أروع ماكتب على محمود طه، وتشبه الى حد بعيد قصائد الشاعر الفريد دى موسيه فى الغرض نفسه

هذه هى بعض خطوات عن الليل فى الأدب العربى

أما فى الادب الغربى فقد كان الليل ملهما لكثير من الشعراء والفلاسفة ، وصور نيتشه وشوبنهور رهبته فى كثير من حديثهما ، وكان دعامة لكثير من نظرياتهما الفكرية وتأملاتهما الميتافيزيقية .

وقل مثل ذلك عن الأدب الألمانى كله أو جله فهو أدب القوة وأدب العبقرية والخلود .

أما شعراء الرومانتيكية فى أوروبا فقد أكبروا الليل فى أشعارهم ووجدوا فيه مرتعا خصيبا لخيالهم ومجالا فسيحا لأحلامهم ، وأطيافا حبيبة لذكرياتهم ، مثل الشاعر شللى وكيتس وبيرون فى انجلترة ، ولامارتيه وفيكتور هوجو والفريد دى فينى ، والفريد دى موسيه فى فرنسا . فقال الشاعر شللى فى احدى قصائده :

امض سريعا أيها الليل فوق أمواج الغرب
واخرج من الكهف الملبد بالغيوم فى الشرق
فعندما يخبو نور النهار الطويل
تنسج أحلام الفرحة والحلال
التى تجعلك رهيبا عزيزا

***

جب أيها الليل فوق المدائن والبحر والبر
تلمس كل شىء بعصاك السحرية
فانه تواق يبحث عنك
فعندما نهضت من نومى رأيت الفجر يتنفس
فأرسلت زفرة من أجلك أيها الليل .

وعندما انتشر الضوء فى الفضاء والتمعت الأنداء
انسكب النور على الزهور والشجر
ثم رقد النهار متعبا مكدودا يستريح
يترنح كضيف ثقيل الظل
فأرسلت زفرة من أجلك أيها النهار .

***

الموت يحجم عندما ينقشع النهار سريعا سريعا
والنوم يحل عندما يولى الأدبار
فممن ألتمس الصنيع وأرجو الجميل ؟
أسألك أيها الليل الحبيب
أن تدنو سريعا .. سريعا .

أما لورد بيرون فانه استمد أوصاف حبيبته من الليل فقال فى قصيدته « تسير فى الجمال » :

انها تسير فى جمال كأنها الليل المميز
يخطر دون سحائب ، لماع النجوم
وكل شىء أبيض ناصع وأسود دامس
يجتمع فى أهداب عيونها السوداء
كأنما تنتمى الى النور الناعم الوديع
الذى تضن به السماء على الايام الحالكة
وعندما تبدو فى الظلال ينبثق منها شعاع
ذو جمال تعجز عنه الأسماء
يتحرك فى الفضاء فى وجه الاطيار
أو ينعكس فى فتنة على محياها
حيث تتراءى فى الافكار عذبة معبرة
فما أجمل حيث تكون هاتيك الأفكار ... !

وامتزج الليل عند الشاعر رابندرانات طاغور بنزعة التصوف الخالصة ، فنراه عندما يتعرض للحديث عن الليل يدرك رهبته وجلاله وجماله ، ويتطلع الى خالقه كأنه طفل صغير تائه فى عالم عظيم محفوف بالأسرار والأستار ، فاذا هو يتلاشى فى هذا الوجود كما تتلاشى القطرة من الماء فى البحر الخضم .

ومن شعره قوله : « أيها الشاعر ، ان الليل قد أرخى سدوله ورأسك قد اشتعل شيبا ، أفما رن فى أذنك صوت يأتى اليك ليقتحم عزلتك من الغيب السحيق ؟ بلى لقد هبط الليل وانى لأرهف السمع لعلى أسمع صوتا ينحدر الى من القرية فى هذه الساعة المتأخرة !

وانى أتلهف لعلى أرى قلوب الشباب تتلاقى ، أو أسمع الموسيقى تصدح لتقطع وحشة هـــذا الصمت الرهيب وتعبر عن عواطف المحبين المكبوتة ٠

فمن ذا يكون هنـــاك لينشد بأعذب الألحان اذا ما جلست أنا على ضفة الحياة أفكر فى الموت وما بعد الموت » ٠

***

وهكذا كان الليل وحيا لشعراء العرب كما كان وحيا لشعراء الغرب والشرق فسبحان من خلق الليل والنهار وأقسم بالليل اذا سجى وأبدع الكواكب والنجوم ٠ فاذا كل فى فلك يسبحون ٠

وما ان انتهيت من حديثى حتى وجدت الدموع تتـــألق فى عينى صاحبى بالليل ٠

البحر
بين الشرق والغرب

منذ وجود البحار فى هذا الكون ، وتقسيم الأرض الى ماء ويابس ، ولكل عنصر من هذين العنصرين جمال خاص ، وسحر معين يبهر العقول ، ويأخذ بمجامع القوب ٠

والفنان الحق هو الذى يستطيع أن يضع أنامله على مواطن الفتنة ، ومنابت الجمال ، ويتخذ من محاسن الطبيعة ميدانا لفنه ، ووحيا لبنات أفكاره ، والفنان الحق هو الذى يجد فى هـذه العناصر مالا تجده عين ، ويسمع منها مالا تسمعه أذن ، ويجول بخلده مالا يجول فى خلد غيره ٠

والبحر ملهم للأدباء والفنانين على تطاول الأزمان وكر الأيام ، وتوالى الدهور ، وقد تحدث الله تعالى فى كتابه العزيز عن البحر فى مواطن شتى فقال فى سورة يونس : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر (١) » ٠

وقال فى سورة ابراهيم : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخره لكم الانهار (٢) » ٠

وقال فى سـورة الرحمن : « وله الجوار المنشـئات فى البحـر كالأعلام » (٣) ٠

وقال فى سـورة الاسراء : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر (٤) »٠

وأقسم بالبحر فى سورة الطور فقال تعالى : « والبحر المسجور، ان عذاب ربك لواقع (٥) » ٠

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ، ووصف من طولها وعرضها وسمكها ثم نظر اليها بعين الهيبة ، فصارت ماء يترقرق لا يثبت فى ضحضاح ، فما يرى من التموج والاضطراب ، انما هو ارتعادة من خشية الله تعالى ، ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه ، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وفسر بذلك قوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » ٠

ولم يعرف أغلب الشعراء الجاهليين البحر ، ولم يجر ذكره فى شعرهم اللهم الا الشعراء الذين طوفوا فى البـلاد ، وتنقلوا بين شتى

---

(١) آية ٢٢ ، (٢) آية ٣٢ (٣) آية ٢٤ (٤) آية ٧٠ (٥) آيتا ٦،٧ ٠

الأقطار والأمصار ، وركبوا متن البحار أو دنوا منها ، كالشاعر امرىء القيس أحد أمراء كندة ، الذى رحل الى القسطنطينية وعاش فيها فترة من الزمان ، وشبه الليل بموج البحر ٠

ولما فتحت بلاد الشام وشاهد العرب سفن الروم تطلعت نفوسهم الى مسايرة أعدائهم فى ركوب البحار ، وطلب معاوية بن أبى سفيان من أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، أن يأذن له بغزو بلاد الروم عن طريق البحر ، غير أن عمر بن الخطاب توجس خيفة من هذا العمل ، ولم يشأ أن يتورط فى هذه الحملة ، فسأله أن يصف البحر قبل أن يركبه فكتب اليه عمرو بن العاص كتابا أدبيا تاريخيا يصف فيه البحر وجاء فيه ٠

« يا أمير المؤمنين ، انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركد أحزن ، وان ثار أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ٠٠

فلما وافى هذا الكتاب عمر بن الخطاب تبلبلت نفسه ، وهاج خاطره وكتب الى معاوية يقول : « لا والله الذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » ٠

ولكن كراهية البحر لم تدم فى نفوس المسلمين طويلا ، اذ لم يلبثوا بعد ذلك أن أنسوا اليه وركبوا متنه فى عهد عثمان ومعاوية بن أبى سفيان ومن أتى بعدهما من الخلفاء ، وفتح العرب كثيرا من الجزر الكبرى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأهمها صقلية ورودس ، وانتزعوهما من يد الدولة البيزنطية ، وشرع الكتاب والشعراء يصفون البحر ، ويعبرون عن شعورهم حياله ، ويقفون على شطئانه وقفات طويلة يستلهمون موجه ويناجون عظمته ٠

وورد وصف للبحر فى كتاب نفح الطيب للمقرى جاء فيه ٠

« والبحر تحتنا كأرض تميد بأهلها وتزلزل بوعرها وسهلها ، ونحن بعد دود على عود ، فقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، والرش يكتنفنا من كل جانب ، ويسيل من أثوابنا سيل المذانب ، فشممنا ريح الموت وظننا التلف والفوت » ٠

وسرعان ما أصبح البحر موضوعا فى أدبهم ، ووحيا لأمثالهم ، ومجالا لتشبيهاتهم وكتاباتهم فقالوا : « أعمق من البحر » « وأندى من البحر » وقال ابن الرومى :

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا وتعلق فوقه جيفه

وقال أبو نواس :

من قاس غيركمو بكم قاس الثماد الى البحور

وقال ابن رشيق :

البحر مر المذاق صعب لا جعلت حاجتى اليه

أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

وقال ابن حمديس :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب
طين آنا وهو ماء والطين فى الماء ذائب

وقال السلامى :

وميدان تجول به خيول تقود الدارعين ولا تقاد
ركبت به الى اللذات طرقا له جسم وليس له فؤاد
جرى فظننت أن الارض وجه ودجلة ناظر وهو السواد

ولما استقر الأمر للعرب فى الأندلس أواسط القرن الثانى الهجرى تقريبا من سنة ١٤١ هـ ظهر فى الأندلس شعراء وأدباء كثيرون ، وأغرم بعضهم بالبحر غراما شديدا فوصفوا جماله ، وفتنته ، وحكوا لياليهم وبهجتهم بين رحابه ، وعلى ضفافه ، حيث تدور الاقداح وتعزف الأوتار ، وتصطفق المجاديف ، ويحلو الغناء :

فقال السرى يصف شرب ليلة فى زورق :

ومعتدل يسعى الى بكأسه وقد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك
وقد حجب الغيم السماء كأنما يزر عليها منه ثوب ممسك
ظللنا نبث الوجد والكأس دائر ونهتك أستار الهوى فتهتك
ومجلسنا فى الماء يهوى ويرتقى وابريقنا فى الكأس يبكى ويضحك

وقال ابن دراج الأندلسى المعروف بالقسطلى ، وكان يسكن الأندلس كالمتنبى يسكن الشام على حد تعبير الحصرى القيروانى :

اليك شحنا الفلك تهوى كأنها وقد ذعرت عن مغرب للشمس غربان
على لجج خضر اذا هبت الصبا ترامى بنا فيها ثبير وثهلان
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا زفير المنى ذكرى الأحبة حنان
يقلن وموج البحر والهم والدجا تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل الى الدنيا معاد وهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

ففى هذه الابيات نلمح خوف الشاعر من البحر ، ورهبته من موجه ، وخشيته من ثورته ، ولعلنا نلتمس للشاعر العذر فى ذلك ، فان السفن البحرية لم تكن ترقى فى بنائها وضخامتها ، وفخامتها وأمانها الى مستوى السفن فى العصر الحديث ، وكان ركوب البحر يتطلب شجاعة كافية ، وثباتا فى الجنان .

ويظهر أن ابن الرومى كان يشبه الشاعر القسطلى الأندلسى فى هذا الشعور ، اذ كان يخاف ركوب البحر خوفا شديدا ، ولما ندبه أبو العباس ابن ثوابة الى الخروج اليه وركوب دجلة توجس خيفة ، وتملكه شعور عجيب من الرهبة ، وسجل هذا الشعور فى أبيات صادقة جاء فيها :

أذاقتنى الأسفار ماكره الغنى ... الى وأغراض برفض المطالب
لقيت من البر التباريح بعدما ... لقيت من البحر أبيضاض الذوائب
فما زلت فى جوع وخوف ووحشة ... وفى سهر يستغرق الليل واصب

وقد علل ابن الرومى خوفه من البحر بعدم اجادته السباحة ، فلو سقط فى البحر فهو لابد هالك لأول وهلة بل انه يمر به فى الكوز مر المجانب ، ويخاف أن يجد السم ممزوجا بالماء الذى يشربه فيسلمه الى الموت فما بالك بالركوب فى البحر الخضم ؟

وأما بلاء البحر عندى فانه ... طوانى على روح من الروح راقب
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه ... ولكنه من هوله غير ثائب
ولم لاولو القيت فيه وصخرة ... لوافيت منه القعر أول راسب
وأيسر اشفاقى من الماء أننى ... أمر به فى الكوز مر المجانب

ولما جاء العصر الحديث ، وتقدمت المدنية خطوات واسعة الى الأمام ، وأصبح ركوب البحر أمرا سهلا ميسورا وألغى تطور العمران المكان والزمان الغابرين ، وطفقت السفينة تطوى البحار ، وتصل « الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس » أخذ الشعراء يكثرون من ذكر البحر فى شعرهم :

فلما نفى محمود سامى البارودى فى جزيرة سرنديب أخذ يصف وحدته ووحشته ووصف البحر وصفا مثيرا خلابا .

ولما رحل شوقى الى الاندلس مضى يصف رحلته ، ويصف البحر ورهبته وكذلك فعل عندما سافر الى الاستانة ، وفى كل بقعة من البقاع عبر فى سبيلها بحرا ، وألقى فيها عصا التسيار ، ونظم حافظ ابراهيم بعض شعره فى البحر . ولما سافر الى ايطاليا عام ١٩٢٣ نظم هذه القصيدة التى جاء فيها :

عاصف يرتمى وبحر يغير ... أنا بالله منهما مستجير
فكأن الأمواج وهى توالى ... محنقات ، أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ... ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفت مثل الجبال على الفلك ... وللفلك عزمة لا تخور
فى ثنايا الأمواج والزبد المند ... وف لاحت أكفاننا والقبور
مر يوم وبعض يوم علينا ... والمنايا الى النفوس تشير
ثم طافت عناية الله بالفلك ... فزالت عمن تقل الشرور
ملكت دفة النجاة يد الله ... فسبحان من اليه المصير

وهكذا أخذ حافظ ابراهيم يصف تلك المشاعر المختلفة التى تنتاب قلب المسافر عندما يركب البحر ، ولا سيما عند ما يصطخب الموج ، وتميل السفينة يمنة ويسرة فى يد الريح ، فيجثم القلق فى قلوب المسافرين ، ويلوح الغرق على وجوههم ، وتتردد مصايرهم بين الحياة والموت ، وبين النجاة والهلاك ، ولم يلبث حافظ ابراهيم بعد ذلك أن جنح الى فكرة فلسفية فقال :

أيها البحـــر لا يغرنك حول واتســـاع ، وانت خلق كبير
انما أنت قطرة قد حوتهـــا ذرة فى فضـــاء ربى تدور
انمـــا أنت قطـــرة فى اناء ليس يدرى مداه الا القـدير

ووقف شاعر المهجر الكبير ، ايليـــا أبو ماضى ، أمام البحر وقفة الحيران وتساءل عن أصل الانسان وهل الماء أصله ، كما يقول الفلاسفة الاغريق أو ماذا ؟ وسأل البحر هل يعـــلم كم من السنين مرت عليه ؟ وسأل الشاطىء هل يدرى أنه جاث لديه ؟ وسأل الأنهار هل هى منه اليه؟ ولكنه لما لم يظفر بجواب يبـــدد حيرته ، ويذهب قلقه وشكه ، تملكه الذهول كل التملك ، قال فى تعجب :

ترسل السحب فتسقى أرضنا والشـجرا
قد أكلناك وقلنـــا قد أكلنـــا الثمرا
وشربنـــاك وقلنـــا قد شربنـــا المطرا
أصـــواب ما زعمنـــا أم ضـــلال
لست أدرى

يرقص الموج وفى قلبـــك حرب لن تزولا
تخلق الاسـماك لكن تخلق الحوت الأكولا
قد جمعت الموت فى صدرك والعيش الجميلا
ليت شـــعرى أنت مهـــد أم ضريـــح
لست أدرى

فيك مثلى أيهـــا الجبار أصداف ورمل
انمـــا أنت بلا ظـــل ولى فى الارض ظل
انمـــا أنت بلا عقـــل ولى يا بحر عقل
فلمـــاذا يـــا ترى أمضى وتبـــقى
لست أدرى

اننى يا بـــحر شـــاطئاه شـــاطئاكا
الغد المجهـــول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا صائر ، يا بحر ، فى هـــذا وذاكا
لا تســـلنى ما غـــد ؟ ما أمس ؟ انى
لست أدرى

وهكذا كان البحر عند ايليا ابى ماضى موضوعا من موضوعات الفكر وأعمال العقل والبحث فى أصل الانسان ومعرفة حقيقة الوجود، ومناقشة آراء الفلاسفة فى هذا الميدان ، وتطور من الوصف الساذج الى الوصف الجميل ، ومن الخوف والرهبة والسكينة والاطمئنان الى مجال آخر يعمل فيه الشاعر عقله ويعبر عن شعوره ووجدانه ويضفى على هذا الخضم الذى يجثم حيال بصره .

وجبران خليل جبران هو أحد أعلام الأدب الحديث ، وقد ابتدع لنفسه طريقة فى الكتابة اكتسب بها اعجاب قرائه ، واستطاع أن يصور بعبقريته النفاذة البحر ، وما فى البحر تصويرا أخاذا ، فهاهو ذا يصور فى حديث له حوار سمكة لأختها ، قالت السمكة لأختها :

« فوق بحرنا هذا بحر آخر وفيه مخلوقات متنوعة ، تعيش وتسبح هنالك كما نعيش هنا ونسبح » فأجابتها أختها وقالت :

« تلك أوهام ، تلك أوهام ، ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد ويبقى خارجا عنه يموت فى الحال ؟ .. اذن فما حجتك على وجود أحياء أخرى فى بحار أخرى .. ؟»

كما استطاع جبران خليل جبران أن يدرك بحسه المرهف ،وشعوره الفياض أغنية « التنينة » التى تحرس كهوف البحار السبعة فقال :

سيأتى قريتى راكبا على الأمواج
وسيملأ الأرض رعبا بهديره العجاج
وستندلع نيران رهيبة فى أقاصى الفضاء
عند خسوف القمر سأزف اليه ....

وعند كسوف الشمس سألد « جورجيوس » آخر فيذبحنى .

ولجبران قصيدة شعرية أخرى غير أغنية « التنينة » تمتلىء بالعواطف والعواصف كما يمتلىء البحر الخضم المسجور :

فى سكون الليل لما تنثنى ... يقظة الانسان من خلف الحجاب
يصرخ الغاب : أنا الغرم الذى ... أنبته الشمس من قلب التراب
غير أن البحر يبقى ساكنا
قائلا فى نفسه : الغرم لى

ويقول الصخر : ان الدهر قد ... شادنى رمزا له يوم الحساب
غير أن البحر يبقى صامتا
قائلا فى نفسه : الرمز لى

ويقول الريح : ما أغربنى ... فاصلا بين سديم وسما
غير أن البحر يبقى ساكنا
قائلا فى نفسه : الريح لى

ويقول النهر ما أعذبنى ... مشربا يروى من الأرض الظما
غير أن البحر يبقى صامتا
قائلا فى ذاته : النهر لى

ويقول الطود : انى قائم ... ما أقام النجم فى صدر الفلك
غير أن البحر يبقى هادئا
قائلا فى نفسه : الطود لى

ويقـــول الفكـر : اننى ملك ليس فى العـــالم غيرى من ملك
غير أن البحر يبقى هاجعـــــا
قـــائلا فى نومه : الكـــل لى

هذا هو موقف جبران خليل جبران حيال البحر ، وهو موقف مترع بالفلسفة مملوء بالحكمة ، محوط بالعمق ، وجبران يتنقل فى وصفه من صورة الى صورة ، ويرى الصراع الذى يدور بين الكائنات ولا تشـــعر به الا النفوس الشاعرة ، ويصور البحر فى شعره بكل مافى أعماقـه ، من الغرائب والعجائب ، والمدافق والأسرار ، وما على سطحه من الامـــواج المزبدة الغضوب ، المتسارعة ، المتهادية ، والأبخرة المتصاعدة المتبددة المتساقطة ؛ ثم ينظر متأملا فيما وراء البحر فيرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار .

ولم يقتصر وصف البحر على الأدب العربى فحسب ، بل شاع فى كل آداب العالم ، واستمد منه الكتاب والشعراء قصصهم وقصائدهم ، وفى الأدب المصرى القديم أوصاف جميلة للبحر ، جعله الشعراء مرتعـا لحبهم ، ومجالا لقضاء أنسهم ، وانفاق لياليهم ، وما الحيـــاة فى نظر المصريين القدماء الا بحر خضم رحيب رهيب ، وليس لأحـــد أن يظلم ، وسوف يحاسب كل على عمله،وسيبعث الانسان حين وصوله الى الشاطىء الآخر أو الى الحياة الأخرى ، وكل نفس بما كسبت رهين ، واستمد شعراء الفراعنة شعرهم من ماء النيل فقال شاعرهم :

« لخير لى أن أركب النيل وأندفع فى تياره ، وأحج الى بيت الله فى ممفيس ، وأضرع اليه أن يوفقنى الى رؤية أختى ... فاذا قدمت خفق قلبى وطوقتها بذراعى ، وشعرت بالسعادة فى أعماق نفسى ، واذا دنت وفتحت ذراعيها لى شعرت كأن أزكى روائح العطور تغمرنى ... »

وحفل الأدب اليونانى القديم منذ آلاف السنين بكثير من الأساطير عن البحر ووصف سيموندس الامورجى النساء فى تقلبهن بالبحر فى تقلبه فقال :

وأخرى خلقت ذات طبعين
فيوما تراها مشرقة ضاحكة
ان رآها فى دارها غريب لم يدخر ثناء
قائلا ليس على وجه الأرض مثلها ظرفا وسناء
وربما تعبس فلا تقوى على الدنو منها والتطلع اليها !

ونظم ثيوقريطس كثيرا من شعره فى وصف البحر وفى الصيادين وهم يرمون شباكهم فى البحر ، ويخرجون من أكواخهم فى الصباح الباكر من أجل هذا الغرض ، ونظم غير ثيوقريطس من شعراء الاغريق القصائد فى وصف البحر ، وغرائبه ، وحاطوه بكثير من أدب الميثولوجيا الخلاب .

ولا أحب أن أختم هذا البحث دون أن أنوه بمنزلة البحر فى الادب

الانجليزى : فانجلترا جزيرة كبيرة فى البحـــــر ، وأهلها قوم يركبون البحار ، ويعتمدون فى اقتصادهم على ما تأتى اليهم من خيرات تجلبها من الخارج ، ولذلك وجدنا أغلب شعرائهم يتأثرون بالبحر فى شـــعرهم ، فوجدت قصص « روبنسون كروزو » ورحلات جوليفر وغيرهما،والشاعر الرومانى بيرس شللى يركب البحر ، ويطوف بشتى البلاد ، ويصف جمال البحر ، وسحره ، ولا يزال حبه للبحر يغريه بالجولان حتى مات غريقا فى ايطاليا عام ١٨٢٢ وهو فى الثلاثين من عمـــره ، والشـــاعر الليريكى « وتنسون » يعجب بالبحر اعجابا شديدا ويسوق اليه احدى روائعه :

واصخب أيها البحر على الصخور الشهباء الباردة
فليت للسانى قدرة على أنطق بالافكار التى تجيش فى نفسى
جميل أنت للغلام الذى يلتمس الصيد أو يلهو مع شقيقه
والغلام الملاح الذى يشدو فى زورقه على الخليج
وللسفن الضخمة التى تشق الماء الى مراسيها تحت التل

والشاعر الرومانتيكى الحالم « لورد بيرون » الذى أذكى الحركة الرومانتيكية فى الأدب فألف «مانفرو» و «الكافر» و «عروس أبيدوس» و « القرصان » و « تشايلد هارولد » وغيرها من الروائع ــ لم يقف جامد الحس أمام البحر ، بل ناجاه بقوله :

انى لأستمتع بالغابات الكثيفة الألفاف المنسدة المسالك
وانى لأنعم على شاطىء خلا من الخلائق
وهناك أجد سامرا يؤنسنى حيث لا يعكر على الحياة انسان
هنالك الى جوار البحر الخضم الذى يزأر بألحان من الموسيقى
ليس هذا انتقاصا لحبى للانسان ، ولكنه ازدياد فى حبى للطبيعة
وانى لأحبك يا بحر اذ كانت سعادتى
فى ميعة الصبا تحملنى فوق صدرك
فأطوف كأنى من حبابك الطافى على الثبج

وهكذا يمضى « لورد بيرون » فى قطعته الخالدة مخاطبا البحر هذا الخطاب الجميـــــل مستعرضا صورا من الطفولة البريئة والعبث المرح البهيج ، فوق الماء حتى اذا ماتغير البحر ، واشتد الموج ، وارتفع الأذى ، غدا مصدر رعب ، ومبعث ذعر ، الا أنه رعب رهيب وذعر حبيب فى نظر بيرون لا يخلو من مواطن للجمال ، للسحر الشهى الحلال .

ويستعرض بيرون فى قصيدته الخالدة ، مانشأ حول البحر من مدنيات عريقة ، وأمجاد عظيمة ، وما نشب حول البحر من عراك شديد،

وقتال مستمر عنيف ، ويعرج على « الارمادا » ويسرد غنائم الطرف الأغر وغيرها من المعارك الحربية الحامية الوطيس .

هذه هى نظرات الأدباء والشعراء الى البحر على اختلاف بيئاتهم وهى نظرات تختلف معانيها من شاعر الى آخر ، وتتفـــاوت بين درجات الشعور فى الخوف والرعب ، أو الهدوء والاطمئنان ، والاقبال أو الاعراض ، والحب أو الكراهية وذكريات الأنس ، والشراب ، أو ذكريات الموت والهلاك وصور المدنية أو وهم الأساطير ، وهى نظرات متعددة المعانى ، ومتناهل مختلفة المصادر ، وطعوم متفاوتة الأذواق .

خليل مطران
والفريد دى موسيه

كان خليل مطران على صلة قوية بالثقافة الأوربية ولا سيما الأدب الفرنسى ، وقد ترجم كثيرا من مسرحيات شكسبير مثل عطيل وماكبث وتاجر البندقية وقيل انه ترجمها عن النسخة الفرنسية لعدم تمكنه من اللغة الانجليزية ، كما ترجم ليالى الفريد دى موسيه ورواية هرنانى Hernani لفيكتور هوجو وترجم لكورنى مسرحيات السيد Le Cïd وسينا Cinna وبوليكت Polyeucte وترجم لراسين رواية برنيس Bérenice

وقد كان شاعرنا الكبير مولعا أشد الولع بالادب الرومانتيكى ولاسيما شعر الفريد دى موسيه وفيكتورهوجو وقد نظم كثيرا من القصائد المستوحاة من أدب هذين الشاعرين ، ونظم قصيدة أطلق عليها (فيكتور هوجو) سجل فيها اعجابه بهذا الشاعر الذى ترنم بأحلام البشرية وآلامها فى أسلوب رقيق ومعنى مبتكر فريد ، كما أعجبته سيرة الشاعر الرومانتيكى الحالم الفريد دى موسيه وقصة حبه مع الكاتبة الذائعة الصيت جورج صاند وقرأ ماكان بينهما من مساجلات أدبية ، مثل قصته المشهورة (اعتراف فتى من فتيان العصر) confession d'un enfant du Siècle التى مثل فيها جورج صاند فى شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف : أولاهما شخصية العشيقة الخائنة المتقلبة ، والاخرى شخصية الصديقة الطاهرة الذيل الأمينة على العهد .

كما قرأ قصة جورج صاند التى ردت بها على اعترافاته ، وأطلقت عليها « هى وهو » Elle et lui ثم دخل بول دى موسيه شقيق الفريد شخصا ثالثا فى هذا الخصام فكتب قصة ثالثة بعنوان « هو وهى » .

لا شك أن «مطران» قرأ هذه المساجلات جميعا كما قرأ ليلة مايو وليلة أكتوبر وليلة ديسمبر وخطابا الى لامارتين والى أخى بمناسبة عودته من ايطاليا وكل هذه قصائد من أجمل الشعر الفرنسى نظمها موسيه فى حبه كما كتب أقصوصة الشحرور الابيض نثرا :

لاشك أن مطران تأثر بهذا كله حتى قال فى احدى قصائده عن الفريد دى موسيه مصورا حياته الممتلئة وحبه العنيف :

عاش هذا الفتى محبا شقيا ... وقضى نحبه محبا شقيا
وبكى دمع عينه فى سطور ... جعلته على المدى مبكيا
منشد للغرام لم يشد الا ... كان انشاده نواحا شجيا
شاعر كان عمره بيت تشبيب ... وكان الأنين فيه الرويا
ان فى نظمه لحسا لطيفا ... باقيا منه على السطور خفيا

الفريد دى موسيه يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر الفرنسى كما أن « خليل مطران » يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر العربى . والرومانتيكيون ما فتئوا يهزون قلوبهم التى بين جوانحهم لانها كما يقول الفريد دى موسيه هى مصدر العبقرية .

ومادة الفن عند الرومانتيكيين العاطفة والخيال على مشاهد الطبيعة ومعالم الشعوب وعادات الماضى وينظرون الى الطبيعة على أنها كائن حى ينبض بالحياة ، فما أروع أزاهير الاقحوان وسط حقول القمح ! وما أجمل شعاع الشمس يسطع فى الماء ! ولشد ما تأخذنا الغبطة اذ نحلم ونحن مستلقون على ظهورنا فى مركب صغير ينساب مع الموج هادئا نحو الشاطىء كما يقول أميل فاجين فى دراسته الأدبية .

نجم المساء لموسيه

وقد كان دى موسيه من هذا الطراز من الشعراء . نظر الى نجم المساء وأنعم النظر وتأمل وأغرق فى التأمل ثم نظم قصيدة من أروع قصائده أطلق عليها « نجم المساء » وجاء فيها :

يا نجم المساء الباهت ويا رسول البعد الشاسع . يا من يخرج جبهته لامعة من بين أستار الغروب ، من قصرك العالى فى هذه السماء المفروشة بالنجوم ماذا تبصر أنت فى هذا السهل ؟.

ان العاصفة تنأى ؛ والهواء يهم بالهدوء ، والغابة التى ترتجف تسقط دموعها فوق أوراق النباتات ، والفراشة المذهبة تقطع المسافات وتعبر الحقول المعطرة بخفتها .. عم تبحث أنت فوق الأرض الناعسة !

ويمضى الفريد دى موسيه فى تأملاته الرائعة وخيالاته الحالمة وصوره الجميلة مجسما النجم يتحدث اليه كأنه صاحبه وصديقه وسميره وأنيسه . ويحاول أن يقف على كل خطوة من خطواته وكل حركة من حركاته فى صفحة السماء الزرقاء ... فيقول :

آه ! انى الآن قد رأيتك من فوق الجبال تطأطىء أتهرب وأنت تبتسم ؟ وابتسامتك المرتعشة تقترب من الاختفاء أيهذا النجم المنحدر فوق الهضبة الخضراء ... انك تغمر بدموعك القضية الحزينة معطف الليل وأنت تنظر من بعيد الى ذلك الراعى السائر على حين أن قطيعه الطويل يتبعه خطوة اثر خطوة .. أيها النجم ، الى أين أنت ذاهب فى هذا الليل الفسيح ؟ هل تبحث عند الشاطىء على سر بين الغاب ؟ الى أين أنت ذاهب أيهذا الجميل فى هذه الساعة الهادئة ؟ أتود السقوط مثل الجوهرة فى لجة الأمواه العميقة ؟

وقد كتب خليل مطران قصيدة فى الليل والكواكب أطلق عليها (مشاكاة بينى وبين النجم) وقد سجل فيها آلامه المبرحة التى يكابدها فى سبيل الحب وسأل النجم أن يعذره فى هذا الهوى وقد جاء فى هذه القصيدة :

أرى مثل سهدى فى الكوكب ... أحل به مثل ماحل بى ؟
يهيم هيامى من وجده ... ويهرب من مهده مهربى
اذا سرت بحرا أراه به ... أنيسى على جانب المركب
وان سرت برا يجارى خطاى ... ففى الشرق آنا وفى المغرب
رفيق السرى فيه جمر يذيب ... وان سال كالمدمع الصيب
أسر هواك الى صاحبى ... يؤاخيك فى همك المنصب
أما كل ذى كلف متعب ... شريك لذى الكلف المتعب
وبى مثل مابك من شاغل ... ولى مثل مالك من مأرب

وهكذا كان خليل مطران يناجى النجم كما كان دى موسيه يناجيه. موسيه تصور النجم حائرا فى السماء كأنما يبحث عن حبيب غائب . ومطران تصور النجم محبا حائرا مغرقا فى حيرته ينطلق جهة اليمين وجهة اليسار ، ولا يقر له قرار كحاله .

والمعروف فى الشعر الرومانتيكى أنه يمتاز برنة الأسى والأسف أو مايسميه الفرنسيون « مرض القرن » ويسميه الألمان (فلتشمرتز) أى الضيق بالحياة ويسميه الانجليز الملانكوليا Melancholy

وقد كتب دى موسيه قصيدة من أروع قصائده تسمى « حزن » Tristesse تصور هذا المذهب أصدق تصوير ، والذى يدقق البحث فى ديوان خليل مطران يجد هذه النزعة ظاهرة فى أكثر من قصيدة كقوله فى مطلع قصيدة (العزلة فى الصحراء خير من العيشة فى المدينة)

ولوا المدينة وجهكم ودعونى ... أنا فى هواى وعزلتى وجنونى
عودوا الى البلد الأمين وغادروا ... بلدا لبعد الناس غير أمين
تلك الحضارة لا أحب جلالها ... وأرى محاسنها شباك فتون
ماذا دهانى فى اختبار أهلها ... من كذب آمالى وصدق عيونى

هذه لمحات بين الفريد دى موسيه وخليل مطران وانها لمحات متعددة ممتعة نكتفى بهذا القدر منها .

القمر
فى الأدبين العربى والغربى

أطلق العرب على القمر أسماء كثيرة ، فهو تارة يسمى بالواضح وتارة يسمى بالباهر وتارة يسمى بالزمهرير ، كقوله تعالى (لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا) .

ومنذ فجر الشعر العربى تناول الشعراء فى شعرهم القمر بكثير من الأوصاف وكثير من التشابيه والتصاوير ، وقد أذكت البيئة الصحراوية شاعرية الشعراء ، فصحراء تمتد امتداد البصر حيث يلتقى خط الرمال الصفراء مع خط السماء الزرقاء ، وقمر ساطع يتألق فى السماء ، ويسكب أكواب النور على الأرض فى وحشة وسكون وروعة وفتون . وقد كان القمر أنيس السارى والمدلج الحائر الذى طال به السفر وأدركه الكثير من وعثاء الطريق .

وقد ضرب العرب الأمثال بالقمر ، فقال قائلهم : أضيع من قمر الشتاء ، واذا حاولت أن تعرف لماذا كان قمر الشتاء ضائعا أدركت أن قمر الشتاء لايجلس الناس فيه لكثرة الغيوم والمطر وقال قائلهم أيضا : ان يبغ عليك قومك لايبغ عليك القمر .

واذا حاولت أن تعرف السر فى ذلك أدركت أن القمر يرقب الناس من عليائه فى خيرهم وشرهم ، ولكنه لا يستطيع أن يعين الشرير على شره كما لا يعين الخير على خيره ، وقال قائلهم كذلك : أضوأ من القمر واتم من البدر ، وأكبر الظن أنك لست فى حاجة الى محاولة معرفة سر هذا المثل لأن وضوحه يغنى عن كل بيان .

وقد كانت أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مستمدة من البيئة الجاهلية ، فهو أنيس المدلج السارى . وهو سامر السامرين ، والركب المخب فى الصحراء ، ولم تتعقد وتتطور أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مثل هذا التعقد والتطور الذى نجده فى الأدب الاندلسى مثلا كقول الشاعر :

وكأن الهلال نون لجين ... غرقت فى صحيفة سوداء

وكقول آخر :

وقد الهلال كشطر طوق ... على لبات زرقاء اللباس

وكقول عبد الله بن على الكاتب :

كشف البدر وجهه لتمام ... فوجوه النجوم مستترات

وكأن البدر للتمـــام عـــروس وكـــأن النجـــوم منتقبات

وهكذا تعددت صور الشعراء للقمر والذى نلاحظه أن نظرة الشاعر الى القمر تختلف بين فرد وآخر : فبينما نجد شاعرا يغرم برؤية الهلال ويفتن فى تصويره كابن المعتز الذى يراه كزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر ، نجد عبد الله الكاتب يغرم برؤية البدر الكامل ، فيعبر فى بيتين من الشعر عن منظره الخلاب وسحره الأخاذ فى نفسه .

وقد تفنن ابن المعتز فى وصف القمر كل التفنن وأحبه حبا جما مثله فى هذا الحب كالشاعر الانجليزى جون كيتس John Keats الذى اعتبره النقاد فى أوربا عاشقا للقمر لكثرة مانظم فيه من شـــعر ولكنى فى الواقع أقول هذا القول فى كثير من التحفظ ، فلابن المعتز منهج خاص فى طراز الشعر ، ولكيتس منهج خاص فى أسلوب الشعر ولم يلتقيا ولا يمكن أن يلتقيا .

ومن المعانى الغريبة التى صاغها يحيى بن هذيل فى وصف القمر هذا المعنى :

والثريا دنت من البـــدر حتى خلتهـــا دارعـــا يدير نخبا

أما فى باب الغزل فقد تفنن الشعراء العرب فى وصف محبوباتهم بالقمر وسحره ، بل ان بعضهم لم يرقه هذا الوصف ولم يسترح الى هذا التصوير ، كأبى على تميم بن المعز صاحب مصر :

شبهتهـــا بالبدر فاستضـــحكت وقابلت قـــولى بالنكـــر
وسفهت قولى وقـــالت متى سمجت حتى صرت كـــالبدر
والبدر لايرنو بعـــين كمـــا أرنو ولا يبســـم عن ثغـــر
ولا يميط المـــرط عن ناهـــد ولا يشـــد العقـــد فى نحر
من قاس بالبدر صـــفاتى فـــلا زال أســـيرا فى يدى هجـــرى

وكقول أبى اسحاق الصابى :

ماأنس لا أنس ليلة الاحـــد والبدر ضـــيفى وأمره بيـــدى
قبلت منه فمـــا حجـــاجته تجمـــع بين المدام والشـــهد
كأن مجـــرى ســـواكه برد وريقـــه ذوب ذلك البـــرد

وعندى أن أبيات أبى اسحاق الصابى هذه من أروع ماكتب من الغزل ، لالبراعة الشاعر فى الاستعارة ولا لروعة الشاعر فى النظم ، ولكن لانه صور لنا تصويرا بديعا بهجته فى ليلة الاحد مثلما يصور الشـــعراء المحدثون هذه البهجة على ضفاف السين أو على ضفاف التيمز أو فى بلاد العم سام .

أبيات الصابى هذه عالمية رائعة ، لولا أن بعض ألفاظها ترد الى الشعر العربى والبيئة العربية ردا سريعا كلفظ الســـواك الذى يعتز به العربى .

وشبه ابن خفاجه الأندلسى القمر بتشابيه كثيرة مستملحة وكان فى بعض الأحيان يمهد لذلك تمهيدا أو يحيط الصورة بهالة من الأجواء الخاصة مثله فى ذلك كمثل المصور الذى يعرف مواطن الظلال ومواضع النور ، فوصف ابن خفاجه السرى فى ظلمة الليل الحالك وما يواجه ذلك السرى من رهبة فى النفوس وهلع فى القلوب وما يلاقيه السارى فى الصحراء من حيوان مفترس وما يأنس اليه من قمر يسكب عليه نوره . اسمعه يقول :

ومفازة لا نجم فى ظلمائها ... يسرى ولا فلك بها دوار
قد لفنى فيها الظلام وطاف بى ... ذئب يلم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما ... طالت ليالى الركب وهى قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق ... فيه ومن خط الهلال عذار

ومن الأوزان الرقيقة والمعانى الطريفة فى الشعر الأندلسى قول ابن زيدون :

متى أبثك مابى ... يا راحتى وعذابى
ما البدر شف سناه ... على رقيق السحاب
الا كوجهك لما ... أضاء تحت النقاب

واذا كان شعراء الأندلس قد برعوا فى وصف القمر وتفننوا فى عرض صوره ولوحاته كل التفنن ، فان بعض شعراء المشرق قد استخلصوا من القمر الحكمة واستمدوا منه الموعظة البالغة والرأى السديد كقول الشاعر :

المرء مثل هلال حين تبصره ... يبدو ضعيفا ضئيلا ثم يتسق
يزيد حتى اذا ما تم أعقبه ... كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

وكقول ابى تمام الطائى :

لهفى على تلك الشواهد فيهما ... لو أخرت حتى تكون شمائلا
ان الهلال اذا رأيت نموه ... أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

كان القمر فى الادب العربى اذن ولا يزال مصدرا من مصادر الجمال ومبعثا من مباعث الروعة والفتنة فى الادب . فالشعراء اما أن يستوحوا منه شاعريتهم فيصفوه وصفا جميلا ، واما أن يشبهوا به عرائس أحلامهم وملهمات قريضهم ويتلاعبوا بالمعانى تلاعبا ، ويتضاربوا بالافكار تضاربا ، واما أن يستوحوا منه الحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن بعض الشعراء لم يكفه هذا كله ، بل لجأ الى شىء يناقض هذا كله ، فهجا البدر هجاء مرا ، وقد ذكروا أن أعرابيا رأى رجلا يرقب الهلال ، فقال له :

ماترقب فيه وفيه عيوب لو كانت فى الحمار لرد عليها ؟ فقال : ماهى ؟ فقال : انه يهدم العمر ، ويقرب الأجل ، ويحل الدين ، ويقرض الكتاب ، ويشحب اللون ، ويفسد اللحم ، ويفضح الطارق ، ويدل على

السارق ، ومن عيوبه ان الانسان لو نام فى ضوئه حدث فى بدنه نوع من الاسترخاء والكسل ، ويهيج عليه الزكام والصداع .

وقد ضمن الشاعر ابن الرومى قصيدة من قصائده هجاء للقمر فقال :

لو أراد الأديب أن يهجو البد ر رماه بالخطة الشنعاء
قال يابدر أنت تغدر بالسنا رى وتزرى بزورة الحسناء
كلف فى شحوب وجه يحاكى نكتا فوق وجنة برصاء
يعتريك المحاق ثم يخليك شبيه القلامة الحجناء
ويليك النقصان فى آخر الشهر فيمحوك من أديم السماء

لم يسلم القمر من الهجاء فى الادب ، ولكن لعل هذا الهجاء تطمئن اليه نفوس كثيرة وترجع اليه أبحاث كثيرة أيضا غير أنى مع هذا لاأطمئن اليه ولا آنس به ، انما اطمئن وآنس الى قول الشاعر حين يقول :

وبدر دجى يمشى به غصن رطب دنا نوره لكن تناوله صعب
اذا مابدا أغرى به كل ناظر كأن قلوب الناس فى حبه قلب

فأيهما خير : المدح أم الهجاء ، الحب أم البغض ، المودة أم الكراهية ، بزوغ القمر أم أفول القمر ، انسكاب الضوء أم احتباس الضوء ، حسناوات يخطرن فيملأن القلب حبا وولها ، ناضرات الوجوه ساحرات العيون ، أم قبيحات يملأن القلب غماوبؤسا ويأسا أم فناء مريح ليس فيه هذا ولاذاك؟! من يدرى !

أما الرافعى فى العصر الحديث فقد كان له خيال طلق نحو القمر ، ووصفه أروع وصف وأجلة حين قال : «القمر زاه رفاف من الحسن كأنه اغتسل وخرج من البحر أو كأنه ليس قمرا بل هو فجر طلع فى أوائل الليل بخصرته السماء فى مكانه ليثمر الميل . فجر لايوقظ العيون من احلامها ، ولكنه يوقظ الأرواح لأحلامها ... »

كما تصور على محمود طه القمر عاشقا والشاعر يغار من حبه للغلالة الرقيقة نفسها .

وفى الأدب الأوربى ظفر القمر بأهمية كبيرة ولا سيما عند شعراء الرومانتيكية فى انجلترا وفرنسا ، فلامارتين فى تأملاته التى أصدرها عام ١٨٢٠ وفى ايقاعاته التى أصدرها عام ١٨٣٠ يتغنى بضوء القمر وليالى الحب المتألقة وكذلك الحال بالنسبة الى فيكتور هوجو ، فان قصائده التى تضمنها ديوانه الضخم منذ عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٢٦ تزخر بحب القمر والتغنى بجماله .

وقد نشر هوجو أوراق الخريف عام ١٨٣١ وأناشيد الغسق عام ١٨٣٥ والأصوات الداخلية عام ١٨٣٧ والأشعة والظلمات عام ١٨٤٠ وقد مزج فيها حبه بالطبيعة ومنها القمر المتألق فى كبد السماء .

فكانت الطبيعة مرتبطة كل الارتباط بقصة حبه ، وكانت تعبيراته تفصح عن هذا الحب المتأجج بين جوانحه ٠

وكان الرومانتيكيون لايصفون الطبيعة بأسلوب موضوعى ولايشبهون القمر بالغادة الحسناء أو بالوجه الصبوح على عادة الشعراء العرب وكما فعل الكلاسيكيون انما كانوا يرون القمر ومجالى الطبيعة انعكاسا لما يعترى نفوسهم من حالات ، ولذلك كانوا لايقدمون لنا منهم أو أدبهم الا من خلال ذواتهم ، فالطبيعة ثائرة مع ثورتهم وهادئة مع هدوئهم وهى عارية فى كآبتهم وناضرة فى انشراحهم ٠ وكذلك القمر تتراءى على وجهه أمارات الفرح والحزن وتضطرم فيه أحاسيس الشجن أو النشوة ٠

والرومانتيكيون كانوا يرون فى ظواهر الطبيعة المتعددة رموزا لحياة الانسان ، ولكن أعظم ما اجتذبهم فى هذه الطبيعة الجمال الخلاب الخالد بتجدده الأبدى ورأوا جمال الطبيعة جزءا من الكمال الكلى الذى يميز عالم المثل ٠

وعلى هذا النحو تأملوا القمر وتغنوا بالليالى العذاب تحت اضوائه الساحرة حتى كانت أشعارهم مجموعة من الاحلام وموكبا من الرؤى التى تلم بجفون النائمين ٠

وقد كانت قصائد دى موسيه « الليالى » من أروع القصائد التى تغنى فيها الشاعر بحب القمر وانعكست مشاعره عليه وهو يتألق فى عرشه النورانى البديع ٠

وقد كان القمر فى الأدب الانجليزى وحيا لكثير من الشعراء نذكر منهم الشاعر كيتس الذى نظم قصيدة من أروع قصائده بعنوان « كل ماهو جميل » وقد وصف فيها الجمال بأنه كنز لايفنى ومصدر لسعادة دائمة ٠ وكل يوم يمر علينا وننعم فيه بالحياة فى ظل خميلة جميلة واحلام هانئة ٠ وصحة وسلام نصنع منه رباطا من الزهر يربطنا إلى الآرض برغم اليأس والحزن ٠

ومضى كيتس يصور مجالى الجمال فى الشمس والقمر والاشجار فهى تنشر ظلالها على الأرض جميلة رائعة على حين تكون الاقاصيص الحلوة التى سمعناها ينبوعا عذبا من شراب خالد ، وكذلك القمر والشعر وكل ماهو جميل يبقى معنا حتى يصبح نورا يضىء النفس مهما كانت الظلمة أو قلة الضوء من حولنا ، فهو معنا لايفترق عنا الى ساعة الموت ٠

أما الشاعر شللى فانه اعتقد أننا كالسحب التى تحجب القمر فى منتصف الليل ، فهى تسرع وتلمع وتومض فى حركة مستمرة وتضىء الظلمة من حولها ، ولكن سرعان ما يحيط بها الليل وتختفى الى الأبد ٠

وفى قصيدته الى قبره تراه يشبه صوتها الجميل الذى ينبعث منها بالكوكب الفضى الذى يذوى سراجه الوهاج كلما وضح من الفجر الضياء ، كما أن الأرض كلها والهواء تدوى بصوتها مثل القمر حين يتعرى الليل فلا تحجبه سحابة واحدة وتتدفق أشعته فتترع بها جفاف السماء ٠

وكان القمر فى الادب الغربى وسيلة الى الرغبة فى المعرفة واستطلاع المجهول واستكناه الغيب ، وقد ظهر هذا واضحا جليا عند لورد بيرون الرومانتيكى الظامىء الى حب المعرفة ، كما ظهر عند الاديب الشـــاعر الالمانى جوته الذى تحلق روحه دائما فى أجواء خياله ، متطلعا الى الظفر بأشهر متاع الدنيا وبأجمل نجوم المساء • ويريد أن ينزع حجب أسرار الطبيعة ولكن لاشىء يملأ رغباته فى هذا العالم •

واذا تطلع « فاوست» الى القمر أثار فى نفسه مشاعر شتى وخواطر كثيرة ، وتمنى أن يفتق حجب الغيب للتعـرف على المجهـــول من الأمر والمغيب من الاحداث فيقول :

أيها الكوكب ذا الضوء الفضى ، أيها القمر الصامت ! طالما سهرت الليل على مقربة من هذه المنضدة ، وطالما تجليت لى وقت ذاك ، أيهـــا الصديق الحزين ، فوق أكوام الكتب والاوراق ، آه لو أستطيع أن أتسلق على ضوئك الوديع شامخ الجبال، وأن أضرب فى الكهوف مع الارواح وأن أحلق فوق المروج تحت فيض نورك الباهت ناسيا كل مافى العالم من ايناس •

وهكذا كان القمر وحيا لفاوست فى الادب الالمانى ، وبابا يفتح عن عالم بعيد كله غموض وابهام وكله تساؤل واستفهام !

الموت

فى الأدبين العربى والغربى

لما يمت الأدب العربى ، وهيهات له أن يموت ، بل انه يتقدم شيئا فشيئا نحو الحياة والحياة النشيطة الموفورة ، انما أريد أن أبحث فى هذا الفصل ، كيف تناول الشعراء الموت ، وكيف وقفوا حيال هذه الظاهرة الطبيعية التى لابد أن تدرك كل حى .

ليس من شك فى أن شعراء العرب قد استمدوا جل أفكارهم من الديانات المختلفة السائدة فى جزيرتهم وفى الأقاليم المتاخمة لها ، وان من يتصفح الشعر الجاهلى يجد لبعض الشعراء خواطر فى الحياة وخطرات فى الموت ، ولكنها لا تتبع نظرية من النظريات ، ولا تسير وفق فلسفة من الفلسفات ، بيد أنها برغم هذا كله تضم كثيرا من الحكمة وفيها كثير من الصواب كقول عدى بن زيد من شعراء الجاهلية :

ان أهل الديار من قوم نوح ... ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الأسرة والانماط ... أفضت الى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن ... بعد ذا ـ الوعد كله والوعيد
وأطباء بعدهم لحقوهم ... ضل عنهم صديقهم واللدود
وصحيح أضحى يعود مريضا ... وهو أدنى للموت ممن يعود

ومن أمثلة العصر الجاهلى كذلك ما قاله عبدة الصفار عن أمية بن أبى الصلت الشاعر الجاهلى الذى قال عنه الرسول الكريم : آمن شعره وكفر قلبه . فقد ذكر أن أمية بن أبى الصلت أغمى عليه طويلا عند وفاته ، ثم أفاق ورفع رأسه الى سقف البيت وقال : لبيكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، لا عشيرتى تحمينى ، ولا مالى يفدينى ، ثم أغمى عليه طويلا وقال :

كل عيش وان تطاول دهرا ... صائر مرة الى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى ... فى رءوس الجبال أرعى الوعولا

ولما جاء الدين الاسلامى تناول كتابه العزيز الموت بين ثناياه ، فقال عز وجل: «أينما تكونوا يدرككم الموت ولوكنتم فى بروج مشيدة»(١) وقال تعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام»(٢) وقال أيضا : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » (٣) .

---

(١) سورة النساء (٧٧) (٢) سورة الرحمن (٢٦ ، ٢٧) (٣) سورة الملك (٢)

وقد جاء فى التوراة كثير من الآيات التى تدعو الى الزهد وذم الدنيا واستحقار الحياة

وقد تناول الشعراء الاسلاميون الموت فى شعرهم وذموا الدنيا ، وطلبوا التهجد والتعبد والورع والتقى وتصوف نفر من المسلمين ، ونظروا الى الحياة نظرة استخفاف واستهجان كما ظهر نفر من الشعراء الزهاد كأبى العتاهية . ولعل هذا النفر من القوم تمثل بقول عبد الله بن مسعود (الدنيا كلها غموم ، فما كان منها سرورا فهو ربح) وقد تناول شاعر عربى الحياة والموت فى بيتين فقال :

نراع لذكر الموت ساعة ذكره ... وتعترض الدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنى الدنيا خلقنا لغيرها ... وماكنت منه فهو منى محبب

وقيل أن محمد بن كعب دخل على عمر بن عبد العزيز فحدق النظر اليه فقال له عمر : ما تنظر يا محمد ؟ قال : أنظر الى ما ابيض من شعرك ونحل من جسمك وتغير من لونك . فقال : أما والله لو رأيتنى فى القبر ، وقد سالت حدقتاى على وجنتى وسال منخراى صديدا ودودا لكنت أشد نكرا .

وعند ما تناول أبو العلاء المعرى الموت فى شعره كانت له نظرة خاصة فيه ، فهو يعتقد أن الحياة لون من السخف الذى لا طائل تحته ، ويعتقد أن كل ذى روح ينبغى أن يعيش ، فحرم على نفسه أكل كل ذى روح . وقد ضم ديوانه « لزوم ما لا يلزم » كثيرا من آرائه فى الحياة ، فما الدنيا فى نظره الا ميتة وما الناس حواليها الا كلاب نوابح ، غير أن الخاسر من يأكل منها كثيرا ، والكاسب من لا يأكل منها شيئا ، والدنيا دار لا ينبغى للعقلاء أن يبكوا على غيابها ، فما الظافرون بعزها ويسارها الا قريبو الحال من خيابها ، فقال أبو العلاء :

ان حزنا فى ساعة الموت أضعا ... ف سرور فى ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار أعما ... ل الى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ... جسم فيها والعيش مثل السهاد

واذا مات الانسان لم يحفل بجسمه أبو العلاء ولم يرض تكريمه ، بل يرى أن يوارى فى التراب أو يفعل به أى شىء ، فانه لا يحس ولايتألم ، وقد ضمن هذا المعنى فى قوله :

نكرم أوصال الفتى بعد موته ... وهن اذا طال الزمان هباء

وقد ذكر الدكتور طه حسين فى كتابه تجديد ذكرى أبى العلاء هذه الملاحظة كما أضاف اليها أن أبا العلاء استحسن غير مرة تحريق الهند موتاهم فقال :

والنار أطيب من كافور ميتنا ... غبا وأذهب للنكراء والريح

وهكذا زخر الأدب العربى بشعر الموت وكثر الرثاء فى الشعر ، وقد

قيل : أن الرثاء أجود شعر العرب لأنه أصـــدق عاطفة ولأنهم يقولونه ونفوسهم مفجوعة .

وقد ذكر ابن رشيق فى كتاب (العمدة) ص ١١ أنه ليس هنالك فرق بين الرثاء والمدح الا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به الميت ، مثل كان أو عدمنا به كيت وكيت أو مايشاكل هذا ليعلم أنه ميت .

وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام أن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا كما قال النابغة فى حصن بن حذيفة :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسـهم ... وكيف بحصن والجبـــال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل ... نجوم السماء والأديم صـحيح !

وأبو تمام من المجيدين فى الرثاء ومثله عبـد الســـلام بن رغبان المعروف بديك الجن ، وهو أشـد فى هـــذا من حبيب وله فيه طريق انفرد به .

ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة فى قلل الجبال والأسود الخادرة فى الغيـاض وبحمر الوحش المنصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها ، وذلك فى أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر .

أما المحدثون فهم الى غير هذه الطريقة أميل ، وربما أتوا بالجديد الى جانب أخذهم بالتقليد ، ومن أفضل الرثاء فى نظر ابن رشيق قول حسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

فيا قبـر معن كنت أول حفـرة ... من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مترعا

هذا وقد مزج كثير من الشـــعراء الحب بالموت على النحو الذى يفعله شعراء الفرنجة حيث تزخر بعض دواوينهم بهـــذا الموضوع كفن مستقل قائم بذاته ، ومن هذا الضرب فى أدب « البـــالاد » الانجليزى قصيدة الشاعر يوليوس ميكل المسماة « قاعة كمنر » التى يصور فيها علاقة أيمى روزيبات بالشريف لستر وكيف أنه آثر الملكة اليزابيث عليها بدافع من الطموح فى المجد والرغبة فى السيادة وكيف تمثل الموت حياله بعد ذلك .

وكان ممن تناول الحب والموت فى الأدب العربى الشاعر الغـزلى جميل بثينة الذى قال فى احدى قصائده :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى ببثنة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجاور اذا ما مت بينى وبينها فيا حبذا موتى اذا جاورت قبرى
عدمتك من حب أما منك راحة وما بك عنى من توان ولا فتر

كما تناول جميل بثينة الحب والموت فى أبيات أخرى :

من حبها أتمنى أن يلاقينى من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول فراق لا لقاء له وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

وقال ابن رشيق : ومن جيد ما رثى به النساء وأشجاه وأشده تأثيرا فى القلب وأثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك الزيات فى أم ولده:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تحثه بلابل قلب دائم الخفقان

هذا وقد ذكر صاحب العقد الفريد أنه كان لمعلى الطائى جارية يقال لها (وصف) ، وكانت أديبة شاعرة باعها المعلى فى مصر بأربعة آلاف دينار ، ودخل عليها فقالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال نعم ، قالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها ، فرد الدنانير واستقال صاحبه ، ثم أصيب بها بعد ثمانية أيام ، فرثاها أنجع رثاء وبكاها أشد بكاء :

يا موت كيف سلبتنى « وصفا » قدمتها وتركتنى خلفا
هلا ذهبت بنا معا فقد ظفرت يداك فسمتنى خسفا

وهكذا تناول الشعراء الموت فى الأدب العربى ، وكان ذكرهم للموت مستمدا من الدين الاسلامى حيث جاء فى الحديث المرفوع (الموت راحة) كما قال بعض السلف : ما من مؤمن الا والموت خير له من الحياة ، لأنه ان كان محسنا فالله يقول : « ما عند الله خير للأبرار » وان كان سيئا فانه تعالى يقول : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما »

غير أن هناك شعراء قلائل عرفوا بمذهب خاص فى الموت كأبى العلاء المعرى

ويعد شعر الرثاء فى الأدب العربى من أهم الأبواب التى ذكرها المصنفون والنقاد كأبى تمام فى ديوان الحماسة ، وقد مزج بعض الشعراء الحب بالموت على النحو الذى يلجأ اليه شعراء الفرنجة ، فكان هذا اللون من أحب ألوان الشعر الى النفوس وأوقع ألوان الشعر فى القلوب .

أما الموت فى الأدب الغربى فكان مثارا لفلسفة المتفلسفين وحيرة الشعراء ، وقد صور الشاعر الانجليزى وليم ترنر تحلل الروح البشرية

على صخر الحياة الحديثة المقفر ، يسقط فوق الحس ، فيبلى كما يبلى الجو يفعل الماء . فقال فى قصيدة بعنوان « كما يتآكل الصخر » :

كالصخر تتآكل روح الانسان
تتآكل وتتفتت مع الزمن
الحس يسقط على سطح بال
جرس بعد جرس
كقطرات الندى تتمتم
أو قطرات المطر ترسم
أو الريح تهب وتصفر
فى كل طريق أو منعرج
ناعمة كالاحجار قائمة
بالية بفعل المـــاء
أو بلاها الليل وأبلاها النهار
وحيدة مهجورة
كالصخر تتآكل روح الانسان
تتآكل وتتفتت مع الزمن
دون أن يسمع لتآكلها صوت
أعلى من صوت المطر
يتساقط على النهر
جرس بعد جرس
تذبل وتنطوى كما
يذبل الزهـــــر

أما الشاعر توماس ستيرن اليوت فقد كان له حيال الموت موقف عجيب ، وكان يعتقد أن الحياة الجديدة قد جرت على الدنيا الشقاء كما أن الآلة الجديدة لم تخلف للناس الا البـــلاء ، وقد ثار فى وجه الآلة ، وفى وجه تيار المدنية الجبار حتى انه وصل الى حد التصوف فى الايمان بالروح والنفور من الآلة

وكان اليوت يحن الى يوم صلاحه وتحطيم بيت الصلصال الذى يؤويه ، وكان يقول : « بين التصور والخلق يسقط الظل بين القلب ، والقلب يسقط الظل ما أطول الحياة » كما كان يقول : « قلت لروحى اهدئى يا روح ، فالأمل الذى تأملين أمل الباطل ، وقلت لروحى اهدئى يا روح فالحب الذى تحملين حب للباطل ، لم يبق الا الايمان ياروحى ، ولكن الأمل والحب والايمان كلها فى الانتظار » .

وتعد قصيدة : ت. س. اليوت ، « الرجال الجوف » من أروع

قصائده وتشيع فيها الحسرة ، وينطق بين سطورها الألم ، وتغشيها سحابة قاتمة من الأحزان ، وغائمة داكنة من الأشجان .

وقال فيها : « نحن الرجال الجوف بالقش حشينا ، وبالقش حشيت رءوسنا يتوكأ بعضنا على البعض الآخر ، فوا أسفاه كلما همسنا خرجت أصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت الريح على الحشائش اليابسة أو دبيب أقدام الجرذان وهى تمشى على الزجاج المكسور فى مخابىء الخمر ببيوتنا .

أما أولئك الذين انتقلوا الى مملكة الموت الأخرى بلا تردد فلا يذكروننا ، فان ذكرونا لم يذكروا أننا أرواح هاجعة ضائعة بل ذكروا أننا الرجال الجوف .

نحن أشكال بلا قوالب ـ نحن ظلال بلا ألوان ـ نحن قوى مشلولة ـ نحن اشارات بلا حركة .

تلك العيون التى لا أجسر على مواجهتها فى أحلامى لا تظهر فى مملكة الموت ، مملكة الأحلام ، فالعيون هنالك شعاع من الشمس ، يشرق على عمود محطم .

وهناك شجرة تتأرجح وأصوات تسمع ـ فى غناء الريح ـ بعيدة رهيبة أشد بعدا ورهبة من نجم يخبو » .

أما الشاعر الامريكى هنرى وارزورث لونجفلو ١٧٨٠ ـ ١٨٨٢ م فانه كان صاحب نزعة دينية واضحة فى شعره ، وكان أبرز حادثة فى حياته كلها موت زوجته الثانية محروقة بعد أن ماتت زوجته الأولى ابان رحلته الثانية الى أوربا ، وقد تجلى فى شعره الايمان بأدق معانى هذه الكلمة ، وكانت له فلسفة خاصة فى الموت تتراءى بين سطور أبياته :

ليس هناك موت وما يعد موتا ان هو الا انتقال
هذه الحياة المعدودة الأنفاس
ان هى الا ضاحية من حياة الخلود
التى أطلقنا على مدخلها اسم « الموت »

وقد قال الشاعر الأمريكى ادجار ألن بو : « لا ريب أن موت امرأة جميلة خير موضوع شعرى فى العالم » لأنه كان يعتقد أن الجمال والموت نقيضان ، وأن الشعر لابد أن يكون مليئا بالحسرة متدرعا بالشجو والشجن حتى يصل الى شغاف القلوب وهو يشتاق الى الموت لأنه باب الى عالم الكمال والجمال ، وفى قصيدة رائعة من قصائده بعنوان « الى واحدة فى الفردوس » يتحدث عن الحبيبة التى عدت عليها المنون وكشر لها الموت عن أنيابه :

« أما أنا واحسرتاه ! واحسرتاه !
فقد خبا منى ضوء الحياة
أبدا أبدا .... لن
لن تورق الشجرة التى حطمتها الصاعقة .
ولن يحوم النسر المهيض الجناح
ومثل هذا القول يربط البحر
الوقور الى رمال الشاطىء
كل أيامى غيبوبة أثر غيبوبة
وكل أحلامى فى الليل تسير
الى حيث تلمح عينك السوداء
وحيث تلمح خطواتك
فى كل رقصة أثيرية
وعند كل ساقية خالدة !

وقد كانت هـذه النزعة التشـــاؤمية مظهرا من مظاهر الأدب الرومانتيكى فى أوربا ، وبرزت فى شعر الفـــريد دى موسيه والفريد دى فينى وفيكتور هوجو فى فرنسا كما تجلت فى شعر بيرون وكيتس وشللى فى انجلترا .

فكتب لامارتين فى قصيدة « الشاعر يموت » يقول :
تحطمت كأس أيامى ومازالت مترعة
وهذى حياتى تهرب فى تنهدات طويلة مع كل نهمة
لا الدمع يستطيع أن يوقفها ولا الندم
وجناح الموت يقرع الناقوس الذى يبكينى
ويعلن بضربات متقطعة ساعتى الأخيرة
هل يجب النحيب أو يجب الغناء ؟

أما كيتس ففى قصـــــيدة « الى البلبل » تتسلل الرغبة الى الموت وهو ينصت الى صوت البلبل وهو ينطلق فى الفضاء العريض ويتمنى أن يغنى فى أصدائه النشوى الرخيمة فيقول :

فى الظلام انصت وكثيرا ماكنت
كنت نصف هائم بالموج المريح
ادعوه بأسماء لطيفة فى أشعار تأملية
كى يأخذ الى الهواء نفسى الهادى
وأكثر من أى وقت مضى يبدو لى أن من الممتع أن أموت
وانني فى منتصف الليل بلا ألم
على حين تصب أنت روحك صبا من الخارج
تمثل هذا الجذل النشوان

وستظل تفرد بلا جدوى وقد فقدت أذنى السمع
وغدتا قبرا لأنشودتك الجنائزية المرتفعة .

وهكذا تصور جون كيتس الموت فى الصوت الحلو الرخيم الذى ينساب فى مسمعه رفيقا رقيقا لأنه كان يشعر بالحيرة والألم ويحس بالشجو والشجن ، فانعكست هـذه المشاعر الساخطة على الدنيا ، الساخرة من الدنيا وزينتها وزخرفها ، على هذا الصـوت الجميل المنطلق .

وهكذا كان شعور الرومانتيكيين جميعـا ـ يرجعون الى ذواتهم ويعكسون ـ عواطفهم وأحاسيسهم على صور الطبيعة المختلفة .

وفى قصيدة شللى « عند ما ينكسر المصباح نلمس هذه الظاهرة نفسها ظاهرة انعكاس الشاعر على صور الطبيعة ومجاليها .

بل ان أوراق الورد عند ما تذوى وتتصوح وتلفظ الوردة أنفاسها الاخيرة تجمع فراشـا للحبيب فى نظر شللى ، وكذلك أفكار الحبيبة بعد ذهابها يتخذ الحب منها مهدا وفراشا .

لغة زهور

بين الشرق والغرب

ان أجمل هدية يمكن أن تهـــدى الى الحبيب فتثلج قلبه وتشرح صدره ، وتجعل حياته باسمة ضاحكة ـ باقة الزهر ، وباقة الزهر تجمع ألوانا مختلفة من الزهور : ففيها الورد والياسـمين ، وفيها البنفسـج والآس ، وفيها الزنبق والأقحوان ، وفيها النوار والريحان ، وفيها الفل والنرجس ، وغير ذلك من الزهور التى تشرح الصدر وتفرح القلب ، وتبهج النفس .

وقد فطن الأدباء منـذ العصور الأدبيـة الأولى الى لغـة الزهور فقالوا : ان البنفسج معناه « أفديك بنفسى » وأن الورد الأحمر معنـاه الحب ، وأن الزنبق الابيض معناه الصفاء ، وأن الاقحوان الاصفر معناه الغيرة وما الى ذلك من معان ابتدعها خيال الشعراء ، وتعلق بها المحبون على مر الايام .

والأزهار نفحة من نفحات الاله عز وجل الذى أبدع خلقه ، وأحكم صنعه وكل زهرة من الأزهار تحمل معنى رقيقا ، وهدفا رفيعا ، وآية ناطقة على قدرته وجماله ، فالله جميل يحب الجمال .

وفى هذا يقول الشاعر خليل مطران الذى أغرم غراما شـــديدا بالزهر حتى يمكن أن نعتبره شاعر الزهر فضلا عن أنه شاعر القطـرين بل الأقطار العربية :

يارب أعظـم بمـا وضـعتا
فى الكون من آيك العظـام

أدق شىء ممـا صـــنعتا
كجملة الخـلق بالتمـــام

نثرت نثرا فجـــاء نظمـا
بديعـــة جليـــة البيـــان

وكـــل بيت به اســـتتما
قصـــيدة تخلب الجنـــان

لكن فى صـــنعك الجليـــل
أحب شىء لنـــا الزهـــر

خلقتـــه بهجـــة العقـــول
ومرتع النحـــل والفـــكر
نكاد من خلقـــــه الجميـــل
نســـتجمع النفس فى البصر

وبعض الناس يحب أن يهدى الى أحبابه باقة من الورد ، والورد دليل على الحب والخجل لأنه يجمع طابع الحب المشتعل والغرام المتقد حينا كما يحمل حياء العذارى الذى يضرج بحمرته وجناتهن . والورد أمير بين الزهور (على حد تعبير الخليل) :

طوائف هـــذه الأزاهر وكل حـــزب له أمير
مليكهـــا الورد لم يكابر منـــاظر فيـــه أو نظير
تقلد التاج من جواهر وقام للحكم على السرير

أما الفل فآية على نقاء النفس وصفاء الطوية ، وكذلك الزنبـق الأبيض الذى يكلل هامات الرياض والربى ، ويحلو لكثير من الفتيـات أن يصنعن من الفل عقدا نضيدا ، يحلين به صدورهن أو تاجا نظيما يزين به رءوســهن ، وما أجمل هـذه الأبيات التى نظمها الشـاعر فى وصف حسناء زانت رأسها بطاقة من الفل الأبيض الناصع :

زانت الرأس بفـــل هـــو بالرأس تحلـى
ما رأت قبـــلك عينى وردة تحمـــل فـلا

والنرجس انما هو ابتسامة الفجر ، بعد هبوط الظلام ، وتحقق الرجاء بعد انقطاع الأمل وهو أشبه شىء بالروح المقبـل من الملأ الأعلى فى ثوب الملائكة الأطهار لا فى ثوب البشر الذين يعيشون على الارض :

انما النرجس ابتســامة فجر
ألطفت نســـجها يد الرحمن

قام فى كلة البيـــاض فكانت
ثوب روح لا ثوب جسم فانى

زنبق ناصـــع البيـاض نقى
ترتوى من بياضـه العينان

وجفـون من نرجس داخلتها
صفرة الداء فى محاجر عانى

ووزود كأنهـــا ملـــكات
برزت فى غـــلائل الأرجوان

وأفانين من شقيق ومن فل «م»
ومن مضـعف ومن ريحـــان

والنرجس له قلب أصفر اللون كالذهب النضار ، وحوله غلائل مشرقة ناصعة البياض ، ومن هنا كان وحيا والهاما للشعراء ، فقلبه أشبه ما يكون بالذهب ، وغلائله أشبه ما تكون بالأنامل أو الأصابع البيضاء ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كأنما نرجسنا وقد تبدى من كثب
أنامل من فضة يحملن كأسا من ذهب

وما أحلى النرجس وقد بلله الندى فبدا كأنه يسكب الدموع مع أن وجهه مشرق وثغره باسم تتلألأ عليه الابتسامة ، ويشرق منه النور فقال ابن الرومى :

ونرجس كالثغور مبتسم
له دموع المحدق الشاكى

أبكاه قطر الندى وأضحكه
فهو من القطر ضاحك باكى !

وأغلب الشعراء يشبهون العيون الجميلة الواسعة بزهر النرجس لما يشع منها من بريق ساحر وسحر أخاذ :

وأحسن ما فى الوجوه العيون
وأشبه شىء بها النرجس

أما شقائق النعمان فهى أشبه بالورود الحمراء فى لونها وسحرها وجاذبيتها ، وهى تبدو وسط المروج الخضراء تبهر العين وتسحر القلب ، ولا سيما عند ما تميل فى يد الريح ذات اليمين وذات الشمال ، وقد وصفها شاعر فقال : (القاضى عياض) :

انظر الى الزرع وخاماته
تحكى وقد مالت أمام الرياح

كتيبة خضراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح

أما البنفسج فقد شبهه بعض الشعراء بزرقة اليواقيت أو بالكحل فى ألحاظ الملاح المراض الصحاح ، الفاترات الفاتنات ، المحييات القاتلات أو كالمحب المهجور ينطوى على قلب مسجور على حد تعبير أبى العلاء السندى فى رسالته عن البنفسج .

ومن ألطف الأوصاف التى أطلقها الشعراء على زهر البنفسج أنه يبدو كأثر القرص فى خدود العذارى وفى هذا يقول الشاعر ابن الرومى أو الحسن الشاطبى :

اشرب على زهر البنفـ سج قبل تأنيب الحسود
فكأنما أوراقه آثار قرص فى الخدود

كما قال شاعر آخر : (أبو هلال العسكرى) :

وبحافاتها البنفسج يحكى أثر القرص فى خدود العذارى

أما الياسمين فيبدو فى تجمعه وبياضه كأنه اكليل العروس ، يحمل معنى السعادة والهناء والخير والرخاء ، غير أنه فى نظر بعض الشعراء كالأنامل البيضاء والعجيب أنها أنامل من غير أكف :

وروضة نورها يرف مثل عروس اذا تزف
كأنما الياسمين فيها أنامل ما لها أكف

أما السوسن فيحمل عند الشعراء طابع الزهو والاعتداد ، وهو عندهم أشبه بأذناب الطواويس حينا أو بملاعق من ذهب حينا آخر أو نحو ذلك غير أنه يحمل فى جميع الأحوال بشير الربيع الطلق الضاحك:

ان كان وجه الربيع مبتسما
فالسوسن أعجبتنى ثناياه

يا حسنه ضاحكا له عبق
كطيب ريح الحبيب رياه

وقال شاعر آخر :

أنظر الى السوسن فى منبته
فانه نبت عجيب المنظر

كأنه ملاعق من ذهب
قد خط فيها نقط من عنبر

وهذه هى بعض أنواع الزهور فى نظر أصحاب الشعر وأرباب الخيال فتبارك الله خالق الاشجار والازهار ومبدع الليل والنهار .

وما أجمل هذه الباقة حينما تحملها الى هؤلاء الذين ألم بهم الداء فتكون بشير برء وشفاء ، فانما الازهار لا تعيش الا للخير ولا تحيا الا من أجل التضحية والفداء :

انما الزهرة خلق عجيب
فطرة سمحاء تسمو الفطرا
خلقت للخير خلقا صافيا
جاوز الضيم وفاق الغيرا
شأنها تضحية النفس ولا
شىء غير النفع تبغى وطرا

وهذه الأزهار تكون فى مجموعها طاقة ناضرة ، وطاقات الزهر هدايا المحبين الى أحبابهم حول الأسرة البيضاء ، وفوق كل طاقة بطاقة تحمل اسم مرسلها وهى تعبر عن شعوره واحساسه ولكنها فى الوقت نفسه رمز لا أكثر ولا أقل لما فى نفسه من طاقة حب واعزاز ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

لـــو أن ما نتمنى يكون منـــا بطـاقة !
أهـــديت جنـــة ورد وما رضـــيت بطـاقة !
لـــكننى مـــن دمائى نظمت هذى البطاقة !

أما فى الغرب فان الزهور كذلك دليل على الحب ، وآية على الهيام ووسيلة الى التهادى بين المحبين ، وكانت الأزهار على اختلاف أنواعها وتباين ألوانها تحمل مشاعر خاصة للشعراء ولا سيما الشعراء الوالهين المتدلهين !

ولقد تولدت فى الأدب القديم قصص كثيرة تدور حول هذه الأزهار منهـــا أسطور الصـــدى والنرجس Echo and Narcissues وخلاصتها أن « أكو » عروس الجبـــال كانت باهرة الجمال ، وكانت تسرف فى الحديث عن نفسهـــا اسرافا ممـــا أدى الى أن الالهة ديانا حرمتها النطق اللهم الا الرجع الاخير من الكلمات وشاء القدر أن تقـع « اكو » فى غـرام شاب جميـل يدعى نارسيس وهو النرجس ، وهمت بمغازلته الا أنها عجزت عن ذلك فأوت الى الصخور حزينة أسيفة .

وتشـــاء الظـروف أن تنتقم من نارسيس ، فرأى يوما صـورته معكوسة على الماء فأحبها بعدما رفض أن يحب أكو فى وضعها المزدرى ، ولكن لا سبيل الى ضم الحبيب فاعتزل فى حـزنه حتى مات ، فأرادت العرائس أن توارى جسده فى قبر من القبور يليق به ، ولكنها لم تجد من جسده الا زهرة تحمل اسمه وهى زهرة النرجس ، ولعلهـا رمز الى زهرة النرجس التى تنمو على حافة المياه وضفاف الغدران .

كما ظهرت فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى قصة الوردة من القرن الثالث عشر وكتب الجزء الثانى من القصة جان دى مونج بعـد ذلك بنصف قرن تقريبا ، ثم أتى بعد ذلك جوفرى تشوسر فى القـرن الرابع عشر ، فترجم قصة الوردة من أصلها الفرنسى الى الانجليزية .

وتدور هذه القصة حول مغامرة طافت بجفن وسنان فرأى فى بئر بلورية منظر الروض الزاخر بالحسن ، ووجد فى قاع البئر شجرة ورد وارفة الاغصـــان تتوجها وردة كبـيرة متفتحة الأكمام رشق بســحرها بخمسة من سهام الحب فى وقت واحد .

ولم تكن الأســاطير هى كل ما يميز الأدب الغربى حـول الازهار والورود ، انما كانت أداة من أدوات الخيال والجمال فى العصر الرومانتيكى وكانت البساتين مرتعا لخيال الرومانتيكيين .

وكان الشـــاعر وليم وردزورث شـــاعر الطبيعة المرموق فى الأدب الانجليزى قد التقى بالشاعر كولريدج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) واشـتركا فى ديوان القصائد الغنائية Syrecal Ballads ويعـــد هـــذا الديوان من أعظم الوثائق فى الأدب الرومانتيكى والتغنى بالحب والجمال والأزهار والرياحين .

وقد جعل الرومانتيكيون الأزهار تحب وتعشق ، وتحن وتتألم ،

يل أن بعض الشعراء مثل هاينى فى الادب الإلمانى جعل شجرة الصنوبر تحلم والزهور تعشق وصور شجرة الصنوبر وهى تقف وحيدة تنام ملتفة فى كساء أبيض من جليد وثلج ، وتحلم بشجرة نخيل بعيدة فى بلاد الشرق .

وديوانه « أناشيد الليل » الذى ظهر عام ١٨٠٠ ملىء بالصور الشعرية الجميلة حول الأزهار العاشقة والورود المتدلهة بالحب والجمال .

أما بيرون فقد أطلق خياله فى ذلك كل منطلق حتى انه كان يقول : « اننى لا أعيش فى ذاتى ، ولكننى أصبحت قطعة من كل ما يحيط بى ، حتى ان الجبال العالية تبدو فى نظرى كأنها عاطفة » .

ويمتلىء ديوانه « ساعات الكسل » بصور طريفة حول نفسه التى تتفتح للحب كما تتفتح الوردة عن أكمامها تستقبل الربيع ، وحول الازهار الذابلة الذاوية المتناثرة على الارض ، وحول الغابات المتجردة من أوراقها التى تاهت فيها طفولته ، وكان بيرون يقول : « لكى يصبح المرء شاعرا يجب أن يكون محبا أو شقيا وقد كنت الاثنين حين كتبت « ساعات الكسل » .

وبهذه الروح مضى بيرون يصور الزهور المتصوحة ويعكس مشاعره على جمالها وهو يجوس خلال الروابى المعشوشبة .

وقد استمد الرومانتيكيون خيالاتهم من ذواتهم ومن تلك الصور الشعرية الأخاذة التى لاحت فى شعر شكسبير الذى كان وحيا وملاذا للرومانتيكيين الأوائل ، ومن شعر غيره من الشعراء الذين عبروا عن خلجات نفوسهم ونبضات أحاسيسهم كالشاعر المعروف روبرت هرك الذى قال فى النرجس :

أيها النرجس اننا لنبكى إذ نراك
تمضى الى الفناء وشيكا
هأنتذا تمضى والشمس التى بكرت فى شروقها
لم تبلغ بعد فى السماء أوجها
قف ! قف !
حتى نرى النهار المسرع فى خطاه
قد انقضى
قف حتى تغنى أنشودة المساء
.. فاذا ما أدينا الصلاة معا
فسنمضى معك الى حيث تريد

ويطرب الشاعر تشارلز سوينبرن ١٩٣٧ ـ ١٩٠٩
Chacles Swinpurne من الورود
ويكتب «بالاد» بعنوان : Ballad cf Dream land
« منظومة أرض الأحلام » جاء فيها :

أخفيت قلبى فى عش من ورد
أخفيته هنالك من أشعة الشمس
أرقدته على فراش أندى من القطن المندوف
تحت الورود أخفيت قلبى
لماذا لا يأخذه النعاس ؟ لماذا ينتفض وهو يقظان ؟
وليس على شجرة الورد ورقة تتحرك
ما الذى جعل الكرى يرف بجناحيه بعيدا عنى ؟
لعلها أنشودة طائر خفى !

فشارلز سوينبر يجد مثواه فى عش الورد ، حتى يذوق طعم الكرى ، بيد أنه يظل ساهدا ساهما يفكر وقد اتخذ مقره فى عالم الأحلام.

أما الشاعر الأمريكى روبرت فاوست فانه اتخذ من منظر رآه على زهرة من الزهور وسيلة الى الفلسفة والنظرة فى الحياة فقال فى قصيدة «خطة» :

رأيت عنكبا أبيض سجينا ذا رصعات
على زهرة بيضاء يحمل فراشه
كقطعة بيضاء من الساتان
مزيجا من أشخاص الموت والا محال
اختلطوا من أجل الابتداء عند الصباح كما ينبغى
كالعناصر الخليطة فى قدر ساحرة العين
عنكبا كندفة الثلج وزهرة كالزبد
وأجنحة ميتة مشرعة كطيارة من ورق
لم كانت الزهرة تلك بيضاء ؟
وكانت كمهدى بها على جوانب الطريق زرقاء بريئة
وما الذى أتى بالعنكب السيىء الى ذاك العلو ،
ثم اقتاد الفراشة البيضاء هناك ليلا ؟
خطة من الظلام مروعة لا غير !

وتصور هذه القصيدة النزعة التشاؤمية أصدق تصوير ، غير أنها صورة من التفكير المعذب المكروب الذى يعتبر الحياة خطة من الظلام مروعة ، وحجبا من الطلاسم وضروبا من الألغاز .

كما تثير التساؤل من طرف خفى حول تصرف المقادير وكيف وأين ومتى ؟

وكتب فيكتور هوجو قصيدة بعنوان « القبر والوردة » صور فيها حوارا بين القبر والوردة جاء فيه :

قال القبر للوردة :

ماذا صنعت يا زهرة العشاق

بقطر به الفجر رواك ؟
فقالت الوردة للقبر :
وانت ماذا صنعت بالاوائل الذين هبطوا
جوفك الذى لا ينى عن التقام الاجساد ؟
وقالت الوردة :
أيها القبر البهيم
من ذلك القطر أصنع
شهدا شهيا وعنبرا
فقال القبر :
« يا وردة شائكة
كل روح هنا قدم
صيرته من ملائكة السماء !

وهكذا كان ذكر الأزهار والورود فى الأدب الغربى لونا من الوان الجمال البديع ، والحسن الرفيع كما كان لونا من الوان الفلسفة الجادة والتأمل فى الحياة والأحياء ، وفى البقاء والفناء ، وفى الدثور والخلود ، ولم يكن أثر الازهار متوقفا على التشابيه الرقيقة والتصاوير الجميلة والخيالات المنطلقة والتأملات السابحة .

ولم يكن الجمال فى نظر أغلب الشعراء الغربيين شيئا جزئيا ملموسا محسوسا ، انما كان جمالا كليا شاملا كاملا ، وكان صورة متناسبة متناسقة توحى بالمشاعر وتلهم الأفكار ، وتبعث التأمل ، وتحمل المشاعر المعكوسة والأحاسيس الانسانية فى هدوئها وسكونها وفى حركاتها وخطواتها فى يد الريح ذات اليمين وذات الشمال .

حديث فى القصة

بين الشرق والغرب

نشأت القصة منذ فجر التاريخ ، وذاعت وشاعت على الألسنة منذ أن كون الانسان المجتمع ، ولقد امتزجت القصة عند الاغريق بالمثيولوجى والخرافات والاساطير ، كهذه القصص الخرافية التى نجدها عند هزيود ، وقد استمد هوميروس قصصه من الحرب التى نشبت بين الاغريق والطرواديين وحلفائهم ، وهى تلك الحرب التى دامت عشر سنين ، كما استمد الأوديسة مما جرى لأحد أبطال الاغريق وهو أوديسيوس بعد سقوط طروادة .

وقد وضع هوميروس بهذا أساس الشعر القصصى فى الأدب الاوربى ، فنشأت الملاحم التى ألفت على غرارها ، مثل الياذة فرجيل ، وكوميديا دانتى ، وفردوس ملتون ، وملحمة أرلندو الغاضب لأريستو ، وغيرها من الملاحم .

وقد تفرع من هذا الشعر القصصى لون آخر من الأدب وهو فن القصص ، وقد تقدم على مر الأزمنة حتى أصبح فنا قائما بذاته فى الآداب الأوربية .

ولم يعرف التاريخ قصة أقدم من القصة المصرية ، وذلك لأن المجتمع المصرى كان أول مجتمع عرفه التاريخ ، فهنالك قصة السحرة الثلاثة التى ترجع الى ألفى سنة قبل الميلاد .

وقد عرفت مصر فى عهد الدولة الوسطى فى تاريخ مصر القديم قصة سنوحى ، وقصة البحار الغريق ، وتنسب كل منهما الى الأسرة الثانية . أما فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فقد عادت القصة المصرية الى الازدهار ، وشغف أدباء هذا العصر بكتابة القصص الغرامية والخيالية . وقد بلغ اعجاب المصريين بالقصص حدا كبيرا ، الى درجة انهم وضعوها الى جوار الميت فى قبره لتسليته وابعاد الوحشة عنه ، وعرف المصريون القدماء كذلك قصص الاسفار والملاحين الذين تاهوا فى البحار ، أو الحداة الذين ضلوا فى القفار .

وربما عرف الأدب الجاهلى كثيرا من القصص ، ولكن الذى لاشك فيه ولا محيص عنه هو أن الأدب الجاهلى لم يصل الينا كله وانما وصل الينا بعضه ، بل ان قدر ماوصل الينا من النثر الجاهلى لايعادل قدر ما وصل الينا من الشعر الجاهلى مع ما فقد من التراث الجاهلى .

وحرب عبس وذبيان ، وحرب المهلهل بن ربيعة وسيف ذى يزن ، واجراء النيل من جبال القمر كل ذلك أوحى بتأليف كثير من القصص .

وما أن جاء القرن العاشر للميلاد حتى وجدنا قصص ألف ليلة وليلة قد شغلت الناس فترة طويلة من الزمان ، نجد فيها قصة قمر الزمان ، وابن الملك شهرمان، والسندباد البحرى، وعجيب وغريب ، وفيروزشاه . وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة الى اللغة العربية ، وكان أصله الاول هنديا ، فأضاف ذلك العمل الى القصص العربى ثروة كبيرة . ولكن بعض أدباء العرب كانوا يعتبرون كتاب « ألف ليلة وليلة » (كتابا غثا باردا) كما روى ذلك المسعودى فى مروج الذهب وابن النديم فى الفهرست ، ولكن السواد الأعظم منهم ينظرون اليه ككتاب قيم مفيد وتراث أدبى كبير ، وقد تمنى الكاتب الفرنسى ستندال أن ينساها ليقرأها مرة أخرى ويلتذ بقراءتها .

ولقد وجد قصاص فى المساجد يقصون على الناس أخبار الأمم السابقة ، ويعظونهم ويرشدونهم الى الطريق السوى المستقيم ، كعبد الله ابن سلام ، والحسن البصرى ، ووهب بن منبه ، وتميم الدارى ، بل لقد أضاف بعض المفسرين فى تفسير القرآن عنصر الاسرائيليات وهو الذى قام به بعض اليهود الذين أسلموا ، ككعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، كما يقول المستشرق الألمانى (جولد تسهر) وقد ذكر ابن الأثير أن ابن ورقاء فى حوادث سنة ٧٧ سار فى أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ، ولما لم ير القصاص التفت وقال : أين القصاص فلم يجبه أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد .

وقد شاعت ألوان أخرى من القصص فى الادب العربى ، كمقامات الحريرى والهمذانى ، ولكن هذه المقامات كانت تعنى فى الغالب باظهار البراعة فى الأسلوب ، والسجع فى التعبير ، وتلجأ الى التزويق اللفظى والتنميق اللغوى .

ولقد نهضت القصة فى الأدب العربى فى العصر الحديث وتخلصت من هذه المظاهر وتنوعت وتعددت ، فألفت القصة التاريخية ، وألفت القصة الواقعية والقصة الخيالية ، وألفت المسرحية . وقد لقيت القصة المصرية على يد الدكتور طه حسين وتيمور وتوفيق الحكيم خيرا كثيرا وتقدما كبيرا . وأوشكت أن تطغى على الشعر طغيانا عظيما ، وحذت حذو القصة الأوربية فى مناهجها وطرائقها وطرق عرضها ، ولا عجب فى هذا ، فالقصة فى الآداب الأوربية الحديثة أهم أنواع النثر الانشائى وأكثرها ذيوعا ، وقد شاعت على أيدى سكوت وثاكرى وديكنز وهاردى فى الأدب الانجليزى ، وبلزاك وأميل زولا وأناتول فرانس وموبسان فى الادب الفرنسى .

وقد تعددت أنواع القصة ، فهناك الاقصوصة ويسميها الفرنسيون anecdote وهناك القصة القصيرة ويسميها الفرنسيون Conte والرواية ويسميها الفرنسيون Novelle

وقد قال سارتر فى احدى مقدمات كتبه : « اننا يمكن أن نقول – ببعض التحفظ – ان القصص الجميلة تصبح مشابهة تماما للظواهر الطبيعية ، فننسى أنها من تأليف مؤلف ونعتبرها كصخرة من الصخور أو شجرة من الاشجار ولهذا السبب فانها تعيش » .

ونحن اذا ما استعرنا تعبير سارتر وجدنا كثيرا من القصص والروايات الخالدة بين ظهرانينا خلود هذه الصخرة الشماء التى لا تدركها يد البلى ، أو هذه الدوحة الفارهة التى لم تصل اليها يد الفناء . وانى لأذكر أن مستر د.س.سافج Savage قد كتب منذ عهد قريب كتابا عن القصة الحديثة عنوانه : « دراسات ست فى القصة العصرية » وقد تحدث فيه عن القصة عند ارنست همنج ، وفورستر ، وفرجينا وولفى ، ومارجياد ايفانز ، والدس هكسلى ، وجيمس جويس، ولكن سافج قبل أن يبدأ حديثه عن هؤلاء القصاصين تساءل : ما الفكرة؟ واستطرد قائلا : ما القصة ؟ بل ما الفن ؟

وهكذا كان سافج مثله كمثل الذى يقف على المسرح قبل أن يرفع الستار ليقول دعونا ننسى هل تعجب هذه المسرحية أو لاتعجب؟ ودعونا نعرف أولا لماذا جئتم الى هنا ؟ !

والواقع أن سافج Savage قد اضطر الى ذلك اضطرارا ، فهو يعتقد أن للفن تأثيرا شديدا واعتمادا كبيرا على الحياة وعلى التجربة الانسانية ، فالعمل الأدبى يحمل بين ثناياه تصحيحا وتوازنا بين الشخصيات الذاتية والموضوعية وبين الكلى والجزئى ، والذاتية تلتقى دائما مع الموضوعية ، فنجم عن ذلك عنصر جديد هو عنصر الصدق التام فى الأداء .

ويضيف مستر سافج الى هذا قوله : ان القصاص يقدم الحياة كفن من الفنون كما أن الفنان يقدم الفن كفكرة من الفكر ، راسما معانيها الخفية ، متتبعا اياها حتى الظهور .

أما فورستر Forster فيقول عن « سافج » انه من الطائفة الثانية من الكتاب والطائفة الأولى عنده هم هؤلاء الكتاب الذين يستمدون مؤلفاتهم من واقع الحياة ، أما الطائفة « الثانية » عنده فهم هؤلاء الذين يتخذون قصصهم من صراع داخلى فى النفوس .

وسافج Savage يعتبر « فرجينيا وولف » قصاصة من نوع غريب ، فهى لا تقسم الحياة الا كتقسيم دقات الساعة فقصة « مسز دالاوى » مثلا قصة رمزية رائعة تصور تاريخ بيت على شاطىء البحر ، وأحلام طفل فى سبيل الوصول الى المنار الذى يتألق نوره فى وسط البحر ، وتاريخ حياة رجل يصل الى هذه الحقيقة عندما يترك مرحلة الطفولة والشباب فاذا هى حقيقة سقيمة عقيمة .

أما جيمس جويس James Joyce ففى روايته يوليس قد برع فى تحليل الاحساسات المكبوتة والرغبات المكتومة وقصة يوليس عبارة عن تاريخ يوم من أيام مستر بلوم والناس الذين يتنزهون فى

المدينة فى ذلك اليوم ، وقد عدتها مسز « فرجينيا وولف » فضيحة هائلة وجريمة منكرة ، وذلك لأنها تنتهى بليلة فاجرة .

وقد ظهرت الرواية التاريخية عند موريس هيوليت Hewlett فى كتابه عشاق الغابة كما ظهرت عند ستانلى ويمان Stanley weyman فى قصته (بيت الذئب) ، وقد حاول ستانلى هذا منافسة الكسندر ديماس الكبير ، فكتب تاريخ فرنسا فى شكل روايات .

وقد ظهرت القصة النفسية على أيدى كتاب كثيرين ، أهمهم د. هـ . لورنس D.H. Laurence الذى تتلمذ على يد سيجموند فرويد وموريس بارنج Baring صاحب القصص النفسية الكثيرة .

أما القصة الاجتماعية ، فقد ظهرت عند اسرائيل زانجويل Zangwill الذى وصف حياة اليهود فى كثير من قصصه ، وجولزورثى Galsworthy ، والكاتبة الامريكية هاريت ستو Harriet Stewe التى وصفت حياة الرقيق فى كثير من قصصها ، كقصة (كوخ عم توم) .

وليس من شك فى أن القصة ـ سواء كانت تاريخية أم نفسية أم اجتماعية ـ تحتاج الى فن فى تأليفها ، والى قواعد فى تنظيمها ، فينبغى أن تكون للقصة وحدة متينة يحاول الكاتب دائما أن يبرزها فى اطار واضح مبين ، وينبغى له أن يخضع أسلوبه لموضوعه لا موضوعه لأسلوبه ، كما ينبغى له أن يحسن رسم الشخصيات، ويحلل مشاعرها ، ويحكم أقوالها وأفعالها ، فلا يصدر عمله الا عن صدق ، ولا يبنى كلامه الا على معنى ولا ترسم شخصياته الا عن فكرة ، كما أن الكاتب القصصى ينبغى أن يعتنى بأساوب قصته ولغتها وألا ينقلب الى واعظ يعظ الناس ، بل يتخذ من الوسائل فى عرضه ومعالجته ما يجعل الآذان مصغية اليه ، والأسماع مشوقة الى شخصياته . وأن يفرق بين القصة والأقصوصة وبين الحكاية والرواية .

وتتردد القصة بين القصر والطول على حد تعبير شارلتون ، فالقصر لأنها تصور أفعالا مقصودة ، وقد تقف منها وقفة طويلة محللة مفصلة ، وليس فيها قصر الرواية المسرحية مثلا فى التصوير ، فالكاتب المسرحى يكتفى بالاشارة ، فاذا صور وليمة مثلا كوليمة شكسبير فى ماكبث ، أو حفلة عشاء أو سمر كما فعل اليوت فى حفلة كوكتيل فى مستهل الرواية اكتفى بالمنظر دون مقدماته وباعثه . أما الكاتب المسرحى فانه يمهد لهذه الحفلات بأسلوبه ولا ينزع الأفعال ليجسمها تجسيما على المسرح كما يفعل الكاتب المسرحى .

ويقسم بعض نقاد الأدب القصة قسمين : القسم الأول الخيالى كقصص رحلات جوليفر وربنسن كروزو وغيرهما ، والقسم الواقعى. ومن القصص الواقعية قصة بلزاك « جلد الاحزان La peau de chagrire وهى قصة رجل يملك جلد احزان وقد جمع قوة سحرية عجيبة تمكنه من تحقيق رغائبه ، ولكن الجلد أخذ يتقلص الى

أن استنفد الرجل جميع رغباته فاســـتنفد حيـــاته ، ورواية كندية لفولتير أقصوصة فلسفية تسخر من التفاؤل والمتفائلين ومن الفيلسوف الالمانى ليبتز الذى يقول : اننى على خير حال فى خير عالم ممكن ، وهى قصة رجل طيب ساذج يدور مع أستاذه بنجيليوس ، فيلاقى مايلاقى من محن وقرصنة وعذاب .

وقد صور جوستاف فلوبير فى قصته « ســلامب » الحرب التى كانت بين قرطاجنة وروما . ويعد اميل زولا زعيم الروائيين الطبيعيين فى فرنسا ، وقد ظهر المذهب الواقعى فى منتصف القرن التاسع عشر فى لوحات ميليه وكورييه وروايات فلوبير والفونس دوديه .

أما المذهب الطبيعى فزعيمه موباســـان وزولا اللذان كانا يريان تطبيق مبادىء العلم ومناهجه التى بسطها كلود برنار فى كتابه الشهير « مقدمة لعلم الطب التجريبى على الأدب والقصة » .

لغتنا أمنا الكبرى

ووسيلتنا الى نهضة الشرق

ان اللغة العربية هى أمنا الكبرى فى شتى الاقطار والامصـــار ، ويجب أن نصونها ونرعاها ونحرص عليها لا ان نجعلها عرضة لتيارات مختلفة توهن من قوتها وتفت فى عضدها ، لانها لغة القرآن الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولانهـــا لغة التراث الادبى الرصين الذى انحدر الينا منذ أبعد الحقب وغـــابر الازمان ٠

فهناك ظاهرة واضحة تسيطر على الادب فى هذه الفترة ، وهى انسياق الكتاب نحو الاسلوب العامى وايثارهم للهجة المحلية فى حوار القـصص والمسرحية بحجة الدفاع عن لغة الشعب ، والواقع أن هذا ليس من الحق فى شىء فليس الادب الشعبى هو المكتوب بلغة العامة انما الادب الشعبى هو الذى يستلهمه الفنان من روح الشعب ومن مختلف بيئاته فيعبر به عن مشاعر هذه الامواج المتدفقة من الناس فى خضم الحياة ، وان هـــذا الادب الشعبى ليمثل الجانب الاكبر من الادب الحى الخالد فى كل أمة من الامم وفى كل عصر من العصور ٠

ومما لاشك فيه ان استخدام اللغات العامية يضعف من العرى والوشائج بين البلاد العربية لاننا عندئذ سنكون حيال سيل متلاطم من الالفاظ والعبارات والاساليب المحلية التى هى كالعملات الخاصة لاتصرف الا فى مواطنها ولا تستطيع أن تحيا فى غيرها من الامم والبلاد ٠

فمن الالفاظ التى تستخدم فى أساليبنا العربية كلمة يصفق فهى تستعمل فى اللهجة المصرية على نحو « سأف » وهى كلمة متحولة اجتمع فيها القلب والابدال ، وفى سورية يقولون (يسفأ) بقلب القاف همزة ، وفى العراق يقولون « يصفق » بنطق القاف كافا فارسية ومثل ذلك فى كلمة « أول » التى تلفظ بفتح الواو فى العراق على حين تقال فى اللهجة المصرية أول بكسر الواو ، وكذلك الحال فى كلمة اضرب فتلفظ فى بعض البلاد العربية بكسر الراء ، أما فى اللهجة المصرية فيقولون « اضرب »بفتح الراء مع قلب الضاد دالا ٠

وغير خاف أن الاختلاف فى النطق فضلا عن الاختلاف فى التركيب فى كثير من الألفاظ والاساليب يقودنا الى الغموض ، ويحيل العبارة العربية الى لون من الطلاسم مما يبعث التفكك بين الامم العربية ويثـــير الاضطراب بين شعوبها ٠

ان لغتنا العربية لغة ممتازة فيجب أن نحرص عليها ونصونها ونرعى تاريخها الحافل المجيد حتى نقوم بتوثيق الروابط بين البلاد العربية : ومما يروى فى هذا الصدد أن القائد الالمانى بسمارك قال ذات يوم « ان أهم حقيقة يجب أن نسجلها فى القرن التاسع عشر هى قيام الوحدة اللغوية بين بريطانيا وأمريكا » وقد سار بسمارك على هذا النهج فى توحيد الولايات الالمانية .

كما خطب تشرشل فى أمريكا ذات يوم وقال فى جموع الامريكيين فى واشنطن « يجب أن نعمل فى القرن العشرين على تحقيق ماقاله بسمارك فى القرن التاسع عشر » .

وان من يرجع الى تاريخ اللغة العربية يجد أن لغتنا هى أم اللغات ، وقد اشتقت منها لغات كثيرة ألفاظا عدة . وقد تمكن الاب العلامة أنتسانس مارى الكرملى الى الوصل الى كثير من الحقائق عن هذه اللغة بعد كثير من أعمال الروية والبحث والتنقيب فكلمة Habere وبالفرنسية Avoir وبالانجليزية to have من أصل عربى هوحوى .

ويقول الاب أنستانس الكرملى : « أما كيف اهتديت الى أصلها العبرانى فكان نتيجة عملى هذا وهو أنى حذفت من آخر Habeie الحرفين الاخيرين ie الدالين على كأسعة Suffix تكسع بها أواخر أفعالهم فبقى منها Habe ولما كانت الواو العربية فى القديم تصور بالباء ولم يكن لهم هاء بل يصرف منها الهاء أى H برز لنا فعل «حوى» وهو معنى الفعل اللاتينى ، ومن هذا الاصل أخذت الانجليزية To have والفرنسية Avoire وغيرهما من الكلم التى تعد بالعشرات بل بالمئات وهذا الفعل كما تعلم أساس مركبات أفعال كثيرة فى الالسنة الغربية الأوربية .

والفعل الثانى يكثر فى ألسنتهم Esse وبالفرنسية Etre وباليونانية الدورية والايولية Essi أى (أنت موجود) فانظر كيف تنتقل اللفظة من حالة الى حالة ومن لغة الى لغة والاصل واحد وهو العربى « أيس » فاذا لفظتها بحركتها كانت لاتينيه أو كاللاتينية أى Esse نعم ان كلمة أيس لا وجود لها فى لغتنا الحالية لكنها كانت فى سابق العهد ، وقد انتبه لها علماؤنا اللغويون الاقدمون قال فى تاج العروس : « ليس .. أصلها لأيس طرحت الهمزة والتقت اللام « بالياء » وهو قول الخليل والفراء والدليل على ذلك قولهم أى العرب : ائتنى به من حيث أيس وليس أى من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم : جيء به من أيس وليس أى من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم جيء به من أيس وليس أو معناه من حيث وجد أو أيس أى موجود ولا أيس أى لا موجودا فخفوا .

وفاكهة «الموز » عرفها العرب فى الأندلس فأطلقوا عليها اسم البنان أى الاصبع ، فأطلق عليها هذا الاسم فى كل اللغات الاوربية Banane

وقد أخذت بعض اللغات الشرقية من العربية جملة من الالفاظ بيد انها لم تستطع النطق بالحروف العربية التى ليست فى لهجاتها ،

فالفرس لم ينطقوا بهذه الحروف « ث.ح.ص.ض.ظ.ع.ق » وكذلك المتعلمون باللغة الاردية ، والترك نطقوا من هذه الحروف بالقاف لانها فى لغتهم وتركوا الحروف الاخرى وحذفوا فى بعض الاحيان ، أداة التعريف من الكلمات العربية الا فى كلمات قليلة وجعلوا هاء التأنيث تاء : زحمت وعصمت وفطرت ، وانحرفت بعض الالفاظ العربية عن معناها فى اللغة العربية كما قيل فى الفارسية صحبت بمعنى محادثة وزحمت بمعنى مشقة وقيل فى التركية معصوم بمعنى برىء ومحجوب بمعنى خجل .

ولكن اللغة العربية فى أثناء ذلك كله كانت الاساس الاول فى أصول هذه الالفاظ والتى أنجب عنها الابناء .

والمستفاد من هذه الشواهد ان اللغة العربية أثرت فى كثير من اللغات . فلها ظل ممتد أصيل ومجد أثيل يجب أن نحرص عليه ونصونه فى أعيننا وقلوبنا .

ومن ميزات اللغة العربية التى تمتاز بها على غيرها من اللغات عنايتها بالاعراب ، اذ تتغير أواخر كلماتها بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون ، ولا يشاركها فى هذه الميزة الا اللغة الالمانية والحبشية ، وكل هذه اللغات امتازت شعوبها بمدنية عظيمة منذ فجر التاريخ . وليس من شك فى أن الاعراب يساعد على تفهم المعنى والتخير بين الاساليب .

كما تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بألفاظها وتراكيبها . ولكل معنى لفظ خاص وهناك ألفاظ لتأدية فروع المعانى أو جزئياتها. فلكل ساعة من ساعات النهار اسم خاص : فالساعة الاولى الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم العصر ثم الاصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ، ويقال فيها أيضا البكور ثم الشروق فالاشراق فالرأد ، فالضحى ، فالمتوع ، فالهاجرة ، فالاصيل ، فالعصر ، فالطفل والحدود فالغروب .

وكذلك فى اللغة العربية تفرعات للافعال كتفرع فعل النظر الى رمق ولمح ، وحدج ، وتوضح ، ورنا ، واستكف ، واستشف .

ويحكى فى معرض ثراء اللغة العربية ان الاصمعى حضر يوما مجلس الفضل بن الربيع وجرى الحديث حول الفرس ، فتذاكر الجلوس كتاب أبى عبيدة فى الخيل ، فأراد الوزير ان يعلم ما عند الاصمعى فى ذلك فقال له قم يا أصمعى وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمه فاذا سميتها فخذه » فقام وأمسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضوا عضوا وينشد ما قالت العرب فيه الى أن فرغ منه فأعطاه اياه .

كما تمتاز لغتنا العربية بالاعجاز والايجاز ، ولكل قوم اعجاز فى لغتهم ، فيدلون بلفظ قليل على معنى كثير ، ولكن العرب أقدر على ذلك من سواهم لان لغتهم تساعدهم عليه كما تمتاز اللغة العربية بالتفوق فى المترادفات والاضداد ففى لغتهم لله ١٢٤ اسما ، وللنور ٢١ اسما ، وللظلام ٥٢ اسما ، وللمشمس ١٢٩ اسما ، وللسحاب ٥٠

أسما ، وللماء ١٧٠ أسما ، وفيها مئات من الالفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين مثل قولهم « قعد » للقيام والجلوس « ونضج » للعطش والرى . ونحو ذلك .

كما ان بها كثيرا من الالفاظ يدل اللفظ الواحد منها على معان كثيرة فضلا عن أن كثرة المترادفات فى اللغة وتعداد المعانى للفظ الواحد جعلتها واسعه التعبير وسهلت على أصحابها السجع الذى عرفته العربية منذ أغوار العصر الجاهلى فى سجع الكهان وحطب الخطباء

وكذلك تمتاز اللغة العربية بحلاوة الايقاع ، وجمال النغم بين الالفاظ . ورصانة الجرس ، وهذه الظاهرة تتجلى بوضوح فى أشعار الحماسة ، وأشعار الغزل ، اذ تمتاز بعض أشعار الحماسة بانتقاء الالفاظ المجلجلة والمدوية التى تهب كأنها العاصفة الهوجاء كما تمتاز بعض أشعار الغزل بالرقة والتناغم الموسيقى الجميل . ومثال الاول بعض شعر أبى تمام والمنتنبى ومثال الآخر بعض شعر البحترى وبشار .

هذه هى لغتنا مناط آمالنا ولسان حالنا تلقى على عاتقنا مسئوليات كبيرة وتبعات جساما ، وليس من الانصاف فى شىء أن ندعى مانجده من اختلاف فى اللهجات صراعا بين الاصول والفروع انما هو فى حقيقة الامر انحراف وشذوذ نستطيع اصلاحه وكبح جماحه اذا ما آمنا بقضيتنا واخلصنا فى مسعانا ، وحرصنا على التمسك بهذه اللغة .

واننا لا نبالغ اذا قلنا ان الكويتى ربما لا يفهم المصرى فى بعض عباراته كما ان المغربى ربما لا يفهم اللبنانى اوالسورى ونحو ذلك بل ربما كان الصعيدى المصرى لا يفهم لهجة الفلاح فى الدلتا فى الوجه البحرى من الاقليم المصرى وهلم جرا .

ولكننا نستطيع برغم كل هذا أن نمحو هذه الفوارق اذا ما آمن الناس بقيمة هذه اللغه وشعروا بوجودها فى حياتهم الخاصة والعامه فيما ينشر لهم من كتب أو صحف وفيما يذاع عليهم من تمثيليات وبرامج اذاعيه فى الاذاعه والتليفزيون وفيما يدور بينهم من نقاش فى الندوات والمحاضرات والاجتماعات على اختلاف صورها وتعدد الوانها. وحينئذ نخلق وعيا عاما نحو اللغة العربية ووجوب التمسك بها .

كما يجب من جانبنا مضاعفة الاهتمام بالعربية فى دور التعليم وتهذيب كتب النحو واللغة لأن ذلك ينمى ملكة الطالب فى اللغة ويغنيه ما أمكن عن التراكيب العامية ويمنع اللهجة الاعجمية أن تستحكم فى خاطره ، وتقوى على لسانه ، وتمهد له طريق الانشاء ، فلا يشعر كانه يكتب بلغة غير لغته ولقوم غير قومه ، كما يجب اصلاح طريقة الانشاء بترك الوحشى من الألفاظ والغريب من التراكيب والمعقد من الأساليب واختيار المفردات والجمل التى يمكن العامى فهمها مع فصاحتها .

ولابد من ان يبذل المسئولون فى المجامع اللغوية جهودهم من أجل مسايرة اللغة العربية لتطوارت العلم الحديث ، حتى لا نعيش فى عزلة عن المجتمع دون ان تدون خصائصه ولا يسجل فى صحائفها اسماء

الانقلابات الاجتماعية الخطيرة المحيطة بها والتطورات العلمية الجديدة التى تلتف حولنا من كل جانب كالتفتت الذرى والاشعة الكونية وذرات المادة والكهربا والضوء ونحو ذلك ، اذ أن هذه الجهود سوف تضيف الى عمر اللغة العربية أعمارا جديدة ولا تمكن المتطرفين من خنق هذه اللغة ومن خنق لغته فقد خنق نفسه وكتم أنفاسه وفقد حواسه !

وما اصدق ما قاله بلا كمار العالم الاجتماعى الشهير : « لقد ادت اللغة دائما وظيفة مهمة فى التنظيم الاجتماعى ، فقد تولدت بها من حيث انها أداة التفاهم ، الجماعات الصغرى واعتزت ، وكذلك اتحدت جماعات أخرى ، وتتجاذب الشعوب ذات اللغات المتشابهة ، أما الشعوب ذات اللغات المتباينة ففيها ميل الى التنافر ، والصعوبة فى اقرار النظام الاجتماعى بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة صعوبة كبيرة جدا حتى انها تلاحظ اليوم فى المدن الامريكية ومافيها من أهلين غير متجانسين .

ومع أن اللغة فى مثل هذه الاحوال تدعو الى الانقسام كانت فى الاصل مدعاة الى الوئام ، واللغة هى وليدة السعى للافصاح عما يخالج النفس من الافكار ، وكل من ينقب منا عن المجتمع البشرى يجد فى فعل اللغة وفى رد فعلها سببا من الاسباب الداعية الى حدوثه ونتيجة من النتائج المتولدة عنه » .

وهكذا كانت اللغة دعامة قوية من دعامات المجتمع الصالح على انها رمز المجتمع والى نورها الهادى المتألق تعشو الاقوام الهائمة فى الظلام .

فلنجعل لغتنا العربية نبراسنا الهادى ونعمل على رد عادية المعتدين على لغتنا فانها مهددة بالهجوم كما هددت اشرف بقاعنا ، فان الحرم الذى لا تحميه القوة بابه مفتوح للغارة الشعواء ولينصرن الله من ينصره .

الأدب العربى أدب عالمى

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأهرام انه قد ظهر فى بريطانيا أخيرا كتاب جديد بعنوان « الشعر العربى الحديث » وهو مجموعة من الأشعار العربية المترجمة الى الانجليزية وضعها الدكتور اريرى أستاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج ومدرسة لندن للدراسات الشرقية والافريقية .

وأحب بهذه المناسبة أن أذكر أن الادب العربى فيه من الذخائر القديمة والحديثة مالو ترجمت الى الآداب الأجنبية لكانت أدبا عالميا راقيا بأدق معانى هذه الكلمة وسأحاول فى هذا الفصل أن أشير الى طرف من هذه الذخائر التى سبق أن أشاد بها كثير من المستشرقين كمرجليوث وكارليل وكوزان دى برسفال وبردكلمان ونلينو وجولد زيهر وماسينيون وغيرهم وأذكر أن المستشرق الانجليزى نيكلسون قد استهوته هذه الفكرة استهواء شديدا فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » The literary history of the Arabs كما أن المستشرق ف.ى جونسون F. E. Johnson قد ترجم المعلقات السبع الى الانجليزية فى كتاب أطلق عليه القصائد السبع The Seven poems وعدها من عيون الادب العالمى .

وليس من شك فى أن دكتور جونسون قد أصاب الحقيقة فى ذلك، فهنالك بعض الخطرات الفلسفية والتأملات الروحية فى الشعر الجاهلى عند زهير وطرفه تعد من روائع الادب العالمى حتى اليوم .

وقد عد الأستاذ نلينو بعض الآثار الأدبية العربية العالمية وكانت منها رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، بل ان الدكتور جورج دلافيد أستاذ الادب العربى بجامعة بنسلفانيا ذكر أن « أبا العلاء وهو شاعر أعمى مثل ملتون وهوميروس يرى فيه العقل العربى ثمرة ما بلغته المدنية الاسلامية فى ذروتها من النضج العقلى العظيم والنبوغ الهائل . وقد تكون رسالته من مصادر دانتى فى الكوميديا الالهية ، ولكنه يقف ولا شك فى صف واحد مع أسمى ما أنجبته البلدان والاديان جميعا، فهو رجل عربى فى نشأته ، ولكنه رجل عالمى لأنه النموذج للنهضة الجديدة للحضارة العربية » .

ويمكن أن نعتبر بعض شعر المتنبى عالميا بأدق معانى هذه الكلمة ، فهو يلجأ الى التجربة الشعورية العامة Universal experience ويسوق كثيرا من الحكم فى الحياة والاحياء ، وهذا النوع من التجارب الشعورية يعد أرقى أنواع التجارب الانسانية فى الشعر عند كثير من النقاد الاوروبيين كستار ، ولاسل ابروكرومبى فى كتابه : الشعر موسيقاه ومعناه Poetry, its music and meaning

واذا ما صح ما قاله وليم وردزورث من أن الطبيعة تجسيم الروح القدس فاننا نجد عند أبى تمام كثيرا من الصور المجسمة والمعانى الحرة التى يطلق عليها الأوربيون التشخيص Personification

واذا كان للطبيعة شعر يتشمل فى حركة الموج ورجرجة الموج وأريج الزهر على حد تعبير الناقد الانجليزى وليم هازليت فقد صور ابن الرومى كثيرا من صور الطبيعة التى تعد من أروع الصور العالمية .

واذا كان الشـــعر تصويرا للحيـاة والواقع كما يقول كلاى Clay فى كتابه الناقد الانجليزى فاننا نجد فى الشعر العربى اشعارا تصور الواقع وتصور الحياة لا تعبأ بالتحقيق اللفظى والتزويق اللغوى ، بل تحوى المعانى السامية انتى لا تخدم بالتقعير فى الالفاظ التى تشـبه الاشخاص المتعبين على تعبير والتر راليه Walter Raleigh

ونحن اذا ما انتقلنا من ميدان الادب البحت الى التاريخ وهو فرع من فروعه وجدنا بعض الكتب العالمية كتاريخ ابن هشام وابن الاثير والطبرى والجبرتى ، أو الى الجغرافيا وجدنا مترجمات عالميـة عن مختصر ابن خرداذبة وقدامة وجزء من الخوارزمى والمقدسى والبستانى، وقد نشر بعض هذه الكتب دىجويه ونللينو ومزيك. وقد نشر البيرونى فصلا عن طرق التحقيق الجغرافى فى نسخة فى مكتبة « جامع محمـد الفاتح » باستنبول رقم ٣٣٨٦ وتعد من التحقيقات العالمية .

واذا انتقلنا الى الفلسفة اعتبرنا الفارابى وابن سينا والكندى والنظام من مشاهير الفلاسفة فى العالم الذين اتخذ بعضهم أسماء أجنبية فى المراجع الأوربية .

وقد قال اسكندر فون هومبلد : ان العرب قد نشروا مع دينهم لغتهم المثقلة بتراث خالد من الشعر لم تبل جدته ولم تتزعزع أصوله وقال هـ . ج ويلز H. G. Wells : ان العلوم والآداب الحقيقية لم تدخل أوربا الا عن طريق العرب وقال ليبرى Libri صان العرب نهضة الآداب فى أوربا مدة طويلة .

ونحن اذا ما انتقلنا الى أدبنا الحديث وجدنا بعض الآثار الأدبية للدكتور طه حسين ومحمود تيمور والأستاذين الصاوى وتوفيق الحكيم قد ترجمت الى الآداب الأجنبية واعتبرت آدابا عالمية بأدق معانى هذه الكلمة، وقد صرح نفيل بارير فى مجلة «الثقافة الاسلامية Islmic Culture بهذا الرأى من قبل ، وأكبر الظن أن كثيرا من النقاد العرب والغربيين يشاركوننا فى هذا الرأى الى حد بعيد .

المذهب الرومانسى

فى الشعر العربى

كلمة الرومانسية من الكلمات التى أتت لنا مع الفكر الغربى ، ولقد طغى المذهب الرومانسى على الأدب فى فرنسا وانجلترا فترة طويلة من الزمان وصبغ الآداب الأوربية بصبغة خاصة ، ويمكن أن نجد خصائص هذا المذهب فى الأدب العربى وان لم يتخذ اسم المذهب الرومانسى .

والواقع أن كلمة الرومانسية قد اشتقت من أصل لاتينى ، ولم توجد على حالها المعروفة الا منذ القرن التاسع عشر ، وقد تغاير معناها عند فرلين وتوماس سبرات وتنسون وجيته وستندال ولويس برتران، فيقول بعضهم :

ان الرومانسية بعد عن الواقع وتحليق فى أجواء الخيال وانقياد للمشاعر الخفاقة والأحاسيس الوثابة وتنقل بين الأقطار وحب للأسفار وترنم بالاشعار .

ويقول بعضهم : ان الرومانسية هى الأدب المكتوب باللغة الدارجة أو الكلام الذى يطلق العنان للخيال أو الطراز القوطى للشعر ، وقد جاء فى قاموس اكسفورد أن الرومانسية تطلق على ثلاثة أشـــياء الفكرة الخياليه والميل الى الخيال والتزام المذهب الرومانسى فى الشعر ويطلق عليه الفرنسيون « مرض القرن » والانجليز « الملانكولى » .

ونحن اذا ماتصفحنا تاريخ الشعر العربى صادفنا كثيرا من الشعراء ذوى النزعة الرومانسية بمعنى العكوف على النفس والتعبير عن العواطف الذاتية باسراف واخلاص ، وعندى أن قيس ليلى وقيس لبنى وجميل بثينة كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ، ولكنها كانت اباحية لا تلتمس العشق فى السماء ولا بين الخيال ، وانما تلتمسه من الحوادث اليومية والمحادثات الشخصية التى ربما لا يسمح المجال بذكرها .

وان شعراء الأندلس كابن زيدون وابن خفاجه وابن سهل كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ثالثة فى الرجوع الى الطبيعة والعودة اليها والتغنى بها والترنم بمجاليها ورياضها وأنهارها .

وهذه المدارس الرومانتيكية فى الادب العربى تناظر المدرســـة الرومانتيكية الفرنسية التى كان من أعلامها الفرد دى موسيه ولامارتين وفيكتور هيجو والانجليزية التى كان من أعلامها بيرون وشللى ووردس ورث وسندى وكويلروج بل كان من أعلامها الاوائل شكسبير الذى وضع أسس الرومانتيكية فى مقطوعاته أو سونياته . Sonnets

بل ان فكرة الملانكولى او الحزن التى كانت مسيطرة على شعر بعض الشعراء الانجليز كبيرون وشللى والفرنسيين كموسيه وهيجو قد ظهرت عند جميل بثينة فى بعض أشعاره حتى يمكن أن نقتبس من شعره بعض مقطوعات نضعها تحت عنوان يتخذه كثير من النقاد الغربيين فى رواية الشعر وهو « الحب والموت » love and death وأن من يقرأ قصيدة موسية حزن Tristesse أو لامارتين « لم روحى حزينة ؟ » . Pourquoi mon ame est triste

يلمح فيها النزعة الحزينة التى كانت تتمثل فى كثير من شعر قيس ابن الملوح وقيس بن ذريح وعباس بن الاحنف .

ولقد استعملها عمر بن أبى ربيعة فى شعره القصصى الطريف وصور ماحدث بينه وبين صواحبه على حين أن هذه السمة قد تبلورت عند بيرون فى صورة أخرى : فملاحم بيرون فضلا عن قصائده وترانيمه مستقاة من حياته ، وأفكاره ماكانت تستطيع أن تستقر فى عقله على حد تعبيره هو ، وكذلك عمر بن أبى ربيعة لاتستطيع افكاره أن تستقر فى عقله فيعبر عمر بطريق مباشر ويعبر بيرون بطريق غير مباشر كعروس أبيدوس وقصيدة الكافر والقرصان وزليخة وسليم تلك الملحمة التى تصور علاقته بأوجستا .

أما المدرسة الرومانتيكية الثالثة فى الشعر العربى فهى المدرسة الأندلسية التى نلمس فيها ناحية النزوع الى الطبيعة والتغنى بجمالها والمعيشة داخل الكل على حد تعبير الفيلسوف الألمانى جيته ومن زعماء هذه المدرسة ابن زيدون وابن خفاجة الذى كان كثير التأمل فى المشاهدات وكانت نظراته تقود عقله وترسم له أنواع الخيال وضروب البيان ، ويمكن أن نجد فى كل من الأدب الفرنسى كقصيدة موسيه « نجم المساء » l'étoile du Soir والادب الانجليزى كقصيدة شللى فى الليل ماينا ظرهما فى الادب الأندلسى على حين أن الادب الغربى أقدر فى الغوص الى الاعماق الانسانية .

كنوز بين المعرفة

فى آداب الشعوب الآسيوية والأفريقية

« العالم حولى يغمره السرور ويفعمه الحبور ، والعصافير تغنى فى نشوة وبهجة ومراح وهى تنطلق فى الجو عبر الفضاء لا يقف فى سبيلها حائل ، ولا يعترض طريقها عائق ، ولكننى سيئة الحظ عاثرة البخت بائسة المصير اننى رهينة محبس فى قفص من ذهب خائفة واجفة وسط أكداس الأرز يحرقنى الظمأ وينهكنى الصدى فى بحر العسل .. عمياء لا تدرك سبيلها فى رائعة النهار وجاوة الضحى ... أطلقوا سراحى ، فكوا اسارى ... اريد أن أطير مع الطيور ... »

شاعرة من الملايو

اتيح لى أن احضر حفلة افتتاح مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الافريقية ، واتيح لى أن استمع الى خطب الوفود المشتركة فى هذا المؤتمر وعلى رأسها خطبة السيد أنور السادات رئيس المؤتمر ورئيس الوفد المصرى ، قد سمعته يعلن على الملأ أن سياسة مصر يمثلها خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى بورسعيد حين دعا الى السلام وان هذا المؤتمر تكريم لروح باندونج وتذكير لمغزاها ودفعة أخرى الى الأمام ، وان شعوب آسيا وافريقية التى كانت ارضا مباحة أو غابة تعيش فيها الوحوش الكاسرة قد أصبحت قوة حرة عالية الجبين لها دور حاسم فى مستقبل الاسرة كلها ، وتمنى أن يستخلص من هذا المؤتمر الشعبى أقصى ما يمكن من النتائج الايجابية فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على السواء .

« آداب عظيمة »

وبهذه المناسبة أحب أن أقول : ان لهذه الشعوب الاسيوية الافريقية آدابا عظيمة وان هذه الآداب فى حاجة الى الدرس والبحث وفى حاجة الى الترجمة والنقل والتلخيص والتهذيب ، فأنا لا أعلم شيئا أدعى الى التقريب بين الشعوب مثل الآداب ، وأنا لا أومن بشىء يستطيع أن يأسر النفوس ويهذب القلوب ويصفى الأرواح كما تفعل الآداب ، ونحن اذا كنا جادين فى هذا المسعى مضحين من أجل الوصول الى هذه المطالب وهذا ما ليس فيه شك أو مراء ، فلابد من أن نحيط علما بهذه الآداب ونقيم التبادل الثقافى بيننا وبين هذه الشعوب على نطاق واسع لا يقف فى سبيل ذلك عائق أو حائل بأية حال وحينئذ يتحقق التقارب الذهنى بين العقول الذى هو أحد دعائم التقارب السياسى .

ولا يخفى على أحد أن عددا كبيرا من الشعوب الآسيوية والافريقية

اشتركت فى هذا المؤتمر حتى ان عـددها بلغ خمسـا واربعين دولة ، ولا يخفى على أحد كذلك أن لكل شعب من الشعوب التى اشتركت فى هذا المؤتمر تاريخا حافلا طويلا وآدابا حية باقية على الزمن وعلوما وبحوثا ، وأرى من واجبنا أن نزيح عنها الستار وننفض عنها الغبار لنجلوها للعيان حتى يفهم بعضنا بعضا ويحيط بعضنا بتاريخ البعض الاخر ويلم بكفاحه ووجوه نشاطه الفكرى .

« الأدب اليابانى »

ولأضرب مثلا بشعب اليابان وهو من الشعوب الآسـيوية التى اشتركت فى هذا المؤتمر فأقول : ان هنالك كثيرا من المؤرخين اليابانيين الذين فصلوا التاريخ اليابانى بصـورة عجيبة معجبـة مثل المؤرخ « متسوكونى » الذى كتب التاريخ الأكبر لليابان عام ٨٥١ ، فصور نظام العهد الاقطاعى ومظالم الفلاحين ضد اليابانيين ، وقل مثل ذلك عن المؤرخ « أراى هاكوسيكى » الذى كان له دور كبير فى تصوير الاحداث التاريخية الكبرى التى ألمت بشعب اليابان ، كما أن باليابان المسرحيات ، ولا ننسى « شيكاماتو » الذى يقرنه بعض النقاد الغربيين بالكاتب المسرحى وليم شكسبير فى غزارة موضوعاته وأساليب مسرحياته .

واليابانيون يهتمون كذلك بالشعر ولهم فى ذلك دواوين شتى فى شعر الحب والطبيعة والحرب والكفـاح وقد جمع الامبراطور « دايجو » مجموعة كبيرة من الاشعار حتى يحفظها من أيدى الفناء بلغ عددها ألفا ومائة قصيدة نظمت خلال القرن ونصف القرن الماضيين وأطلق عليها «كوكنشو» ومعناها قصائد قديمة وحديثة وساعد فى هذا العمل الضخم العظيم الشاعر « تسورايوكى » الذى قدم هذا الديوان بمقدمة ضافية عن الاشعار التى تضمه فهى أشعار تتناول نغمات الحب ومجالى الطبيعة وتتراءى فيها المشاعر النابضة والاحاسيس الجياشة والقلوب عندما تخفق ، والانفاس عندما تتصاعد ، والاناشيد عندما تمتاز بآدب عالية رفيعة منذ فجر التاريخ ، ونحن فى مسيس الحاجة الى معرفة القليل ان لم يكن الكثير عنها :

ففى ميدان القصة نجد قصة « هونج لوهن » أو حلم الفرقة الحمراء وهى فى أربعة وعشرين مجلدا ، ورواية « الممالك الثلاث » وهى فى ١٢٠٠ صفحة وكتبها الكاتب الصينى اللامع « لوجوان جونج » وصور فيها الحروب والدسائس التى أحاطت ببعض الاسرات الحاكمة فى الصين وغير ذلك من الأقاصيص القصيرة والمسرحيات

ومن أروع كتب التاريخ كتاب السـجل التاريخى الذى جمعه « زوفاتشيين » ويتناول بالتأريخ حقبة طويلة من الزمن تزيد على ثلاثة آلاف عام ، وهناك دواوين مختلفة لكثير من أعلام الشعر الصينى مثل الشاعر « لى تاى يو » والشاعر « روفو » ويقول « ويل ديورانت » نقلا عن « ارتز ويلى » من عادة الذين يكتبون فى الادب الصـينى أن يذكروا « تتناجى » وهى أشعار تمثل فضـلا عن ذلك جمـال الزهر

وأغاريد الطير وترانيم العندليب وقطرات الثلج عندما تتساقط على ثغور الازاهير فى الرياض وقطع الثلج عندما تغطى هامات الجبال كالقطن المندوف وهى أشعار تصور كذلك مراحل الكفاح ومدارج الجهاد وتصيح فيها الحرية وتثور الدماء من أجل الدفاع عن الوطن وسلامة أراضيه .

وذخر الادب اليابانى كذلك بألوان مختلفة متباينة من القصة والاقصوصة ، وأذكر أن الكاتبة اليابانية المعروفة « موراساكس » كتبت قصة طويلة من أروع القصص فى أربعة وخمسين جزءا أطلقت عليها قصة « جونجى » وهى من الآثار الأدبية الكبرى التى يعتز بها اليابانيون اعتزازا عظيما .

والصين وهى دولة مشتركة فى هذا ، ومن الانجليز من يقولون : ان « لى تاى يو » أشهر شعراء الصين، أما الصينيون أنفسهم فيقولون: ان « دوفو » هو حامل لواء الشعر الصينى .

وربما كان الأدب الهندى أقرب الآداب الآسيوية المعروفة لدى العرب وترجم الكثير منها فى العصر العباسى ، كما نقل ابن المقفع الكتاب الهندى المشهور « كليلة ودمنة » الذى أظن أنه لا يزال يدرس فى مدارسنا ويحفظ فى مكتباتها حتى اليوم .

وفى الادب الهندى كثير من القصائد والملاحم ، والقصص والمسرحيات مثل ملحمة « المهابهارتا » التى اعتبرها النقاد أعظم آية من آيات الجمال التى أنتجتها آسيا وقال عنها « اليوت » : انها قصيدة أعظم من الالياذة وقد كتبها مائة شاعر وترنم بها ألف منشد ، ولست أدعو الى ترجمة هذه القصيدة ، انما أقول : اننا لابد أن نلم بهذا التراث الهندى الكبير بعض الالمام ، لان الرجل العادى فى الهند يحفظ الكثير من أبيات هذه الملحمة .

والأدب الهندى على العموم حافل بالروحانية العميقة ونحن بدراستنا هذا الادب نغوص فى أعماق الروح ، ونقترب من سرها ونحس برهبتها ونجلو الكثير من أسرار الطبيعة ، ونعيش فى حضنها كما يعيش الاطفال الأبرياء فى حضن أمهم الرءوم وفى ذلك يقول الشاعر الانجليزى « ييرنز » فى معرض الحديث عن الشاعر الهندى « طاغور » : نحن نحارب ونجمع مالا ونملأ رءوسنا بالسياسات وكل ماهو كئيب فى فعله على حين أن مستر طاغور مثل المدينة الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس ومستسلم لذاتيتها .

« أدب الساحل الأسيوى »

وقل مثل ذلك عن أدب بورما وكمبوديا ، وساحل الذهب واندونيسيا ، وليبيريا ، وتايلاند ، وفيتنام ، والحبشة وغيرها من الدول الآسيوية والافريقية ، فلابد من اتخاذ خطوات عملية لتنمية التعاون الثقافى

والتعريف بآداب هذه الشعوب وتعليم لغاتها وتجديد العلاقات الثقافية القديمة وتنمية صلات جديدة فى نطاق العالم الحديث وبذل كل مرتخص وغال فى سبيل الوصول الى هذا الغرض ، ولا بأس من عمل ملخصات لآداب هذه الشعوب وترجمة ما يمكن ترجمته من النصوص وتقديم التسهيلات الفعالة للتزاور بين هذه الشعوب وتزويد الطلبة والراغبين فى عمل الابحاث بكل الوسائل المعينة على البحث والدراسة، وحينئذ يتحقق المجال الثقافى الذى دعا اليه مؤتمر باندونج وأيده بعد ذلك مؤتمر القاهرة الشعبى ، وأبرزه السيد أنور السادات فى خطبة الافتتاح بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة .

« كنوز من المعرفة »

ان فى آداب الشعوب الآسيوية الافريقية كنوزا زاخرة من المعرفة التى تجلو صدأ النفس ، وتصقل صفحات العقل سواء فى الشعر أو النثر ، وتحضرنى الآن قصيدة رائعة من الشعر من أدب الملايو وأضعها نموذجا لأدب هذه الشعوب الذى يهدف الى الحرية ويدعو الى السلام من انشاد شاعرة من الملايو :

« العالم حولى يغمره السرور ويفعمه الحبور ، والعصافير تغنى فى نشوة وبهجة ومراح ، وهى تنطلق فى الجو عبر الفضاء ، ولا يقف فى سبيلها حائل ولا يعترض طريقها عائق ، ولكننى سيئة الحظ عاثرة البخت بائسة المصير ، اننى رهينة محبس فى قفص من ذهب خائفة واجفة فى وسط أكداس الأرز .. ظمآى يحرقنى الظمأ وينهكنى الصدى فى بحر العسل .... عمياء لا تدرك سبيلها فى رائعة النهار وجلوة الضحى ، شقية بائسة يائسة بين صرح النهار وقصور الرفاهية والبهاء .... مفلولة اليدين بقيود حديدية ومصفدة بقيود قوية ... أطلقوا سراحى ... وفكوا اسارى بين هذه الأسوار ... أريد أن اطير مع الطيور ... وأحلق مع العصافير وهى حرة تذهب الى شاطىء السعادة ... »

أحلام البحيرة

بين الشرق والغرب

إنها أحلام البحيرة أو أشعار شعراء البحيرة ان شئت ... ولست أعنى بشعراء البحيرة هؤلاء الشعراء المعروفين فى تاريخ الأدب الانجليزى بشعراء البحيرة مثل كمبر لاند وكورد زورث الذى فتق آفاق المذهب الرومانسى لمن أتى بعده كلوردبيرون وجون كيتس وبيرس شللى وسير والتر سكوت وسوزى ذلك الشاعر الثائر الذى تأثر بالشرق وحضارة الشرق ، فجاءت بعض قصائده هائمة فى سحره متأثرة بآثاره ، بل انه قد تأثر بألف ليلة وليلة تأثرا قويا ظهر فى كثير من قصائده التى هى أشبه شىء بالخرافات والأساطير ، أو كلوردج ذلك الشاعر القلق الحائر وصاحب القصيدة المعروفة فى الادب الانجليزى « كوبلكان » والذى قال عنه بعض النقاد : ان قصائده أحلام ، وانه حين يكتب يحلم فهو يجوس بك بين دروب ملتوية مسحورة وقصور سحرية معمورة ، ويحوم بك فوق غابات ملتفة ليقابلك بكائنات رهيبة مخيفة .

لست أريد أن أكتب عن هؤلاء الشعراء الثلاثة المعروفين فى الادب الانجليزى بشعراء البحيرةالذين كانوا كثيرا ما يقفون أمام البحيرة يملئون أعينهم بضوء الشمس البازغة حينما يمتع الصباح بضوء الشفق الذهبى وحينما يوشك الليل أن يهبط على الدنيا يصوغون من ضوء الشمس ورفيف الماء وهدير الموج الحانا عذابا وترانيم شجية انما أعنى بشعراء البحيرة ثلاثة شعراء آخرين من بحيرات مختلفة ومن أجناس مختلفة : أحدهم انجليزى وهو ورد زورث ، والآخر فرنسى وهو لامارتين ، والثالث عربى وهو البحترى .

ولم تكن بحيرة البحترى سوى بركة المتوكل ، وقد كانت بركة جميلة مترفة تغنى بها الشعراء ، وترنمت حولها القيان وصدحت بين أرجائها النغمات .

وقد بدأ البحترى قصيدته بالميل على الديار والوقوف على الآثار كما كان يفعل الشعراء الجاهليون ، ولجأ الى هذه الطريقة الكلاسيكية أو هذا المذهب الكلاسيكى فى مستهل قصيدته فقال :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها ... نعم ونسألها عن بعض أهليها
يارقعة جاذبتها الريح بهجتها ... تبيت تنشرها طورا وتطويها
لازلت فى حلل للغيث ضافية ... ينيرها البرق أحيانا ويسديها

حتى اذا ما انتهى البحترى من هذه المقدمة الكلاسيكية ـ ان صح

هذا التعبير ـ لجأ الى الذكرى وتراءت حياله صور من الماضى وتمثل أمامه طيف الحبيب ، وسبح خيـــاله الذى قيل عنه فى الشعر العـــربى « خيال البحترى » :

قد أطرق الغـادة البيضاء مقتدرا ... على الشـــباب فتصبينى وأصـبيها
فى ليـلة ما ينال الصبح آخرها ... علقت بالراح أسقاها وأســقيها
عاطيتها غضـــة الأطراف مرهفة ... شربت من يدها خمرا ومن فيهـا

فلما انتهى البحترى فى أبيات مختصرة من ذكر الحبيب لجأ الى وصف البحيرة ، بل انه ربما مدحها كأنها شخص من الاشخاص ولجأ الى تفضيلها على غيرها :

ما بال دجلة كالغيرى تنافسهـــا ... فى الحسن طورا وأطوارا تباهيهـا

ويعد وصف البحترى للبحيرة من أرقى شـــعر الوصف فى الادب العربى ، فهو وصف فيه روعة وجمال ولكن قلما تهمس فيه الروح ..!

فلو تمر بهـــا بلقيس عن عرض ... قالت هى الصرح تمثيلا وتشبيهـا
تنصب فيهـــا وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضـة البيضـاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريهـا
اذا عدتها الصبا أبدت لهـا حبكا ... مثـل الجواشن مصقولا حواشيهـا
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحيـــانا يباكيهـــا
اذا النجـوم تراءت فى جوانبهـا ... ليلا حسبت سماء ركبت فيهـا

ويستمر البحترى فى وصفه ذلك الوصف الذى اشتهر به فى روعة وجمال وخيال ، فكان كما قال ابن رشيق فى كتاب العمدة عنه وعن أبى تمام : انهما كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها :

فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع بين التصنيع المحـــكم .

أما البحترى فكان أملح صنعة وأحسن مذهبـا فى الكلام ويسلك منه دماثة وسهولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ لا تظهر عليه كلفة أو مشقة .

أما ورد زورث فقد نظم كثيرا من القصائد والاغنيات «والبالاد» فى اقليم البحيرة .

وقد بدأ احدى قصائده قائلا :

لقد آذنت الشمس بالمغيب
وآوى طير الماء الى الاوكار
ونشرت الريح الهوجاء الشباك
وهجعت أنفاس النسيم
وظلت كل موجة تكافح الأخرى

وبقيت الموجة الآتية من الاعماق ٠

يالها من أسطورة تحكى
سرعان مايدركها الرقاد
وينحسر الماء من جراء المد والجزر
ويثور مرة ويهدأ مرة أخرى
ويجتمع النور والظل فى صبح جميل
رائع يوقظ الخيال ويبعث على الأحلام

ولكن شعر وردزورث فى اقليم البحيرة ليس حيا كالبحترى ، انما هو شاعر مثقف درس بعضا من الفلسفة وعرف شيئا عن الطبيعة وما بعد الطبيعة ، فقد كان فى ــ ابان دراسته ــ فى جامعة كامبردج، ولكن تفكيره فى الشعر كان يصرفه عن الدروس صرفا كما يقول كثير من النقاد ، فنرى فى قصيدته بعض اللمحات الروحية والتأملات الفلسفية مثلما يخاطب الطبيعة فى براءة فيقول :

ما البراءة ! أيتها الرحمة المقدسة !

وهكذا يأخذ وردزورث فى مخاطبة الطبيعة والتغنى بالخير والرحمة التى تتدفق من القلوب الناعمة الى أن يقول :

كل سكون يتعلل فى هذا الكون
وكل تبدل يتبدى على وجه السماء
فالعناية تتمثل ولكن لا تبدى رياء هو السرور
وخيرا ما هو السلام
فاما ترضى حكم العقل وعونه فى أباء
واما تعطى كل شىء فيه خمر وفناء !

وهكذا يتضح الفرق بين طبيعة الشاعرين البحترى وورد زورث : فقصيدة البحترى وشى جميل فيه موسيقى وفيه الحان حلوة الجرس رقيقة المعنى وفيها محسنات بديعية رقيقة ، أما قصيدة ورد زورث فلا تحرم هذه المميزات ، ولكنها أولا وقبل كل شىء تأملات روحية وذكريات حلوة تترى على ذهنه ليست مديحا أو ما يشبه المديح ، وليست روح وردزورث هذه تظهر فى هذه القصيدة فحسب ، انما تظهر فى أغلب شعره ولا سيما فى ديوانه « قصائد غنائية » .

أما لامارتين فقد نظم قصيدته فى بحيرة بورجيه حينما ذهب الى بحيرة اكس سنة ١٨١٧ ، وان من يقرأ هذه القطعة الرائعة من أدب لامارتين يتمثل قوله فى الشعر « انى أغنى يا أصدقائى كما يتغنى المرء ويغرد الطير ويصفر الهواء ويهدر الماء » ٠ « أهكذا قدر لنا دائما الاندفاع صوب شطئان جديدة فى هذا الليل الخالد دون أن نملك الرجوع فى خضم السنين المتلاطم الامواج الى يوم نلقى لديه المراس .. »

ويأخذ لامارتين يخاطب البحيرة فى أسلوب جميل يسيل رقة وعذوبة وتتضح سلاسته وسهولته ويذوب لوعة وشوقا :

« أنظرى أيتها البحيرة فالعام أوشك أن يفنى وأنا وحدى بجانب أمواجك الغزيرة اجثم على هاته الصخرة التى كنت ترينها جالسة عليها ! .

ويمضى لامارتين فى قصيدته مصورا ليلة قضاها مع صاحبته جوليا فوق صفحتها الرقراقة وأمواجها الدفاقة وأشجارها الطاعنة فى عنان السماء وأطيارها المترنمة بين الأجواء ، ويأخذ لامارتين يخاطب الزمن فى لهجة كبيرة ونبرات حسيرة : « أيها الزمن السارق ويأيتها الساعات العذاب . قفى جريانك وامنعى سريانك ودعينا نتمتع بذاتنا العاجلة وأجمل أيام حياتنا ... »

ويسرف لامارتين فى نظراته وتأملاته الميتافيزيقية ، فيأخذ فى مخاطبة الأبد والعدم والماضى بعد مخاطبة الزمن الحاقد الجاحد فيقول :

« حدثنى أيها الابد ! أيها العدم ! أيها الماضى !

ماذا تصنع بهاتيك الأيام التى تطويها !

أما تعطينا أوقاتنا الجميلة التى قيل عليها العفاء ... !

ثم ينتهى لامارتين فى قصيدته بتسجيل محبته الباقية على ممر الزمان لجوليا ، فتشهد الطبيعة ويشهد النسيم على حبهما وهكذا كان لامارتين يريد أن يشعر فغنى كما كان يقول القدماء ، وصدق تعريفه للشعر بأنه غناء الباطن ، فقد جاءت هذه القصيدة صورة جلية واضحة عن نفسيته ووشتها بأبهى اطار ، ولكنها لم تكن مزدحمة بالصور الحية والمحسنات اللغوية التى نجدها عند البحترى . انما كانت روحا تحلق فى الأجواء تغنى كما يتغنى المرء ويغرد الطير ويصفر الهواء ويهدر الماء !

فلسفة الألوان فى الغرب

أنكر كثير من الفلاسفة المعرفة عن طريق الحواس زاعمين أن الحواس خادعة متغيرة ، فلا يمكن أن تكون مقياسا للأشياء ، فأنت تتصور أن وراء السراب ماء وليس هنالك ماء وأنت ترى العصا المعتدلة منكسرة فى حوض الماء وليس هنالك انكسار وأنت تخرج من الحجرة الدافئة فتشعر ببرودة أزيد مما هى فى الواقع وليست هنالك برودة ، وعولوا فى حكمهم فى أكثر الأشياء على العقل ، فجعلوه الأساس الاول فى المعرفة .

ومن الحواس التى ينعم بها الانسان حاسة النظر ، ومهما يكن قول الفلاسفة فى هذه الحاسة أو ايمانهم بها أو كفرهم بحكمها فانها موجودة ونحن نرى الأشياء والاحياء كما تتراءى لنا .

ويقول كثير من الفلاسفة : ان الالوان التى تراها العين لها تأثير فسيولوجى وسيكولوجى خاص اللهم الا اذا كان المرء مصابا بالعمى اللونى ، فهذا يخرج باضطرابه عن نطاق حديثنا فانه يرى اللون الاحمر مثلا أسود بطبيعة عينه وهلم جرا .

ومن القواعد المتفق عليها ان الضوء ليس بسيطا بل هو مركب واننا يمكن أن نحلله بمنشور زجاجى خاص فتتراءى لنا أطيافه السبعة .

ومن القواعد المتفق عليها كذلك أن لكل لون من هذه الألوان ميزة خاصة لاتقتصر على الانسان، بل تمتد الى الحيوان والنبات، ولعلنا نعرف مبلغ هياج « الديك الرومى » من اللون الأحمر اذا ما رأى طربوشا أو شيئا من هذا القبيل ، وذلك لأن اللون الأحمر لون صارخ يبعث على الانتباه والنشاط وربما كان من الاسباب التى تدعو الاطباء الى نصح المرضى ولا سيما المرضى بالجدرى والحصبة بارتداء الملابس ذات اللون الاحمر فهو أحد ألوان الطيف ولا ينفذ فى الاقمشة الحمراء ، وبسبب عدم نفوذه يضعف ميكروب هذا المرض الذى يزداد بتأثير هذا اللون اذا نفذ من الاردية ذات الالوان الاخرى .

وقد ثبت لدى الدكتور بينو أن اللون الاحمر يساعد على التئام الجروح ولعل هذا هو السبب فى ايثاره لمحلول الفكسين فى التغيير على الجروح أو فى كون بعض المطهرات ذات لون أحمر كالديتول والميكروكروم

ويقول الدكتور ساروان أحد أطباء النمسا : انه يمكن تلوين الطيور بأن يضاف الى طعامها شىء من الايثلين وانه جرب ذلك فى الحمام فلون بعضها بالأحمر الزاهى والبعض الآخر بالأزرق السماوى ولون أطيار الكنار بألوان قوس قزح الجميلة .

ويقول الفيلسوف الالمانى شينجلر : ان الازرق والاخضر لونا السماء الصافية والبحر الخضم والسهل المريع فهما لونان جويان فى جوهرهما باردان يسلبان الاشياء أجسامها ويثيران الشعور بالسآمة والبعد واللانهائية .

أما الأزرق فهو لون المنظور على صلة وثيقة بالظل والظلام وأما اللون الاحمر والاصفر فهما لونا المادة وما هو قريب وما هو شعبى يجارى ، فالأزرق اذن لون العمق والبعد ، والاحمر لون السطحية والقرب ...

الأزرق .. عدم ساحر .. كما يقول الفيلسوف الالمانى جيته والاحمر جسم نفاذ .

ويرى كثير من العلماء أن اللونين الأزرق والبنفسجى مهدئان للأعصاب ومن هنا أتت فائدة الأشعة البنفسجية التى يصفها كثير من الأطباء للمرضى ولا سيما الاطفال المرضى بالكساح .

هذا وقد أثبت العلماء أن المعرضين للنور القوى من أشعة الشمس التى تحتوى على ألوان متعددة من الضوء يكون لونهم أسمر والمعرضين للنور الضعيف يكون لونهم أبيض وشعورهم شقراء وعيونهم زرقاء كما هو الحال فى الجنس النوردى على العكس من الجنس القوقازى أو الزنجى .

ويرجع العلماء السبب فى اختلاف اللون الى أن فى بشرة الجلد طبقة من الحويصلات الصغيرة فى باطنها مادة ملونة يختلف لونها فى البيض والحمر والسود وهذا اللون يشتد ويضعف باشتداد وضعف أشعة الشمس .

ويعد اللون الابيض آية الطهر والنقاء أما الاسود فدليل الحزن والقتامة وان كان بعض الشعوب يستعملون اللون الابيض عند الاحزان، أما اللون الاخضر فرمز الربيع الاخضر والدوح المورف والشجر المورق، وعند بعض الناس رمز الشيطان المارد والاجواء التى تستحضر فيها الارواح ، ويعد اللون الاصفر عند العشاق رمزا للغيرة لان له خاصية معينة فى اثارة لون معين من المشاعر .

وقد كان الصينيون اذا رغبوا فى التنكيل بأحد سجنوه فى غرفة طلى كل جدرانها وأثاثها بلون واحد لان ذلك يدعو الى ضيق النفس ، وقد ذكر ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية ان رجلا رأف بحال أحد الخلفاء المسجونين على هذه الصورة عند الأتراك فلبس سروالين أحمرين ودخل خلسة بهما على الخليفة وسلمهما له ، لكى ينظر الى لونهما من حين الى حين ، فيخفف ذلك آلامه من النظر الى الغرفة الصفراء التى كان يقيم فيها .

ومن الطريف أن المدارس الامريكية تعمد الى بعض تجارب لتثبت ميزة أحد الالوان على الآخر لتطلى به غرف مدارسها كما هو الحال فى ليفربول بانجلترا ، ومن الطريف كذلك أن أحد العلماء النفسانيين الامريكيين أجرى استفتاء فى أسباب الحب فخرج بأن الوان أزياء النساء تؤدى دورا خطيرا فى هذا المضمار ... !

عالم غربى

يضع الوسائل الى السعادة

أندريه موروا

من الكتب الخالدة التى ألفها الكاتب الفرنسى الذائع الصيت أندريه موروا André Maurois كتاب العواطف والطبائع Sentiments et Coutumes وقد صور موروا السعادة فى هذا الكتاب تصويرا خلابا وجذابا ، وخلق منها فنا من الفنون له سحره واغراؤه وله رواده وعشاقه ، ويمكن الانسان أن يحسنه وأن يتقنه بكثير من التجربة وكثير من المران .

وقد قيل : ان السعادة أن تظفر بشىء حبيب الى نفسك قريب الى قلبك دون أن تتحول عنه أو يتحول عنك ، ولكن هذا التعريف لا يطابق الواقع ولا يجارى الحياة ، فاللحن العذب لا يلبث أن ينتهى ، والاغنية الحلوة لا تلبث ان تسكت ، والشخص الحبيب لا يلبث أن يغيب فكل شىء يخبئه لك الغد ، فماذا تحمل لك الايام فى جعبتها ؟

ان الايام دول فاترك الأوهام والاحزان واغنم ساعة الصفو فانما الغيب عند علام الغيوب .

ويذكر أندريه موروا كذلك ان السعادة لايمكن أن تجنى بغير العمل والتفكير الذى لا يسوق الى عمل ينطوى على ضرر ، ومن يفكر لا يعمل ومن لايعمل يزرع الفساد ، فالبستانى فى الحديقة يعمل فى صبر ونشاط ويعنى بزرعه ويحوطه برعايته ثم يفخر بثمرة محصول تعبه وكده . واحساس البستانى هذا هو الاحساس الذى يشعر به كل فنان مجيد وكل مبتكر أو أديب .

ويعتقد موروا أن الحب من أسباب السعادة سواء بدأ بين كائنين من البشر أو انتهى الى حب الانسانية ، والسعادة لا يمكن أن تمنح انما تتبادل ، وكلما بادلك صاحبك الحب وشاركك فى عواطفك كانت سعادتك جاثمة بين يديك ، ولهذا كان الزواج فى بعض الاحيان لونا من ألوان السعادة الصادقة ، ومن هنا فطن كثير من الكتاب القصصيين مثل ستندال الى هذه الحقيقة ، فجعلوا لذة الحب تطغى على شقاء المحب وتزيل أتراحه وأشجانه ولو كان الموت قاب قوسين أو أدنى ! كما حدث بين (فابريس) بطل قصة ستندال وبين (كليلت) التى كانت تزوره فى سجنه زيارات خاطفة .

فنحن اذن يجب أن ننعم النظر فى مدلول السعادة ونعلم أن السعادة ليست هى اللحن ، وليست هى الأغنية وليست هى الشخص الحبيب انما

هى حالة نفسية تطبع الحوادث بطابعها الخاص وتلبسها فى أعيننا رداء زاهيا براقا . فاذا تمنينا الدوام لشىء فانما نتمنى الدوام للحـــالة النفسية لا للحوادث .

ويرى أندريه موروا André Maurois أن الفقر والمرض من أشد العقبات فى سبيل السعادة غير أن هنالك أناسا لا يستطيعون أن يحكموا على الأشياء حكما صحيحا مصيبا ويرون أنفسهم فقراء وهم ليسوا فقراء ويرون أنفسهم مرضىوهم ليسوا مرضى، هؤلاء هم ضحايا الوهم، وكثير من الناس يصرون على اثقال أنفسهم بالهموم وملء قلوبهم بالاحزان ، وينكرون عليها صفاءها بتخيل نكبات بعيدة مثلهم فى ذلك مثل الرجل المفكر الحزين الذى انزوى فى ركن بعيد من أركان حديقة غناء وجلس ساهم الفكر مبلبل الفؤاد ، فلما سعى اليه موروا يسأله عن سر اكتئابه علم أنه يتوقع نكبات مالية بعد مضى عامين فقال له موروا :

أتدرى يا سيدىأن التفاؤل خير باب الى السعادةوكلما كان الانسان أكثر تفاؤلا كان أكثر سعادة وكانت الحيـــاة فى عينيه ذات لون وردى بديع ، على العكس من الشخص المتشائم الذى يشعر بالبرد القارس اذا هب النسيم أو جرت الريح وتبدو الحياة فى عينيه أضيق من سم الخياط

والنسيان فى بعض الاحيـــان من أقرب الأبواب الى السعادة فى رأى موروا ، فعلى المرء أن يتعلم الصفح عن الذنوب ونسيان الأحقاد اذا أراد أن يكون سعيدا ، والانسان بطبعه يميل الى النسيان وانه أشد ميلا الى نسيان ما يثير فى نفسه اللوعة والشجن ، على أن كثيرا من النـــاس يهملون استغلال هذا الميل الطبيعى الى النسيان ، ومن هنا يتسع المجال لذكرياتهم المؤلمة وخيالاتهم المريرة فيحرمون السعادة ويتجرعون كأس الشقاء .

وعناصر السعادة قليـــلة وأسبابها كامنة فى داخل النفس وهى أرسخ ما تكون اذا قامت على حب الخير ونقاء السريرة .

فلنتمسك بأهداب السعادة ان ظفرنا بها ، ولنحرص عليها حرصا شديدا ، ولنحاول أن نتبادلها ، ونضع نصب أعيننا دائما تلك الاسباب التى كانت سببا فيها كالتعقل والرحمة والاعتدال ، لان الانتصار يولد الغرور والطغيان فى بعض الاحيان فاذا بالسعادة تنقلب الى شقاء .

ومن ألوان السعادة أن نعرف الى أى حد كان يمكن أن نـكون تعسين .

كاتب غربى وزوجة ملهمة

احتفلت فرنسا بل احتفل الادب فى العالم أجمع بالكاتب أندريه جيد ، وقد كان فتى كاسف البـــال حاد القسمات ، كانت عيناه تنفثان ببريق حاد غريب ٠

وكانت شفتاه مرمريتين تنبضان بالرغبة وترقان بالنشوة كمـا لاحظ أوسكار وايلد عندما رآه لاول مرة ٠

وكان شعره ينسدل خلف أذنيه ، ولكنه كان خجلا حييا الى حد بعيد ، ولعله يذكر ذلك اليوم الذى بلغ فيه الطفل أندريه جيـد الحادية عشرة من عمره ، وحدث أن ابن عمـــه الطفل الصغير (أميل) فاضت أنفاسه أمام عينيه ، فحاولت أمه أن تخفى الخبر عنه ، ولكنه سمع همس الكلام عن الحادث الاليم فجرفه حزن عنيف وانفجر باكيـــا فى حسرة تفتت الاكباد وتذيب القلوب ٠

ولعل الطفل أندريه جيد يذكر أيضا ذلك اليوم الذى جلس فيه الى أمه وحيدا فى حجرة المائدة ٠٠٠ وما لبث أن ارتمى بين أحضانهـــا ينتحب حتى بال ثوبها بدمعه الهتون وهو يقول لست كالآخرين ٠٠أ

لقد كان الفتى الصغير يدرك الموت فى الحادثة الاولى فبكى وانتحب ٠٠ أما فى الحادثة الأخرى فقد عرف مصير الأحياء ونهاية البشر فغرق فى بحر من الدموع ٠٠٠

كان الفتى أندريه جيد يحب الموسيقى ويسره ايقاعها، وكان يجلس الى (البيانو) يعزف روائع فاجنر وشوبان أو بيتهوفن وتتصاعد الالحان الحبيبة من بين أنامله كأطيار حلوة جميلة تتلاحق فى الاجواء وتتسابق الى العشاش ٠

وكان الانجيل رفيق الفتى جيد ومن بلاغة وروعة أسلوبه تعلم حلاوة اللفظ ورقة الموسيقى وعذوبة الايقاع ٠

لم تكن أيام أندريه جيـد فى مدرســته بهيجة هانئة ، بل كانت بائسة نحسة وكانت تنتابه بين الحين والحين بعض المشاق فى الدراسة الا انه كان يتغلب عليها فى النهاية وينكب على العمل حتى قال عنه عمه ذات مرة (أن جيد سيكون دائما محبا للعمل ٠)

وكان أندريه جيد يكره تلك الامتحانات المدرسية التى تسير على نهج سقيم وطريقة مرذولة ولكنه كان يحفظ كثيرا من الشعر ويطلع على تراث الاقدمين ٠

ولشد ماكان يؤلم أندريه جيـد أن يظل دائما رهين محبسه ، فكان يجوب وينتقل ويتمثل بقول بسكال : (أن الاحتباس فى الغـرفة سر بؤس

الانسانية) . ولشد ماكان الفتى يهوى أطيار (الكناريا) غير أن حبه وولعه لم يأت الا على أثر حادثة ارتاعت منها نفسه وفزع منها قلبه : فذات صباح فى مستهل عام جديد كان على أندريه أن يذهب ليقبل مربيتـه آنا ففعل ورجع فرحا مسرورا تملأ الغبطة أعطافه من نفسه ومن السماء ومن لاشىء وأخذ يبنى الآمال الكبار وهو فى طريقه الى البيت فى الطريق الذى اعتـاد أن يسير فيه وهو طريق سانت بلاسيد وعلى حين غرة ، وكان الوقت قرب الظهيرة والنهار منبلج والشمس شديدة الوقدة ، شعر بشىء يسقط نحوه فى شدة كقطعة متوهجـة من الشمس واخترق ذلك الشىء ... الظل القريب منه .. ولطمه بجناحيه واستقر فوق قبعته ورفع الفتى الصغير عينيه الساجيتين فوجد طائر الكناريا مسـتقرا فوق رأسـه يرتجف مثل قلبه الذى يملأ صدره فتراءت الغبطة على محياه وسكت عنه الغضب ، وأدرك أن الطير الصغير كان ضعيف البصر ، فهوى فوق رأسه مصادفة .

أخذ الفتى الرقيق يتعلم فى المدرسـة ، ولكن المرض لم يمهله بل كان ينتابه بين الحين والحين وفى ذلك يقول فى مذكـراته : « وفى اليوم الذى سمح لى فيه بالنهوض شعرت باعياء ، فتحاملت على نفسى للوقوف بعد أن مكثت ثلاثة أسابيع فى الفراش .... ليت شعرى ماذا كان يحدث لو أن المرض اشتد على أكثر مما اشتد ... ؟ أواه اننى أشـعر برأسى يهبط فوق جسمى وأشعر بجسمى يكاد يهوى على الارض ، ان الخيال يشعرنى براحة وسعادة تسكنان من قلقى وتهدئان من روعى .

وأخذ أندريه العليل يعوده الاطباء حتى استطاع أن يشـد أزره ويرجع مرة ثانية الى المدرسة حيث ينتظره أصـدقاؤه وأحبـاؤه على مضض .

وشب الفتى وترعرع ودخل فى عنفوان العمر وزهرة الشـباب ، وهنا حدث حادث هام غير مجرى حيـاته كما تغير الثـورات الكبرى تاريخ الشعوب على حد تعبيره ، ذلك أنه حدث حادث هام جعله كالأعمى الذى خلق أعمى الا أنه أصبح بصيرا ... أصبح بصيرا يستمتع بمنظر الطبيعة الخلاب ووجه السماء الفضية الزرقاء التى تستهوى الافئدة والابصار .

لقد عرف الفتى ابنة عمه (مارلين) أو أمانويل كمـا كان أندريه جيد يطلق عليها واقتربت دارهما بعد ابتعاد واتصل بها بعد ماكان بين الاسرتين صمت لايفرى بشىء ، ونشأت بين أندريه وأمانويل صـداقة مكينة لم تلبث أن تحولت مع الايام الى حب جـارف ، حب لايعـرف الضعف ولا الفتور ، حب متقد يسرى فى الجسم مسرى الدماء فى العروق والروح فى البدن والانفاس فى الصدور ، وذات أصيل ذهب أندريه جيد الى بيت ابنة عمه أمانويل ، ولكنه لم يجد أحدا فى الدار فآب الى داره ، ثم عاودته نفسه أن يعود اليها مرة ثانية فوجدها مطرقة الرأس كسيرة النفس ممـزقة الفؤاد ، ولمح دمعتين كبيرتين تنسكبان من عينيهـا فى شجن وألم .... !

كانت أمانويل تعيش فى بيت غير بيت أبيها وكانت أمها متزوجة من شخص غريب ، فحاول أندريه أن يخفف من حزنها الا أن أمانويل أبت أن تبوح له بسر شقائها فى البيت ، فعاد أندريه أدراجه ، الى منزله فى حزن حزين ، ومنذ هذه الفترة كما يقول فى مذكراته أدرك أندريه جيد معنى الحياة ومعنى الالم ، وصمم على خوض غمارها بعزيمة لاتلين .

ويقول أندريه جيد : ان السعادة القصوى التى كنت أرنو اليها وأحلم بها كانت تأتى الى عندما أرافق مارلين ولم أكن أفشل قط فيما كنت أرغب فيه ولم يكن فرحى مكتملا الا اذا شاركتنى هى فيه وفى الكتب التى كنت أقرؤها كنت أسجل الحرف الاول من اسمها الجميل فى هامش كل جملة تستحق اعجابنا وتسترعى أنظارنا وتثير حبنا وشوقنا ان الحياة لم تكن شيئا بدونها... وكانت عبثا ، وكانت شططا لافائدة منه ولا خير فيه .

كنت أمنحها احدى روائع دى موسيه أو لامارتين لتقرأها ، فاذا عادت الى كنت أقبل الصفحات التى قرأتها والسطور التى وقعت عيناها عليها ... وكنت أشعر بسرور لايعدله سرور كلما تجلت أمامى بوجهها النورانى الجميل وأتخيل أنها ترافقنى فى كل مكان حتى فى المنطقة التى تسمى (روك) فى النزهات الصباحية حيث كنت أساعدها فى اجتياز الغابة ، وكنا نخرج عندما يكون كل من فى البيت نائما والكرى يأخذ بمعاقد الاجفان ... والحشائش مخضلة بالندى ، وزهرة الفجر تبتسم على فننها ، وكان شعاع الصباح ينبثق من الافق البعيد ، وتدوم بيننا أحيانا فترة صمت طويلة يسكت فيها اللسان عن الكلام وتبدأ فيها العيون بالنجوى .

وهكذا ظل أندريه جيد يرتشف كئوس الحب دهاقا مع مارلين فى ظمأ ولهفة حتى عقد قرانهما معا فى ٨ من أكتوبر سنة ١٨٩٥ وتحولت أمانويل أو مارلين الحبيبة الى زوجة كريمة تحب زوجها وتسعى الى جلب السعادة الى قلبه وبيته .

وقد صرح أندريه جيد فى مذكراته بأنه لولا أوضاعه الدينية ولولا أمانويل زوجته ما استطاع أن ينتج كتبه ومؤلفاته وما أخرج أندريه : والتر والباب الضيق والسمفونية الريفية ... بل ربما كان لايستطيع اخراج « المزيفون » كذلك وغيرها ، ففى مؤلفات أندريه جيد نلمح كثيرا من الصور التى تشابه صورة زوجته فى أقوالها وفعالها وتحمل طابع زواجه منها وتصرفه معها ، وقد كتب فى مذكراته فى ديسمبر سنة ١٨٩٥ أن أمانويل اليوم متعبة والطقس رديء ، وفى المساء لم تستطع أمانويل أن تشاركنى فى لعب الورق وآوت الى فراشها كى تنام وطيلة مساء اليوم كان ألمى يشتد لانها ليست فى رفقتى ، ولاتفكر معى ، وكلما فتح الباب أو ارتفع صوت أنينها وازداد أرقها أغرقت فى الدعاء والصلاة .

ترى أى خاطر يجيش فى نفس أمانويل فى هذه اللحظة ... ؟

ومن يقرأ مذكرات أندريه جيد يدرك مدى تعلقه بزوجته لقدكانت

ملهمته وهيأت له جو الانتاج الفكرى والروحى دون أى توجيه مباشر منها . وكان جيد يحسن وصف الحب فى قصصه حتى أحبه الشباب الفرنسيون حبا بالغا ، وظفر بجائزة نوبل فى الأدب منذ سنوات .

وقد دفعته صراحته أحيانا الى الانحراف فثار عليه كثير من الناس وفى غضون الحرب الاخيرة قابله المستر تشرشل ووجه اليه اللوم قائلا: متى تنتهى عن قصص الحب والغرام يامسيو جيد وتعمل على انقاذ البشرية من براثن النازية التى تهددنا — بشىء أهم من قصص الحب وأقوم من حكايات الغرام .. ؟

استمع اليه وهو يقول فى السمفونية الريفية التى تعد من أروع انتاجه الادبى بل من أروع الآداب الحديثة « ايه يا رباه .. أمن أجلنا جعلت الليل عميقا جميلا ... أمن أجلى أنا يامبدع السموات والارض؟ ... النسمات وادعة رخية ، ونور القمر يتسلل من النافذة وينسكب فوقى ويغمرنى بتيار من السحر ، وأذنى ترهف السمع الى دعة السماء وسكينتها !... وتجتاح قلبى روحانية صامتة ... رباه !

ليس للحب حد ولانهاية ... انما الحد والنهاية من صنع البشر لا من صنع يديك .. يا رباه .. ليس فى مقدورى أن أنزع الحب من قلبى وأخفيه من جوانحى اللهم الا بعد انتزاع ذلك الخافق بين الضلوع ... »

هكذا كان جيد رائعا فى تصوير المشاعر الانسانية الا أنه كان صريحا ينادى بمبدأ المتعة ويدعو الى التحرر فأى نعيم وأى سعادة مادام المنال عصى الطلب على السواد الاعظم من الناس ؟ .. ومن هنا وجدنا فى كتابات أندريه جيد صراحة قلما نعثر على مثلها عند غيره من المفكرين والادباء .

حضارة الغرب فى العالم الجديد

يتكون الشعب الامريكى من مزيج من الاصول والسلالات ولكنه برغم ذلك قد كون له طابعا يختلف عن الطابع الاوربى بحكم تطور الزمن واستقلال أمريكا .

وحضارة الولايات المتحدة هى حضارة الصناعة التى تعمم الرخاء وتعمل للثروة .

والعوامل الاقتصادية هى الاساس الذى تقوم عليه الحضارة الاوربية الامريكية على السواء وما فى الولايات المتحدة من سمات تختلف عما نراه فى سائر الاقطار انما يعزى الى تقدم الصناعة ، وقد جاءت بذرة الحركة الصناعية الى الولايات المتحدة من أوربا ، ولكنها لم تزدهر فى أوربا قدر ازدهارها فى أمريكا .

والحضارة فى الولايات المتحدة الامريكية تعتمد فى أكثر أصولها على الصناعة ، والكميات الضخمة التى تنتجها الولايات المتحدة بالمشروعات الحرة رفعت مستوى المعيشة فى كل مدينة أو قرية وتمكن ٦٨٪ من التسعة والعشرين مليون عائلة فى الولايات المتحدة من امتلاك سيارات خاصة بها وتهيأت الفرصة لعائلة كل عامل لامتلاك آلة تبريد وآلة غسيل وتليفون وغيرها من وسائل الراحة والاستمتاع .

ويبلغ متوسط عدد الصناعات الجديدة التى تظهر سنويا برءوس أموال الافراد ٢٠٠ ألف صناعة .

وهكذا كانت الحضارة الامريكية تدعو الى النمو الاقتصادى وازدهار الاحوال الاقتصادية حتى ان الاخلاق والاسرة ومركز المرأة ونظام الحكم أصبح اليوم فى أمريكا تابعا للاحوال الاقتصادية ، فالاسرة كتلةاقتصادية تتمسك بالمصالح المادية التى تربط الأبوين وأبناءهما بحيث اذا تراخت هذه المصالح تفككت هذه الكتلة .

وتقوم الحضارة الامريكية كذلك على العلم ، فالفرد الامريكى يؤمن بالعلم ايمانه بالصناعة ولا يفكر الا فى استغلال العلم والتمتع بمنتجاته دون أن يعبأ كثيرا بالجانب المعنوى لنفسه ودون أن ينعم النظر فى العالم الباطنى الذى يحمله فى قلبه وروحه .

واذا كانت أوربا تعتمد فى كثرة الانتاج على سياسة الجهد وترغيب العمال فان الامريكيين يعتمدون فى ذلك على مخترعات العلم الحديث وعلى الآلات الجديدة التى تزيد الانتاج وتقلل ساعات العمل ، بل أن الزوجة

الامريكية نظرا لما تستخدمه من طرائق العلم الحديث فى منزلها يمكنها أن تترك البيت لتعمل خارجه دون اهمال لشئونه .

ولقد دفعت هذه الروح الصناعية البحتة للحضارة الامريكية وهذه النزعة المادية الصرفة للعقلية الامريكية ـ دفعت نخبة من الكتاب الامريكيين الى الثورة على الاوضاع الراهنة مثل الكاتب الحر « شرود أندرسون » الذى لاتعجبه الحضارة الامريكية بما فيها من سيطرة للآلة، ويفزع الى عالم التأمل والاحلام، وشيع هذه الحضارة بالسخرية اللاذعة والتهكم المرير حينا أو بالفرار الى الطبيعة حينا أو الالتجاء الى الطفولة وعالم الاحلام حينا آخر .

وكذلك قام (سنكلير لويس) بمثل هذه الدعوة فكتب قصة (بابيت) التى هى صورة مروعة لمخلوق هزيل هو نتاج الحضارة الصناعية . وقد أخذ لويس يرسم لهذا المخلوق صورة رائعة من نفسيته وتصرفاته ، فهو انسان لا شخصية له يشغل مركز وكيل عقارات ويحيا حياة ملؤها الحركة والعمل والنشاط لانه آلة لانتاج الدولارات غير أنه فى الخامسة والاربعين من عمره يحس أنه على شفا الهاوية وقاب قوسين أو أدنى من الموت ، وأنه لم ينعم بعمره ولم يستفد من شبابه ، فيقذف بقلبه فى أحضان الحب ويهرع بعقله الى أكناف الفكر الحر المتمرد على الاوضاع الراهنة .

وليس معنى هذا أن شرود أندرسون أو سنكلير لويس أو غيرهما من الكتاب والمفكرين فى أمريكا يريدون انتزاع الحضارة الامريكية من أصولها الصناعية ومقوماتها الآلية ، انما ينادون باصلاحها واستكمال أوجه النقص فيها وجعلها مقرونة بفضائل القلب والروح أيضا .

ولا يحفل الشعب الامريكى فى حضارته كالشعب الانجليزى مثلا بروح التقاليد ، انما يمتاز بالتجديد ، فالتجديد سائر على قدم وساق فى التعليم بفضل جون ديوى وغيره من المفكرين المجددين فى هذا الميدان . كما أن التجديد قائم فى فن العمارة، وما ناطحات السحاب الا لون من التجديد والاختراع فى فن العمارة الذى قلما نجده فى أوربا أو فى العالم الاسلامى والعربى بوجه عام .

ويمتاز الامريكى كذلك فى حضارته بشدة الثقة فى نفسه ولا يعبأ بالتقاليد الاجتماعية ، ويرجع موقفه هذا الى الظروف التى تكونت فيها أمريكا ، ففى واشنطون ـ على ما جاء فى رواية قديمة ـ يجد السفراء الاجانب مشقة أليمة فى الحصول على الخدم . وما من أمريكى يقبل أن يرتدى زى الخدم، وليس ثمة مايدعو أى أمريكى الى ذلك، فالسفراء مضطرون الى اختيار خدمهم من بين الأجانب الذين سرعان ما يتركون هذا العمل اذا ما وجدوا عملا آخر لا يفرض عليهم زيا خاصا ...

وكان السواد الاعظم ممن جاءوا أمريكا من الطبقتين الفقيرة والوسطى ، ولما كانت مشقات الحياة فى العالم الجديد قد عجمت عودهم وخبرت قناتهم واكسبتهم شدة فى البأس والمراس وجعلتهم أكثر اعتمادا

على أنفسهم فقد فقد الامريكيون كل اهتمام بالمركز الاجتماعى أو اكتراث به .

وهكذا لم يجد أحد فلاحى فرجينيا وهو متمتع بتمام قواه العقلية غضاضة فى أن يقول للورد بلتيمور فى وجهه أنه كذاب أشر ، وان يهدده بلكمة يدمى بها وجهه ، وأن يتحدث عامل صغير فى (سيرك) لترويض النمرة والاسود ويدعى بارنام الى الملكة فيكتوريا فى قصر بكنجهام كأنه يتحدث الى أية سيدة فى الولايات المتحدة الامريكية .

وتقوم المرأة فى الولايات المتحدة الامريكية بنصيب كبير فى تدعيم الحضارة الامريكية والمشاركة فيها بكل قواها . وبالولايات المتحدة الآن نحو ١٢ مليون امرأة يعملن فى المصانع والمكاتب ويعملن وهن فتيات أو عوانس تقدمت بهن السن أو متزوجات لا يمنعهن الزواج من التكسب خارج المنزل ، وقد رفع الامريكى المرأة الى أعلى منزلة وأسمى مكانة ولها الحل والعقد فى جميع شئون التربية والمنزل ، ويرجع ذلك الى أن المرأة وقفت الى جانب الرجل وعملت معه فى جهود الاقتحام والارتياد وأظهرت شجاعة ممتازة وكفاية منقطعة النظير فى تدعيم كيان الشعب الامريكى .

وقد قيل : أن الحضارة الامريكية لاتعبأ بالفنون ولا تكترث بالآداب الرفيعة ، ولكن هذا القول فيه كثير من الجور وعدم الانصاف ، وهذا لايمنع أن أمريكا مقصرة بعض الشىء فى هذا الباب لزيادة الآلات كالسينما التى طفت على المسرح، كما أن الفنون الجميلة محتاجة الى قرون طويلة حتى تنضج وتزدهر .. وأمريكا أمة حديثة .

وقد قامت نخبة من المفكرين الامريكيين منهم سنكلير لويس وتيود وروديز ابتون سنكلير وغيرهم بدعوة صريحة فى العصر الحديث لحفظ الآداب الرفيعة والفنون واعتبارهما قاعدة الحضارة الحقيقية وتقديس ما توحى به من رغبة فى طلب الجمال والسمو بالنفس وتلطيف الشهوات .. والسمو بالاخلاق وبث روح المحبة الصادقة والاخاء التام بين أبناء الانسانية جميعا .

تلك هى ملامح فى الحضارة الامريكية وهى تدل على بوادر طيبة ومظاهر نافعة سوف تنمو على مر الايام وتزدهر .. وتنتج من كل زوج بهيج ...

من عجائب العلم والاختراع فى الغرب

فى كل يوم يمر يأتى لنا العلم بشىء جديد ... شىء لم يكن فى الحسبان وهو أشبه بالخيال وأقرب الى الأحلام ... غير أن سلطان العقل البشرى أخرجه الى دنيا الحقيقة وعالم الوجود .

ومثال ذلك أنه أمكن بأساليب كيميائية جديدة منع الأرض أن تشرب الماء وتجنيب الطرق من الاوحال ، ففى أماكن كثيرة فى الولايات المتحدة وفى بعض البلاد الاخرى أمكن أن تلبس الأرض وقاء لا ينفذ منه الماء ، وذلك باستعمال مقدار يسير من مادة صمغية (رانتجية) تخلط بتراب الارض وتمد على سطحها . ولا يزيد عمقها على بضع بوصات ، وليس هذا الغطاء الذى يغطى التربة أشبه بالاسفلت الذى يغير شكل التربة انما هو غطاء يظهر التربة كما هى فى الصورة ، بيد أنها تختلف عن غيرها فى الواقع . واذا انهمر المطر سال الماء عنها الى الخنادق أو بخر دون أن يخترق السطح .

وقد بسط هذا البساط الكيميائى الواقى على الطرق التربة فى جنوب الولايات المتحدة وبنما وغينيا . وظل طريق ترب فى ولاية مسيسبى — بعد أن عولج بهذه الطريقة — جافا صلبا طوال فصول المطر الغزير .

ومن فوائد هذا البساط أنه يمنع نمو الحشائش والاعشاب فى أفنية المصانع غير المرصوفة والمناطق التى تمد فيها خطوط السكك الحديدية — وساحات التنس التى اتخذت سطوحها من الصلصال .

ويرجع هذا الاختراع العلمى الى الدكتور ولتركورن خريج جامعة هين ليبزج الالمانية والذى هاجر من المانيا الى أمريكا حيث صار مدرسا فى جامعة ولاية ميسورى ثم تجنس بالجنسية الامريكية . وانشأ منذ سنوات « معمل علم التربة » فى جامعة برنستون .

وفى ميدان الحياة البيتية أمكن اختراع الحرارة السائلة التى أصبحت مصدرا مستقلا لقوة تنفع فى الطبخ والتدفئة والتبريد وغيرها من شئون المنزل .

والحرارة السائلة مادة كيميائية جديدة أخرجتها مصانع مؤسسة « جون بيرس » وتحقق قوة محركة واحدة تجمع معدات البيت بعد أن كانت حرارة الغاز فى البيوت المتوسطة تحمر اللحم وحرارة الفحم تسخن الماء ، وتدفىء الغرف ، والكهربا تسير الثلاجات وتنجز أشياء أخرى كثيرة .

والجزء الاصيل فى الجهاز الجديد الذى يغنى عن شتى وسائل القوى

المحركة عبارة عن موقد ومرجل، أما وقوده فهو فحم الانتراسيت، وفى المرجل وأنابيب الجهاز نحو ستين جالونا من «سليكات تتراكويسل» بدلا من الماء ، وثمن الجالون من هذه المادة ريال ونصف الريال ، ولكن اذا ما صنعت منه مقادير وافرة للبيع نقص الى نحو نصف ريال .

واذا استثنينا ما قد يذهب منه سدى بالرشح فان الحاجة لا تدعو الا الى اضافة جالون واحد كل خمس سنين . وبعد أن تنتقل الحرارة السائلة من المرجل تسير فى أنبوب ملتف ، فلا تلبث أن تظفر بماء ساخن لا ينقطع وبغير حاجة الى خزان ثم ينعطف الماء فى الانبوب الى آلة التبريد فيحرك جهازها .

والحرارة السائلة تسير الى كل جزء من مواقد الطبخ الحديثة ويضبط سيرها صمام كصنبور يقطع الحرارة أو يطلقها على حسب ما نشاء ، ويتم ضبطها بطريقة بسيطة كالطريقة المتبعة فى أفران الغاز والكهرباء .

وقد اخترع حديثا جهاز للاشعاع أطلق عليه (راديتور) طوله ١٣ بوصة وعرضه عشر بوصات وله مروحة تدفع الهواء الدافىء فى غرف البيت فيدفئها ، وفى الوسع أن تصل أنبوبا تنساب فيه الحرارة السائلة بالادوات الميكانيكية لغسل الصحون وأجهزة غسل الملابس وعصرها وتجفيفها وآلات تبريد الهواء وغيرها من المعدات ، كما يمكن استخدام القوة الحرارية فى ادارة أجهزة الراديو والتليفزيون والمراوح الكهربية .

وبهذه الطريقة تغنى قوة حرارية واحدة عن قوى حرارية مختلفة ، ويمكن توفير نحو نصف ثمن الوقود الذى يستخدم للطبخ أو التدفئة ، اذ أن البيت لا ينتفع عادة بأكثر من ٥٥ ٪ من حرارة الفحم الذى يلقى فى الموقد ، وهذا ضرب من ضروب التبذير الذى يمكن ملافاته باستخدام الجهاز الجديد .

وبرغم ان الحرارة السائلة تستخدم بشروط خاصة فى بعض الاحوال الكهربية فانه من المنتظر التغلب على جميع الصعاب المتعلقة بهذا الموضوع .

واخترع لى دى فروست أنبوبا سحريا أطلق عليه « أنبوب أوديون » وهو أساس الصناعة الكهربية (اليكتروتكس) التى تقدر بأربعة آلاف مليون دولار وأمكن بهذا الانبوب نقل صوت الانسان فوق المحيط الاطلسى، وانشاء أول خط تليفونى منتظم بين نيويورك وسان فرانسيسكو ، وحين شاع استعمال التلغراف اللاسلكى باشارات مورس كان خير جهاز معروف لالتقاط الاشارات من الهواء أنبوبا غليظا مملوءا ببرادة فلزية تتلاصق حين تجىء الاشارة فتتم بتلاصقها الدورة الكهربية ثم لابد من طرق الانبوبة بالمطرقة لكى تتفرق الدقائق المتلاصقة حتى يستطيع الانبوب أن يلتقط اشارة أخرى ، ولذلك أخذ لى دى فورست يسعى الى اختراع كشف جديد للاشارات أفضل من هذا الكشف .

وادخل لى دى فروست تحسينات مختلفة الى هذا الانبوب وأمكن اختراع جهاز « بليوترور » الذى يقذف تيارا من أمواج الراديو القصيرة

التى تولد الحرارة لتخترق الخشب والعجائن وتزيد أوارها فى فترة وجيزة الى درجة كبيرة كان لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق فرن كبير .

وهـذا النوع الجديد من أنبوب أوديون يستعمل فى خيـاطة المعاطف الواقية من المطر المصنوعة من مواد كيميائية فبدلا من أن تخاط أطرافهـا يضم بعضها الى بعض بتأثير الاشعة ، وهو يستعمل أيضا فى طبخ اللحوم .

وأمكن اختراع عين كهربيـة تفتح الابواب وتحمى المستودعات وتفرز رزم البضائع وتخترق الضباب فوق البحر حتى تنزل الطائرات سالمة فى العواصف أو الظلام وتمنع القطر من الاصطدام .

وفى عالم الطيران استطاعت الطائرات أن تسـير بقوة المحرك النفاث أو الصـاروخ وأمكن طائرات النقـل أن تطير فى جو الارض بسرعة تفوق سرعة الصوت كما تستطيع هذه الطائرات أن تحلق الى طبقات الجو العليا، أما خارج جو الارض فقد استطاعت الطائرات بلوغ سرعة ١٠٠ر٠٠٠ ميل فى الساعة بالقياس الى سطح الارض بكل ما عليه من أحيـاء وأشياء الذى يقطع الفضـاء فى دوران الارض بسرعة ألف ميل فى الساعة ليل نهـار ، والمجموعة الشمسية تذرع الفضاء بسرعة ٥٠٠ر٠٠٠ ميل فى الساعة .

وفى عالم الزراعة استطاع عالم أمريكى يسمى ادجر مكفدن أن ينبت قمحا عظيما لا تدركه الأمراض ، وقد راودته فكرة انبات هذا القمح الجديد فى مزرعته بولاية ساوث داكوتا حيث أصاب مرض الصدأ زرع أبيـه ولم ينج غير خمسة معايير من أربعين معيـارا عن كل فدان ، ولم يلبث هـذا الوباء أن اجتاح ولاية تكساس كلها وأصـاب الارض بالقحط والامحال ، وفى سورة هـذا الوباء الذى يهلك القمح لاحظ أن هنـاك ضربا من القمح لا تصيبه آفة الصدأ ، وهذا الضرب يعرف باسم « ياروسلاف امر » ، ولكن هذا القمح القوى الكثير الالياف لا يصلح الا عليفا للمواشى .

وأخذ العالم مكفدن يفـكر ويقدر وأخـيرا أخذ ملقطا دقيقا وأزال به عضو الذكر من نوار قمح « ياروسلاف امر » ثم نفض على بقية النوار لقاحا من قمح «ماركويس» ولف الرءوس بورق رقيق ليمنع أى تلقيح له لم يصنعه هو بيديه .

وفى الخريف رأى حبوبا سقيمة أسفرت عنها المزاوجة التى تمت فى الصيف ثم بذر هذه الحفنة من الحبوب التى جناها فى الخريف السـابق ، وجعل يرويها يوما بعد يوم ويتطلع الى اليوم الذى تنبت فيه ، ولكنها أبت أن تنبت وأخيرا لاح له شعاع من أمل وقبس من رجاء، وأطلت نبتة واحدة برأسها وظل مكفدن يزاول تجـاربه حتى نجح فى اخراج نوع جديد من القمح يقف أمام مرض الصدأ . دون أن ينال منه شيئا . وأطلق على هذا النوع اسم الامل Hope ومضى هذا النوع من القمح ينتشر شيئا فشيئا حتى قدرت المساحة التى زرعت فى الولايات المتحدة وكندا بقمح مولد من صفوة تلك الحبة السقيمة التى جنـاها مكفدن بنحـو مائة مليون فدان . وبيعت منه محصولات وافرة الى مختلف بلدان العالم فمنعت الجوع عن ملايين البشر ، وصانت الملايين من المحصولات من الهلاك .

وفى عالم الطب أمكن الوصول الى طريقة للتوليد بلا ألم بعد أن كان موضوع الولادة عبئا ثقيلا ، وهما عظيما تحمله النساء ، فأمكن الوصول الى أسلوب جديد فى التخدير مختلف عن الاسلوب المستخدم حاليا ، وتقول النساء اللواتى حقن بهذا المخدر أنه زال منهن بعد الحقنة الاولى ببضع دقائق كل شعور بالالم وهذه الحقنات تتكرر فى فترات تختلف على حسب الحاجة من ثلاثة أرباع الساعة الى ساعة ، وتظل المرأة التى تنتظر الوضع مضطجعة على سريرها لا تشعر بألم الى أن يأتى وقت الوضع فتنقل الى غرفة الوضع .

ويجب بذل كل عناية لتقع الابرة تماما على الموقع الذى تقع عليه فلا يصل المخدر الى الدم أو الى سائل العمود الفقرى بل الى البقعة المحيطة بالعصب ، ولهذه الغاية ابرة من الصلب تقبل الالتواء ولا يتطرق اليها الصدأ ، وهى لقبولها الالتواء لا تنكسر ولو تقلبت المرأة على سريرها ، ويجب استعمال مخدر موضعى لقتل الألم عند ادخال الابرة ، وهذه الابرة متصلة بأنبوب من المطاط بزجاجة تحتوى على المحلول المخدر ، ويحقن منه ببضع ملاعق صغيرة واسمه (ميتكايين) وهو أحد مركبات الكوكايين .

ويقول الدكتور فرنسيس آرفنج أستاذ فن التوليد بكلية الطب بجامعة «سيراكيوز» الامريكية وقد أتيحت له الفرصة لاختبار الطريقة الجديدة : « ولا شك أن هذه الطريقة كاملة من جميع الوجوه. فهى تمنع آلام المخاض ، ولا تؤثر فى حياة الام أو الطفل » .

وبهذه الطريقة أمكن العلم أن يكتشف أسلوبا مامون العواقب لمساعدة الأم على الوضع بدون ألم .

وأمكن الوصول الى اختراع جديد فى عالم الورق، وهو الورق الذى لا يصيبه البلل ولا يتلفه المطر ، ولا يعنى هذا أن الماء لا يخترق الورق الجديد انما هو يبتل كأى ورق ، ولكنه متماسك فلا يتمزق ولا يتقطع ، واذا غطيت هذا الورق ببعض الصمغ أو الشمع فانه فى هذه الحالة يقاوم البلل بشدة ، ولا يخترق الماء أنسجته وقد وضعوا منذ عهد قريب كيسا من طبقات من هذا الورق بينها أسفلت لمنع الماء من النفاذ ثم ملىء الكيس دقيقا وألقى فى نهر نياجرا ، فهوى من فوق الشلال، وظل سبع ساعات ونصف الساعة يصدم الصخور عند أسفل الشلال ، فلما استردوه كان الكيس لايزال صالحا للشحن ، وكان الدقيق الذى فيه جافا لم يدركه البلل . ولم يصبه الماء .

وقد استعمل هذا الورق فى أثناء الحرب العالمية الاخيرة ، اذ انتفع به رجال الجيش ورجال الاسطول فى صيانة كل شىء عرضة للرطوبة ، بل انهم أحضروا مجموعة من أكياس الورق وملئوها بالمئونة والاغذية والقوها فى البحر حتى تصل الى الشاطىء الآخر فلم يصبها أدنى عطب أو تلف .

ويقول صانعو هذا الورق أنهم يستخدمون فى صنعه نوعين من اللدائن نجدهما عادة فى علبة البطارية الكهربية ، والاغطية التى تتخذ لزجاجات الادوية والعطور .

وصنع أحد رجال المصانع نموذجا لملاءة تستطيع أن تفرشها على شاطىء البحر أو فى روض فوق السندس الاخضر عندما تخرج مع أسرتك لاجتلاء منظر الطبيعة الساحرة وتعمل هذه الملاءة على رد الماء وانعكاس ضوء الشمس كما أنها لا تلتهب ولاتتأثر بالحريق، بل لقد توصل الصانعون الى عمل بيت مبنى كله بهذا النوع من الورق فى أرض معهد كيمياء الورق فى مدينة « ابلتون » بولاية ويسكونس وهذا البيت يتألف من حجرة طولها ١٦ قدما وعرضها ثمانى أقدام ، ولم يتأثر هذا البيت بوابل المطر أو انطلاق صنبور المياه .

وقد تمكن العلماء من اختراع نوع جديد من الفحم المسحوق الذى يمكن به ادارة محرك من محركات الاختراق الداخلى بدلا من البنزين أو الزيت .

وأنشىء فى معمل جامعة جونز هيكنز فى مدينة بلتيمور تربينات تتحرك بالفحم المسحوق على أحسن وجه .

والفحم الجديد مسحوق أشبه بسناج المصباح الاسود ، وقد بلغ من دقة أجزائه أنه حين يدفع فى حجرة الاشتعال يشتعل فورا كأنه وقود من زيت .

وأمكن اختراع موقد للبيت يغذى بتيار مندفع من الفحم المسحوق الذى يباع فى علب محكمة الاغلاق .

ولكن هذا الفحم المسحوق لن يستطيع بأية حال أن يحل محل الزيت فى أعماله الكبرى فى تحريك دفة المدنية وعالم العمران .

وفى ميدان المواصلات السلكية واللاسلكية يتوقع العلماء أن تهدم فى المستقبل غير البعيد أعمدة أسلاك التلغراف والتليفون فتباع حطبا للنيران ويحل محل التخاطب بأسلاك التلغراف والتليفون شبكة أو شبكات من الامواج الدقيقة ، فتمتزج فيها بأمواج لا يزيد طولها على بضع بوصات فتحمل كل الرسائل التى تريد أن تحملها اياها من أخبار وصور واذاعات ومحادثات تليفونية وصور وأحاديث تليفزيونية .

ومما يذكر أن شركة (أنترنشنال بيزنيس ماشينز) عرضت أخيرا جهازا الكترونيا جديدا يستطيع أن يميز الكلمات الموجهة اليه وأن يجمع ويطرح الارقام التى تقرأ عليه شفويا وأطلق على الجهاز الجديد اسم غريب وهو « صندوق الحذاء » لأنه يقارب حجم الصندوق الذى يستعمل لهذا الغرض .

وقال أحد المسئولين فى الشركة المذكورة : انهم لا يعتزمون انتاج هذا الجهاز فى القريب العاجل ، بيد أنه قد يكون فى مقدمة عدد كبير من الآلات التى تستجيب للاوامر الشفوية وقد يكون من بينها آلات كاتبة تكتب ما يملى عليها من تلقاء نفسها . وآلات لخزن المعلومات التى تملى عليها وآلات حسابية تستطيع الاجابة عن الاسئلة الشفوية .

كما اخترع العلماء جهاز « الأبسوفون » الذى يحل محل التليفون

ويسجل المكالمات التليفونية التى اتصلت بك فى أثناء غيابك ويرد عليها وعندما ترجع الى مقر عملك تستطيع أن تعرف من اتصل بك فى الفترة التى كنت فيها بعيدا عن مكتبك .

وفى ميدان التحاليل استطاع العلماء أن يحولوا مادة الى أخرى تختلف عنها كل الاختلاف مما ربما لا يصدقه العقل أو يعتبره ضربا من الاوهام أو لونا من الخيال .

ومن العجائب التى وصل اليها العلم الحديث أن أستاذا فى جامعة هارفارد وعد أن يأكل قميصه اذا أخطأ وقد بر بوعده ، فأخذ قميصه وأذابه فى حمض من الاحماض ثم عدل الحمض بمادة قلوية ، ثم صفى السائل ، وأخذ المادة المترسبة فبسطها على كسرة خبز ثم أكلها .

وابتكر علماء الزراعة فى أمريكا أنواعا جديدة من حبوب الذرة العويجة لها رءوس شائكة وتطرد الطيور التى تتغذى بالحبوب ، ومن ثم تقلل من الاضرار التى تلحق بالمحصول ، وقد زرعت فعلا على سبيل التجربة بعض سلالات الذرة العويجة فى جنوبى ولاية فلوريدة وأماكن أخرى .

وفى ميدان الطب أمكن اختراع عيون عجيبة من اللدائن تغنى عن عيون الزجاج التى كثيرا ما ينبذها الذين أصيبت عيونهم ساخطين ليلبسوا غمامة سوداء ..

وهذه العيون الجديدة مصنوعة من نوع من لدائن البلاستيك على قياس العين الطبيعية وترسم مقلتها باليد بحيث تشبه كل الشبه العين السليمة من عينى من يستعملها .

وأهم من هذا انها تتحرك فى يسر مع أختها الصحيحة ، وهى فى هذا تختلف كل الاختلاف عن عيون الزجاج التى لا يكاد ينقضى عليها عام حتى تحدث فيها خدوش بفعل سوائل العين ، ومثل هذه العيون الثابتة تظل تحتك ببقية العين المستأصلة التى تتحرك من ورائها فاذا طال لبسها فكثيرا ما كانت تؤدى الى التهاب خطير .

وقد توصل العلماء الى اختراع قالب لحجر العين الضريرة وعضلاتها بالطريقة التى تصنع منها قوالب الاسنان ثم تصب فى هذا القالب اللدائن السائلة فاذا هى كالعين الاصيلة ثم يأتى عمل الفنان الطبى الذى يرسم على ورق دقيق جيد صورة الحدقة وانسانها حتى تماثل العين فى شكلها ولونها كل المماثلة ، ثم يطبع هذا الرسم على العين الجديدة لدرجة أنه يصعب تمييزها عن العين الاصيلة .

وتمكن عالم المانى يسمى « هنرى هارتونج » من مدينة هامبورج من الوصول الى اختراع سفينة جديدة للغوص هى أشبه بطائرات الهليوكوبتر التى تشق أجواز الفضاء ، ويمكن هذا النوع من سفن الغوص الى مسافة سبعة آلاف متر تحت سطح الماء .

ويعمل الهليوكوبتر الغواص بالطريقة التى يعمل بها الهليوكوبتر الذى

يطير فى الفضاء ، أعنى أنه يعمل بمراوح أفقية فتساعده على الغوص والصعود الى سطح الماء وفقا لاتجاه الدوران .

ويستطيع هذا النوع الجديد من السفن أن يقاوم ضغط الماء فى دورانه فى صورة أعنف من سفن الغوص الاخرى . وقد جهزت مؤخرته بمروحة اضافية تقوم بعمل الدفة التى تعين اتجاه الغوص .

وبالهليوكوبتر الغواص مخزن للبنزين ، واذا ما غاص فى الماء أخذت درجة حرارة البنزين فى الهبوط فيتقلص حجمه ، ويقل وزن الهليوكوبتر فيزداد هبوطه ، وتحدد المراوح درجة الهبوط فى السرعة أو البطء .

ويخصص هذا النوع من الهليوكوبتر الغواص للبحث عن بقايا البواخر والطائرات الغارقة كما يستعمل حاليا فى البحث عن آبار البترول فى أعماق البحار .

هذه بعض معجزات العلم الحديث التى استطاع العقل البشرى أن يصل اليها وصدق الله جل ثناؤه حين قال :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

قصة كفاح

الفريد كروب ملك الفولاذ

لم تكن سنه تتعدى الرابعة عشرة عندما استيقظ ذات صباح فسمع نبأ أليما فى الدار جزعت منه نفسه وتقطع منه نياط قلبه وانهمرت الدموع من عينيه فى لوعة وحسرة وحرقة وشجن : ذلك أنه سمع بوفاة والده (كروب الاكبر) ، ولكنه لم يلبث أن لم شعث نفسه ... وجمع جماع قلبه ، ومنع الدموع من أن تسيل على خديه ، وذهب الى حجرة أمه يواسيها ويخفف عنها حدة المصاب وفداحة الحزن ...

وورى كروب التراب وانقضت سحابة اليوم والأسى يخيم على أسرة كروب وما أن جن الليل حتى ذهب (الفريد) الى مخدعه ، لكنه لم يذهب لينام فقد اعتراه فى ذلك الوقت أرق طويل واستغرق فى تفكير متصل فى السبل التى يستطيع أن يتكسب منها ويهيىء السعادة له ولامه . ولاح لعينيه طيف أبيه ، فانحدرت دمعة من مقلتيه ولكنه مسحها ، وصمم على الجهاد والكفاح ...

ترك (كروب) الأكبر معملا صغيرا لصنع البواتق من الحديد الزهر واذابة الحديد الصلب ، ولم يكن يعمل فى هذا المعمل سوى أربعة عمال وكان على رأسهم عامل مسن كبير يسمى (كومو) كان من أقرب الناس الى أبيه الراحل . فربت العامل المسن كومو على كتف الفريد ودعاه الى مراقبة العمل فى المعمل والى أن يشرف بنفسه على سير العمل .

فكان الفريد يذهب كل يوم الى المعمل ويقف أمام (الفرن) ويشاهد الحديد الصلب وهو ينصهر والحديد الزهر وهو يفرغ لعمل بواتق مختلفة الاشكال والاحجام ، فتعتريه النشوة وينسى الالم وينشرح صدره ويطمئن باله . ولم تمض ست سنوات حتى استطاع الفريد أن يجعل هذا المعمل المتواضع مصنعا كبيرا يضم بين رحابه خمسين عاملا من خيرة العمال .

وعندما احتفل الفريد بالعيد العاشر لافتتاح هذا المعمل كان يحضر هذا الاحتفال فى داخل المعمل مائة عامل شربوا جميعا نخب النجاح ... فى سرور وانشراح ...

وقد استنبط (الفريد) ثلاثة أشياء استطاع أن يغزو بها السوق وتدر عليه ربحا وافرا وكسبا عظيما .

وأول هذه الاشياء طريقة عمل الملاعق المعدنية فغمرت السوق ملاعق كروب المعدنية وارتاح الناس الى اتقان صناعتها ارتياحا كبيرا .

وثانى هذه الاشياء طريقة لعمل الاطر الحديدية من غير لحام .

وثالثها طريقة عمل المدافع من الفولاذ .

وقد قامت الطريقة الاخيرة بدور كبير فى حياته وكانت سببا من أسباب شهرته ومجده .

أما طريقة عمل الملاعق المعدنية فانه لم يلبث أن باع امتيازها بثمن كبير جدا الى أحد رجال الصناعة فى انجلترا واستغل المال الناتج من هذه الصفقة المربحة فى عمل تجارب عدة لصنع مدافع من فولاذ وعمل الاطر من الفولاذ كمركبات السكك الحديدية . وكانت الاطر قبل ذلك تصنع من الحديد الصاج وتلحم لحما فتكون كثيرة العطب قريبة الفساد ..

ونظر الفريد كروب الى مصنعه بعد ذلك بسنوات أو ان شئت الدقة فقل عام ١٨٥٨ ، فوجد فيه ما يربو على ستمائة عامل فحمد الله على هذا النجاح ، ثم خرج من المصنع وذهب لتوه الى البيت حيث توجه الى حجرة أمه وقرب يديها من فمه ، وطبع عليها قبلة حارة تنبض بالوفاء وتنطق بالاخلاص .

واستطاع الفريد فى هذه الآونة أن ينتج مصنعه عدداً كبيرا من الآلات الضخمة والمطارق البخارية الكبيرة والافران الثقيلة . كما اشترك فى المعرض العام الذى أقيم فى ذلك الوقت فى انجلترا وعرض فيه مدفعا وقطعة كبيرة من الفولاذ ثقلها طنان ، وأهدى مدفعا الى ملك بروسيا فمنحه نيشان النسر الاحمر ..

وعندما فتح المعرض الدولى الكبير للصناعات فى باريس عام ١٨٦٧ لم يشأ (الفريد) أن تفوته هذه الفرصة فعرض مدفعا طوله خمسة أمتار وربع المتر وقطر فوهته ٣٥ سم وفيه أربعون حفرة لولبية وقضى فى عمله سنة وأربعة أشهر وبلغت نفقات عمله ٦٥٢٥ جنيها فى صنعها .

وذاع صيت مصانع (كروب) حتى زارها الملك ولهلم الاول ملك بروسيا بنفسه وسبك أمامه الفريد قطعة من الفولاذ ثقلها تسعة أطنان الى ٣٠٠ بوتقة وطرق قطعة أخرى ثقلها سبعة أطنان ونصف الطن وطولها ١٥ قدما بمطرقة بخارية فاشتدت دهشة ملك بروسيا من هذا العمل العظيم ، واعتبر مصانع كروب فخرا عظيما فى تاريخ الدولة .

وتوالت بعد ذلك المؤتمرات والمعارض كالمعرض الامريكى فى فيلادلفيا ومعرض شيكاغو الدولى للصناعات وغير ذلك وكانت معروضات الفريد كروب تنال الصدارة بين المعروضات العالمية المختلفة .

وذات يوم زاره أحد رفاقه منذ الصبا وكان قد غاب عن بروسيا فى رحلة طويلة فراعه ما شاهده فى مصانعه : فهنا مكاتب للبريد والبرق والحريق ، وهناك مدارس وكنائس ومناسك ومطاعم وأندية للعمال وأبنائهم وملاعب لشتى الالعاب الرياضية . ومضى ذلك الصديق ينتقل بين أنحاء هذه المصانع والعجب يعلو محياه والدهشة تعقد لسانه وهو يرى كل هذه الفرائب ، ويرقب القطر وهى تنتقل بين أنحاء مصانعه وتغيب عن عينيه بعد أن تترك دخانا كثيفا لا يلبث أن يتفرق فى الهواء .. !

وذهب مادلنج رفيق الصبا الى الادارة العامة حيث يجلس (الفريد كروب) على مكتبه وقد تقدمت به السن واشتعل رأسه شيبا وارتسم عليه وقار الشيوخ وبدا فى عينيه نشاط الشباب ٠

ذهب مادلنج الى صديقه الفريد فلم يكد يراه حتى احتضنه بين ذراعيه وغمره بقبلاته ثم أعطاه معلومات دقيقة عن مصانعه وذكر فيما ذكره له أن بمصانعه ٤٦٫٧٠٠ عامل و ٤٥٨ آلة بخارية وسكتين حديديتين طول الاولى ٣٦ ميلا وفيها ست عشرة قاطرة و ٧٠٠ عربة وطول الاخرى ٢٣ ميلا وفيها ٢٦ قاطرة و ٥٠٠ عربة ، كما أن بمصانعه ٥٩٠ ميلا من أسلاك البرق و ٣٢٨ محطة للتليفون ٠

فذهل مادلنج رفيق الصبا من ذكر هذه المعلومات وهنأه على نجاحه المنقطع النظير غير أن الفريد كروب ظل يتكلم وكأنه يستلهم الماضى ويستعيد الذكرى أمام عينيه ويقول :

انى أحسب أن أول نعمة من الله بها على أن خلقنى فقيرا، فان هذه النعمة هى التى دفعتنى الى الجهاد والكفاح والكدح والاقتصاد وانكار الذات ، وعرفتنى قيمة المال ومدى مايكابده الانسان فى سبيل الحصول عليه، فان ابن الغنى يدخل ميدان الحياة مغلول اليدين لا يعرف قيمة ما عنده أما ابن الفقير فيعرف قيمة الشىء ، وقيمة الشىء على حسب التعب الذى ينال به وما تعب على نيله كثيرا تزداد قيمته فى عينيه عشرات الاضعاف ٠

وسمع الصديق هذه الكلمات فحرك رأسه فى استجابة الصديق ٠٠ وقال وهو يحاوره ٠٠٠ حقا يا صديقى ٠٠٠ حقا يا صديقى ٠

الموسيقى تغزو
مصانع العمال فى الغرب

ان ما كان بالأمس حلما أصبح اليوم حقيقة واقعة وما كان يجول بخلد الفنانين والشعراء كأنه وهم من الأوهام أو أسطورة من الأساطير غدا اليوم يتمثل فى وقائع الحيـــاة ، فى المجتمع الأوروبى والامريكى والروسى وغيرها من المجتمعات المتحضرة ..

لقد كانت الموسيقى بالامس سلوى الفنان ، وشفاء للمحب الحزين أو ذى القلب المتفطر حتى ينسى آلامه وأشجانه وتباريحه وأحزانه فأصبحت اليوم فضلا عن ذلك تخضع لتجارب علمية ، ومقاييس دراسية فى أثناء اجراء العمليات الجراحية فى المستشفيات الكبرى أو فى أثناء تخدير المريض تخديرا موضعيا أو فى عموده الفقرى ، فيستمع اليها بسماعتين توضعان على أذنه ، فتخففان عنه وقع الشعور بأن الأطباء يمزقون بمباضعهم جسمه، كما دخلت الموسيقى اليوم المستشفيات فى البلاد الغربية للترويح عن المرضى والتفريج عنهم ، واتضح من التجارب التى يجريها الأطباء على هؤلاء المرضى أنهم ينامون نوما هادئا هنيئا ، وتسكن أعصابهم ، ويطمئن شعورهم، ويزداد تعلقهم بالحياة ، ويشرق امامهم الامل عقب سماعهم الموسيقى.

كما اخترع الدكتور المربست مقعدا موسيقيا لعيادة طبيب الاسنان يجلس عليه المريض فيصغى الى روائع النغم تنساب فى أذنه وتصرفه عما يكابده من ألم ويقاسيه من وجع فى أثناء خلع احدى أسنانه أو حقن لثته.

ويقول الدكتور البريجادير جنرال رالف دى فو مدير مستشفى هالوران : ان الموسيقى يجب أن تكون فى مقدمة وسائل التقاهة فى المستشفيات العسكرية .

وقد رأت مراكز الصليب الأحمر فى بروكلين وبوسطن وبفالو : ان عزف الموسيقى فى أثناء عمليات نقل الدم يأتى بنتائج باهرة ، ومن ثم لجأت الى هذه الطريقة فى كثير من العمليات حتى لا يصاب المتطوع بالاغماء فى أثناء اجراء هذه العملية .

الموسيقى فى المصانع الحربية

وأخيرا استطاعت الموسيقى أن تدخل المصانع الحربية ، فصارت بعض المصـانع فى أمريكا تذيع القطع الموسيقية عن طـريق الراديو أو الجرامافون فى أثناء القيام بالاعمال اليدوية، وعمد الى هذه الوسيلة أكثر

من ثلاثة آلاف من المصانع الحربية الأمريكية ، فبعثت فى العمال روح الإقبال على العمل بعزم ونشاط ، وصار العامل يشتغل فى عمله وهو صافى الذهن ، منشرح الصدر ، وضاء الأسارير .

وتدل الاحصائيات الرسمية التى أجراها الباحثون فى هذه المصانع على أن الانتاج ازداد عقب استخدام الموسيقى ازديادا ملحوظا ، كما بعد عن العمال التراخى والكسل ، وتفتحت مداركهم لشتى العمليات الصغيرة التى يقومون بها .

وقد استعانت المصانع الحربية بعلماء النفس وأقطاب الموسيقى فى اختيار المقطوعات الملائمة والمؤثرات الصوتية المناسبة ، فمما لا شك فيه أن الموسيقى التى يحب العامل أن يسمعها بمجرد أن يستأنف عمله فى الصباح الباكر تختلف عن الموسيقى التى يجب أن يسمعها وهو على أهبة الانتهاء من العمل أو الانصراف للغداء ، كما أن الموسيقى التى ينبغى أن يسمعها عقب تناوله الغداء تختلف فى تكوينها عن تلك الموسيقى التى ينبغى أن يسمعها وهو على وشك الانتهاء من عمله اليومى والذهاب الى دور الخيالة أو المسرح أو ما الى ذلك .

أثر الموسيقى فى العمال

وقام رتشموند كاردنل مدير أبحاث الموسيقى بالولايات المتحدة الأمريكية والدكتور هارولد موريس ماير بمباحث وتجارب واسعة النطاق لمعرفة مدى تأثير الموسيقى فى انتاج العمال ودرجات نشاطهم اليومى ، فاتضح أن الموسيقى انقصت حالات انصرافهم قبل الميعاد بمعدل ٦٦٪ وهبطت بحالات الغياب عن المصانع بنسبة ٨٧٪ وزادت نسبة الانتاج بمقدار ١١ر٤٪ واسفرت تجارب العالم الموسيقى رتشموند والطبيب هارولد على أن نسبة الشعور بالتعب والارهاق والصداع نقصت الى حد كبير كما راقبا العمال فى أثناء انهماكهم فى العمل، فاتضح لهما ان العمال قلما ينظرون الى الساعة المعلقة على الحائط أو يقطعون الوقت بالثرثرة وفارغ الكلام، كما أن الأساليب الحادة الجافة التى يستخدمها العمال بعضهم لبعض فى أثناء تبادل أدوات العمل أوشكت أن تختفى تماما ، وكذلك بعض العاملات امتنعن عن التشدق « باللبان » وشغلن بالموسيقى وانكببن على العمل فى شغف واخلاص .

وكان لهذه النتائج شأن كبير فى رفع مستوى المصنع وزيادة انتاجه زيادة ملحوظة مما اغتبط به الرؤساء اغتباطا شديدا ، فزادوا علاوات العمال الذين يشتغلون فى هذه المصانع ، فاشتد اقبالهم على العمل ، وعظمت رغبتهم فى انجازه على الوجه الأكمل .

الروس يستغيثون بالموسيقى

وزحفت الموسيقى بشكل ملحوظ الى كثير من المصانع الروسية . وللروس موسيقى خاصة ، قلما يرتاحون لسواها من الموسيقى (المقطوعات) الغربية .

ولذا كان عزف المقطوعات الشعبية الروسية شيئا يلذ العمال الروسيين الى حد كبير ، وأصيب أحد العمال الروس بصدمة عصبية فى أثناء العمل ، فلم يقو على الحركة ، فأخذ يضج ويصخب فى وجه زملائه ، ويتصور أنهم مقدمون على قتله ، ولم يهدأ روعه الا عندما عزفت له الموسيقى بعض القطع الروسية التى تعود أن يستمع اليها فى فترة معينة فى حياته .

ويستخدم أحد المصانع الحربية فى ألمانيا مقطوعات موسيقية معينة للعمال الذين يدخلون المستشفيات العسكرية : فمثلا أنشودة المسرة لبتهوفن وشوبرت تلائم المرضى بالملانكوليا أو الكآبة والانقباض كما أن قطعة فاجنر تلائم المرضى الذين يثورون لأتفه الأسباب .

أما من بهم أمراض نفسية خفية فيمكن معالجتهم تجريبيا بقطعة أتود ان سول ماجور من شوبان Etude en sol majeur أو قطعة السونات باثيتيك لبتهوفن .

وأثبتت التجارب العلمية أن قطعة « مالكوريزت » لفاجنر زادت فى حركة التنفس عند أحد عمال المصانع المرضى من ثمانى عشرة مرة فى الدقيقة الى ثلاثين مرة ، وكذلك زاد النبض عنده بعد أن كان بطيئا .

وحذا حذو المصانع الحربية كثير من المصانع المدنية والمطاعم ومصانع النسيج والعطور وأدوات الزينة فزاد انتاجها بصورة واضحة ملموسة .

ويجرى أصحاب المصانع تجارب متعددة لاختيار أحسن أنواع الموسيقى وأنسبها للعمال مستعينين فى ذلك بخبرة الاخصائيين ، واتضح أن أحسن أنواع الموسيقى فى المصانع هو الموسيقى الهادئة الوادعة الرقيقة التى لا تحمل الصخب ولا الضجيج ، ووجد البحاثة الطبيب فيرى Fairy أن الموسيقى السهلة تزيد فى تفتح الأوعية الدموية فى حين وجد أن العنيفة منها تضيقها .

واستحسن الأطباء استخدام الآلات الملائمة كالبيانو والكمنجة والكيلارنيت والناى فى معالجة العمال الذين يفدون الى المستشفيات لعلاجهم مما يشكون من المرض ، أما الهارمونيوم والشيلو والباس فوجدو أنها غير ملائمة للعلاج بالموسيقى .

واتضح من التجارب كذلك أن موسيقى الجازباند العالية الصاخبة تثير العمال فى أثناء قيامهم بالعمل ، وتبعث اليقظة فيهم مرة واحدة ، غير أنها لا تترك أثرها الا لمدة محدودة ولفترة وجيزة ثم يعود التراخى والخمول الى نفس العامل .

مدة اذاعة الموسيقى

والمتبع فى المصانع الامريكية أن اذاعة القطع الموسيقية فى أحد المصانع تشغل نحو ساعتين ونصف الساعة فى اليوم على فترات يتردد طول كل منها بين عشر دقائق وعشرين دقيقة ، ويعمد كثير من أصحاب المصانع الى تشجيع العمال لتكوين فرق موسيقية ترفه عن زملائهم فى أوقات الفراغ ، وتقوم باحياء حفلات موسيقية للعمل فى المواسم والاعياد وتصاحب بعض الفرق الرياضية فى الاندية والملاعب لتشجيع اللاعبين ، واثارة الحماسة فى نفوسهم واذكاء الروح المعنوية العالية فيهم ، بل لقد دلت بعض الاحصائيات الفنية الدقيقة التى أجريت فى بعض المصانع الأمريكية أخيرا أنه قد نبغ بين العمال فى المصانع لفيف كبير من هواة الموسيقى والغناء والتمثيل ، وانضم لفيف منهم الى ميدان المسرح والسينما فنال شهرة واسعة امتدت عبر البحار .

وهكذا استطاعت الموسيقى أن تغزو المصانع فى الولايات المتحدة كما غزت المصانع فى روسيا وسلكت سبيلها فى المؤسسات والمستشفيات المختلفة بل فى البنوك والمكاتب الهندسية المزدحمة بالموظفين مثل مكاتب مجلة ريدر ديجست وشركة توماس للنشر وغيرها ، وتضم هذه المؤسسات بين جنباتها مئات من الموظفين والخبراء والمهندسين والعمال الذين يقبلون على أعمالهم بنفس راضية مرضية ، وعزيمة وثابة لا تعرف الركود ولا الخمول .

الموسيقى فى مصر

ودخلت الموسيقى فى بعض المصانع فى مصر ، بل لقد دخلت فى بعض عيادات الأطباء مثل عيادة الدكتور محمد داود التنير الذى يعالج مرضى الأسنان على نغمات الموسيقى ، ولكن الموسيقى برغم هذا كله توجد على نطاق ضيق ونسبة ضئيلة ، وانا نأمل أن تستعين المصانع المختلفة بالموسيقى فى تشجيع العمال على العمل وترغيبهم فيه كما نأمل أن تستعين المصانع بالاخصائيين من علماء الموسيقى وعلماء النفس بل بالاطباء كذلك فى هذا المضمار حتى لا تكون النتيجة عكسيه وحتى لا تضر العامل بدلا من أن تنفعه ، وتدفعه خطوات الى الوراء بدلا من أن تأخذ بيديه قدما الى الامام ، فيشغل بالبحث عن الاغانى ، والمرذول من الموسيقى ، والمتهافت المتخثث من الألحان ، فتضعف عزيمته ، ويفتر جهده ، ويقل نشاطه ويفقد انشراحه للعمل .

وينبغى أن يهتم الأطباء بفائدة الموسيقى فى العلاج ، والمعروف أنه ظهرت فى هذا الميدان أبحاث شتى ، وقدم الفنان ماكس ريجر منذ سنوات الى جامعة برلين بحثا عن الموسيقى نال عليه درجة الدكتوراه ، كما استطاع الجراح الامريكى جون هوارد استخدام الموسيقى فى عمليات لم تكن تطرأ على بال مثل عمليات الزائدة الدودية وازالة « الحصاة » من الكلى .

عدم التخلف عن ركب الحضارة الحديثة

ان العلم يفتح لنا كل يوم آفاقا جديدة ، ويفسح أمامنا مجالات شتى ، فينبغى أن نساير ركب العلم ولا نتخلف عنه ، ونتابع موكب الحضارة ولا ننفر منه ، فتلك سنة الحياة ؛ ومبدأ الوجود ولابد أن نلحق بالركب ، ونستمتع بما يخرجه لنا العقل الانسانى من أبحاث جديدة ، وتجارب مفيدة تصلح بها حياتنا وننظم بها كياننا ونثبت بها وجودنا فالركب يمضى ... والكلاب تعوى .. والقافلة تسير ...

الضمان الاجتماعى والتأمينات الاجتماعية
بين الشرق والغرب

كانت التأمينات الاجتماعية خطوة مبـــاركة فى حيـــاة الافراد بل فى حياة الاسرة جمعاء . وقد اتخذت فى العهـد الاشتراكى الجـديد صـورة واضحة المعالم . متألقـة الجنبات تختلف عن مشروع الضمان الاجتماعى القديم .

والواقع أن الضمان الاجتماعى عرف منذ قديم الزمن وان اختلفت الصورة التى تراءى عليها فى العصر الحديث، فمن يرجع الى تاريخ الفراعنة يجد أنهم كانوا يعرفونه ، ولكن بصورة محدودة ومبسطة ، فلما انبثق نور الاسلام تحققت مبادىء هذا النظام وأهدافه ، وكانت الزكاة أول أسس الضمان الاجتماعى فى الاسلام وأهمها ، وهى الركن الثالث للاســلام ، وفريضة من الفرائض التى حث عليها القرآن الكريم فى أكثر من سبعين موضعا كما وردت فى أحاديث كثيرة عن الرسول الكريم .

أما مصارف الزكاة فكانت وفق الآية الكريمة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

ويرى بعض الفقهاء أن حد الفقر المسموغ لاستحقاق الزكاة هـو ألا يملك الشخص قوت يومه وليله ، ويرى مذهب الحنفية أن الفقير من لايملك نصاب الزكاة .

كما كان الوقف فى الاسلام بابا من أبواب الضمان الاجتماعى .

والوقف فى نظر الفقهاء هو حبس العين على أن تكون مملوكة لاحد من الناس فيجعلها على ملك الله تعالى . ويتصدق بريعها على جهة من جهات الخير فى الحال أو المآل .

كما أن النفقة عنصر من عناصر الضمان الاجتماعى فى الاسلام ، والنفقة فى العرف الغالب بين فقهاء الشريعة الاسلامية هى الطعام ، ولكن يعطفون عليها السكنى والكسوة .

وهناك أحوال ثلاث تجب فيها النفقة وهى الزوجة ، والقرابة والملك، وشروط وجوبها أن يكون المنفق عليه معسرا أو عاجزا عن الكسب .

هذه وجوه بعض الضمان الاجتماعى فى الاسلام ، أما فى الغرب فقد عرف الضمان الاجتماعى منذ عام ١٦٠١ حين صدور قانون يسمى قانون الفقير .

ثم عرف باسم التأمين الاجتماعى عندما وضع بسمارك قانون التأمين

ضد المرض عام ١٨٨٣ وقانون التأمين ضد حوادث العمل عام ١٨٨٤ وقانون التأمين ضد الشيخوخة والعجز عام ١٨٨٩ .

وقد كان من نتيجة الثورة الصناعية التى غزت أوروبا أن انتشر استعمال الالات وتسابق أصحاب الاعمال الى اقتناء الآلات الجديدة . والادوات الميكانيكية ، فى شتى الشركات التجارية أو الصناعية ، وكان من جراء ذلك أن ازداد الانتاج بصورة ملحوظة ، وتوافرت كمياته ، بيد أن ذلك أصبح خطرا يهدد العامل فى الصميم ، اذ أن الصناعة اليدوية أخذت تتقهقر الى الوراء ، وأخذت تختفى معالمها من المجتمع الصناعى الجديد رويدا رويدا ، وانهارت الصناعات الصغيرة التى كان يعمل فيها عدد كبير من العمال ، وتغيرت تبعا لذلك العلاقات التى تربط بين العمال بأصحاب الأعمال ، وأصبحت البطالة شبحا رهيبا يهدد العامل بين الحين والحين .

وتكاتف العمال بعد ذلك للوصول الى مطالبهم ، ومحاربة الظلم النازل بهم ، واندلعت الثورات ثورة اثر أخرى فى أوربا ، وحاولت الحكومات المستبدة أن تكبت شعور الرأى العام بين العمال ، بيد أنهم لم تلن لهم قناة ، فى المطالبة بحقوقهم حتى خرجت الى الوجود نظم جديدة تكفل لهم حياة كريمة ، ومنها نظام جمعيات الاعانة التبادلية ونظام التوفير ونظام التقاعد ونظام التأمين ضد حوادث العمل .

وأصبح تشكيل الجمعيات العمومية التبادلية اكثر سهولة وحرية عقب الثورة الفرنسية .

وتحت تأثير فكرة التأمين الاجتماعى وقوة الطبقة العاملة فى أواخر القرن الماضى أتيح لهذه الجمعيات تأسيس صناديق للتأمين ضد الشيخوخة دون شرط الضمان الرسمى الذى كان مفروضا عليها قبل ذلك حتى تتمكن من مزاولة التأمين ، كما أجيز لها القيام بالتأمين التبادلى فى حالات الموت والاصابات والامراض .

وقد استعملت عبارة الضمان الاجتماعى منذ سنوات غير مقيدة فى مضمار التكافل الاجتماعى ، واستعملها الرئيس روزفلت عقب ذلك فى رسالة الى الكونجرس منذ ذلك التاريخ . بيد أن الضمان الاجتماعى فى مختلف صوره وتعدد تعاريفه يعنى التخلص من العوز بأن يكفل لكل مواطن مستعد للخدمة على حسب طاقته دخلا كافيا فى كل الاوقات لمواجهة تبعاته .

كما يرى السير وليم بيفردج فى تقريره عن التأمينات الاجتماعية أنه يقصد باصطلاح الضمان الاجتماعى ، ضمان حصول الفرد على دخل يحل محل أجره عندما ينقطع هذا الأجر بسبب التعطل أو المرض أو الاصابة ، وعلى معاش تقاعد فى حالة الشيخوخة ، وعلى اعانة فى حالة وفاة العائل ، وسد النفقات الاستثنائية كما هى فى حالات الوضع والوفاة والزواج .

والضمان الاقتصادى فضلا عن فوائده للمستفيد منه يعمل على التنمية الاقتصادية فى الدول المتخلفة اقتصاديا كما أنه يدعم ويوسع التقدم الاقتصادى فى الدول المتقدمة اقتصاديا ، اذ يرفع مستوى الثقافة والصحة والمعيشة ، وهذا يؤدى الى التقدم الاجتماعى والاقتصادى فيرفع عن العمال عامل التعرض الى المخاطر وعامل الخوف من أحداث الزمان ونوائب الدهر ،

فان العامل القلق قلما ينتج ، اذ يظل مبلبل الخاطر على مستقبله ومستقبل أسرته ، كما أن الفقر يؤثر تاثيرا سيئا على كرامته وانسانيته . فجاء الضمان الاجتماعى وقرر صيانة الكرامة للانسان ، لأنه ينمى فى الفرد روح الاعتماد على النفس والاعتداد بها ودفع بواعث الاستكانة ودفع الخمول . ويساهم فى رفع كفايات امكانيات الافراد الانتاجية .

ويعمل الضمان الاجتماعى كذلك على تخفيف النفقات بين الدخول الفردية ، لأن الدول الغنية ستحدد المعونة للدول الفقيرة وبذلك يرتفع مستوى المعيشة والقوى الانتاجية .

ويمكن استثمار أموال الضمان الاجتماعى فى المشروعات الاقتصادية أو الاجتماعية كتأسيس مشروعات لصنع الأدوية أو الاعانات الأخرى التى يقترحها الضمان للأفراد بصورة عينية ، كما يمكن ايجاد أبواب جديدة للاكتساب والارتزاق والنشاط الاقتصادى على وجه العموم حتى قيل : « ان أموال الضمان أموال استثمار أو رأس مال استثمار بدل أموال مدخرة » .

أما التأمين الاجتماعى فقد كفل حياة كريمة للافراد وليس صحيحا انه غدا خطرا للافراد والمؤسسات التأمينية الفردية فى مجال النشاط الاقتصادى ، لان هذا يصح أن يكون فى مجتمع رأسمالى ، أما المجتمع الاشتراكى فلا يتحقق فيه ذلك كما هو الحال فى بعض البلاد الرأسمالية التى تركت اصابات العمل بلا تأمين حتى تستفيد الشركات التأمينية من التأمين ضدها .

وليس بصحيح أن التأمين الاجتماعى كذلك أدى الى زيادة حوادث العمل ، اذ أن الاحصائيات الأخيرة أثبتت أن هذه الحوادث فى تناقص مستمر فضلا عن أن التقدم الطبى يقوم بدور كبير فى هذا المضمار ، فقلل عدد الحوادث المؤدية الى العطل الدائم الكلى . وليس بصحيح كذلك أن عدد القضايا قد زاد نتيجة لاستخدام هذا التأمين اذ أن أغلب هذه القضايا يدور حول درجة العطل لغرض تعيين مقدار الاعانة .

وقد نص الدستور المصرى الذى صدر فى ١٧ من يناير سنة ١٩٦١ على ضمان العمل للجميع مع جميع الخدمات الثقافية والصحية ، كما أنه قرر فى المادة ٢٣ التضامن بين الافراد فى تحمل أعباء الكوارث والمخاطر العامة، وقرر لهم الاعانات فى حالة الشيخوخة والمرض والعجز عن العمل ، وأوجب على الدولة أن تكفل وجود التأمين الاجتماعى والمعونة الاجتماعية بصورة واضحة .

وفى العهد الاشتراكى الجديد استحالت الآمال الى حقائق ، وهذه الاحلام الى وقائع ، وخرج نظام التأمين الاجتماعى الى الوجود بفضل السيد الرئيس «جمال عبد الناصر» الذى قال : « الاشتراكية الديمقراطية التعاونية طابع يشكله دور الافراد فى تقرير مصيرهم ، ومن أجل ذلك لا تستطيع الاشتراكية الديمقراطية التعاونية أن تنشأ الا فى مجتمع متحرر من جميع أنواع الاستغلال والسيطرة ، مجتمع تتحرك طاقته بلا أغلال ، واعية حقيقة دورها ، مدركة أنها ستجنى من الثمرات بقدر ما تعمل .. فما من أحد يكدح وغيره يجنى ، وما من أحد يستمتع بثمرات عرق الآخرين .... ! »

كاتب غربى
داخل افريقية

هذا كتاب نفيس ألفه الكاتب الأمريكى المشهور جون جونثر وهو ضمن مجموعة كتبه القيمة التى صور فيها رحلاته عبر العالم ومنها كتاب داخل أوربا وكتاب داخل آسيا وكتاب داخل الولايات المتحدة الامريكية وكتاب داخل أمريكا اللاتينية ٠

وكتاب « داخل افريقية » يسير على النمط الذى اتخذه لمؤلفاته جميعا وهو يمضى وفق الاسلوب الصحفى الجذاب والمعلومات الاخبارية المثيرة والرغبة فى التشويق ٠ زد على ذلك أنه يحاول أن يوجه النقدات تلو النقدات لما يرى ويسمع وهو فى أثناء ذلك كله يعطى كل ذى حق حقه دون أن يكون متعصبا أو متجنيا أو متحاملا ٠ اللهم الا فى بعض الأحيان كقوله ان الجزائر جزء من فرنسا كما سيأتى وهو قول هراء ٠

وقد تكلم جون جنتر فى هذا الكتاب على دول افريقية ، وطاف بنا بين جنباتها ، وانتقل بنا بين ليبيا والجزائر وتونس وسافر بنا فى الصحراء ، وانحدر بنا الى أعماق أفريقية حيث تضىء القارة المظلمة ، ففى افريقية فكر على أكبر نطاق على حد تعبير سيسل دروس ، وبين أن افريقية مستودع هام للمواد الأولية ولم يكد يتم استغلال ما يزيد عن الطبقة السطحية من أرضها الى اليوم ، ومع ذلك فانها تنتج مايقرب من ٩٨٪ من انتاج العالم فى الماس و ٥٥٪ من ذهبه و ٢٢٪ من نحاسه مع كميات ضخمة من معادن جوهرية هامة كالمنجنيز والكروم والأورانيوم ، كما تنتج أفريقية حوالى انتاج ثلثى العالم من الكاكاو وثلاثة أخماس زيت النخيل ، وفيها احتياطيات لا نهاية لها من القوة المائية ٠

ويتكلم سكان افريقية حوالى ٧٠٠ لغة رئيسية مختلفة وتتضمن ١٠ لغـــات سامية و ٤٣٧ حامية و ١٨٢ للبانتو وليس أقل من ٢٦٤ سودانية ٠

أما بالنسبة الى الاديان فيقول جون جونتر فى كتبه : ان أهم الديانات فى افريقية الاسلام والوثنية أو عبادة الحيوانات والمسيحية ويقول : ان هناك نحو ٦٠ مليون مسلم يتركز أغلبهم على الشاطئين الشمالى والشرقى و ١١٢ مليون وثنى و ٢١ مليون مسيحى ٠

بيد أن الاحصائيات التى ذكرها جون جونتر غير دقيقة لانه لم تجر حتى الآن احصائيات دقيقة بالنسبة الى الاديان ، غير أنه يمكن اعتبار هذه الارقام تقريبية ٠

وقد دافع جون جونتر دفاعا طيبا عن الافريقيين الذين رماهم الاستعمار بالتأخر وعدم مسايرة المدنية واقترافهم المنكرات فقال :

لابد لنا عندما نذكر شيئا عن تأخر افريقية أن نذكر أنه كان الى عهد قريب فى ولاية كانتوكى ٤١٫٦٣٣ منزلا ليست فيها دورة مياه ـ وفى بورتوريكو البالغ عدد سكانها مليونين وربع المليون لا يوجد أكثر من ٤٩٧ طبيبا وأن مليونا ونصف المليون من الشبان الامريكيين رفض قبولهم فى الحرب العالمية الثانية لجهلهم القراءة والكتابة ، وان سيارة تسرق فى أمريكا كل دقيقتين ، وان ٣٤٫٧٦٣ مواطنا أمريكيا قتلوا فى حوادث السيارات عام ١٩٥٤ ٠

وتحدث جون جونتر عن الجمهورية السودانية فذكر عنها بعض الحقائق : منها أن مساحتها ٩٦٧٫٥٠٠ ميل مربع أى ثلث مساحة الولايات المتحدة الامريكية وتمثل الكاتب برأى وندل وياسكى فى حل مشكلة الاستعمار فى افريقية اذ يقول : ان مشكلة الاستعمار لا يمكن حلها الا بتوزيع الثروة فى كل مكان ٠

كما قال ان هناك تيارا جارفا فى افريقية لتكون افريقية للافريقيين ، فان القوميين الافريقيين يؤمنون بأنهم يجب أن يبدأوا فى حكم أنفسهم من الآن ، وأن يتعلموا فن الحكم بممارسته ، وأنه خير لهم أن تقوم منهم حكومة سيئة الحكم من أن تقوم حكومة أفضل من الدخلاء البيض ، فان الطريق الوحيد لتعلم المشى هو الزحف ٠

وقال : ان الافريقيين فى القارة يتظلمون من الأوربيين الذين خنقوا التعليم تماما فى معظم أنحاء افريقية ، ويكفى دلالة على ذلك أنه كان لا يوجد فى كينيا سوى ٣٥ مدرسة ثانوية للسكان الافريقيين البالغ عددهم ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ ، أما عدد الطلاب المقيدين فى هذه المدارس فلا يزيد عن ٣٫٥٥٥ ولدا و ٤٥١ بنتا ، كما أنهم يتظلمون من الاستغلال الاقتصادى ، اذ أن الاوروبيين فى « جنوب افريقية » يستخرجون من التربة الافريقية ما تقدر قيمته بعدة مئات من ملايين الدولارات فى كل سنة ، وان أصحاب مناجم الذهب هذه لا يدفعون لعمالهم من الاجور الا ما يتردد بين ٣٣ سنتا الى ٤٢ سنتا فى اليوم أى مايتردد بين ١٣ قرشا الى ١٦ قرشا يوميا ٠

وهذه الحقيقة المريرة موجودة للعيان ، ويلمسها الباحث المدقق فى أنحاء شتى من افريقية ٠

وصعد جون جونتر الى شمالى افريقية ، فوصف المغرب والجزائر وتونس ، وذكر أن بعض الاوروبيين يعتقدون أن هذه المناطق امتداد لفرنسا نفسها سياسيا واقتصاديا وحربيا ووجدانيا ٠ وقد وصف الجنرال جيوم دولة المغرب ذات يوم بأنها كسرة منفصلة من القارة الاوربية ، بيد أن أهل شمالى افريقية فى الواقع عرب سدى ولحمة ، ولا بد لهم من الاحتفاظ بعروبتهم ، ولابد لتيار القومية العربية أن يكتسح كل تيار ٠

وقد وصف جون جونتر دول شمالى افريقية وصفا جميلا ، وأعطانا

ملامح براقة من تاريخها السياسى ، وقال : ان الرباط هى عاصمة المغرب ويبلغ عدد سكانها نحو ١٦١ر٤١٦ نسمة ، وهى مقر السلطان وفيها شوارع واسعة جميلة وبيوت أنيقة غارقة بين الأشجار المزهرة ، ويقول جون جونتر: ان الاسم الصحيح للرباط هو « رباط الفتح » أى معسكر النصر ، وفيها آثار عربية ترجع الى القرن الثامن عشر ، وتشبه الرباط الى حد بعيد مدينة واشنطون .

أما الدار البيضـــاء الكبيرة فتشبه مدينة نيويورك ، ويبلغ عدد سكانها حوالى ٦٠٠ ألف ، ومنذ اربعين سنة كانت الدار البيضاء عبارة عن مجموعة من أكواخ الصيادين وهى اليوم تشبه الى حد كبير ريودى جانيرو ، أو حتى ميامى ، ولها وجهة مؤلفة من المبانى البيضاء يبرق فى معظمها الزجاج ، وتتعلق فيها الشرفات العصرية البناء المطلة على البحر .

أما مدينة مراكش فيبلغ عدد سكانها ٢٣٧ ٢٣٨ نسمة ، وهى أكبر مدينة فى المغرب ، وبها فندق من أعظم فنادق العالم من حيث توافر الاقامة المريحة والمناظر الشاعرية ويسمى فندق « المأمونية » وتحمل مدينة مراكش الطابع الافريقى البحت : فشوارعها أقل رصفا وتمهيدا من شوارع فاس ، وأسواقها تستطيع أن ترى فى أثناء سيرك السماء من خلل السقف ، كمـا لو كنت تنظر بين فرجـات خيمة ، وبالجملة فانك تشعر بها طول الوقت وكأنك فى صميم صحرائها الكبرى .

أما بالنسبة لاقتصاديات مراكش فذكر جون جونتر منها عددا كبيرا وقال : ان هناك مشروعا لاستخدام القوى الكهربية المائية على نطاق واسع ، وقد بنيت خزانات كبيرة بالفعل لهذا الغرض لوجود عجز كبير فى الفحم وللحاجة الملحة الى المزيد من القوة المحركة .

ويضيف جون جونتر الى ذلك قوله : ربما كانت مراكش نفسها غير خصبة غير أن أهلها مخصبون .

وبعد الحديث عن مراكش مضى جون جونتر يتحدث عن تونس والجزائر ، وذكر أن ثلث سكان العالم من العرب يقطنون فى منطقة شمالى أفريقية ، وتنتشر العقيدة الاسلامية هناك انتشارا واسعا وفى ذلك يقول العالم «آلن . هـ . برودريك» : «الاسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب التبشيرية الذى لم يضعف فى الارض التى نبت فيها ، ويلاحظ أنه عندما يفتح الدين الاسلامى بلدا ما يظفر به كلية فانه لم يحدث ليومنا هذا أنه أخرج منها » .

وقد تمكن الاسلام من بلاد شمالى افريقية تمكنا شديدا ، ويحافظ أغلب المسلمين على تعاليم دينهم ، بيـد أن الشىء الذى أثاره أنه رأى فى بعض بلاد الشرق الاوســط مسلمين يشربون الخمر بشراهة كالارلنديين تماما . أما فى مراكش فلم يلحظ جون جونتر هذه الظاهرة . ويحـدث أحيانا أن تقابل شابا مغامرا يرتشف كأسا من الخمر ولكنه ما ان يفعل ذلك حتى يصاب بالدوار ويستولى على نفسه الخجل والشعور بالاثم .

وقد حاد جون جونتر عن الحق عندما ذكر أن الجزائر جزء أساسى

من فرنسا برغم انفصالها عنها جغرافيا وأن سكان الجزائر الافريقيين مواطنون فرنسيون بكل مايتضمنه تعبير المواطن من الناحيه الفنيه من معنى ، فقد تناسى تاريخ الجزائر ، ونسى القبائل العربيـــة المنتشرة فى شتى أنحاء الجزائر ، كما نسى تلك الهجرات الاولى التى قام بهـا العرب منذ فجر التاريخ ، وكذلك نسى ذلك التاريخ المشترك الذى يجمع الجزائريين بالعرب منذ أبعد الحقب ، وتلك اللغة التى تجمع أبناء الجزائر بالقومية العربية برغم تلك المحاولات الكثيرة التى يقوم بها المســتعمر لاغفالها ، وعدم تعليمها فى المدارس حتى ينشأ الطفل وهو لا يعـــرف لغـة آبائه وأجداده الاولين ، كمـــا أن جون جونتر نفسه نسى أنه ذكر أن الاسلام اذا تمكن من أرض فهيهات أن يقتلع وهناك غالبية من العرب المسلمين فى هذه المناطق ولا يمكن تجاهل دورهم فى بناء الكيان الوطنى ٠

بيد ان جون جونتر أزاح القناع عن كثير من الاساليب الاستعمارية التى يستخدمها الفرنسيون فى الجزائر من أجل تحطيم كل محـــاولة للنهوض ، ومن ذلك أن حكومة باريس لم تفكر فى دفع مليم واحد لتعليم العرب حتى عهد قريب ، ويذهب سدس الاطفال العرب فقط الى المدارس حينما يبلغون سن التعليم حتى أن أكثر من مليون طفل محروم من فرص التعليم ٠

وتبلغ مساحة الجزائر ٨٤٧ر٣٠٠ ميل مربع أى حـــوالى أربعة أضعاف مساحة فرنسا ، ويبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين يحـــاول المستعمر بكل طاقة ممكنة أن يستغلهم لمصالحه الخاصة فى فرنســـا ، بيد أنها استقلت أخيرا ٠

أما تونس فقد ظفرت بالاستقلال ، وتبلغ مساحتها نحو ٤٨ر١٩٥ ميلا مربعا وعدد سكانها ٣ر٦٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ويختلف حاكم تونس عن ملك المغرب فى عدة أمور هامة منها أنه ليس من الاشراف أى ليس من نسل النبى ٠

أما ليبيا فهى دولة ناشئة تسير فى طريق التقدم والتطور ، وتطل على البحر الابيض لكنها تمتد بعمق فى الصحراء الكبرى وتخلو تماما من الانهار ، وتعتبر أكبر حجما من أوربا الغربية وتبلغ خمس حجم الولايات المتحدة غير أن معظم هذه المساحة الهائلة صحراء لا قيمة لها ٠ ولا يقطن هذه المساحة الواسعة سوى ١ر١٥٠ر٠٠٠ نسمة معظمهم بدو رحـــل ، والخطوط الحديدية لا يزيد طولها على ٢٢٥ ميـــلا ، بيد ان هذه الدولة الناشئة لا بد أن تعيش وليس من سبب يمنعها من ذلك ٠ فان كانت ضعيفة وجب اعطاؤها دعامة لتقويتها ، وهى فى الواقع آخـذة فعلا فى السير قدما بهمة ونشاط ٠

هذا طرف من الحديث الذى تضمنه كتاب « داخل افريقية »للكاتب الامريكى جون جونتر ، وهو كما نرى منصف حينا وغير منصف حينا آخر غير ان حديثه يدعو الى القراءة ويبعث على التأمل والتفكير ٠

سندباد بحرى جديد حول افريقية

انه ملاح عظيم وجواب آفاق قهر البحار ... من القرن الخامس عشر الميلادى أو من القرن التاسع الهجرى الا انه ملاح جديد لان البحث العلمى لم يهتد اليه الا منذ فترة وجيزة فقد عثرت على مخطوط مصور منقول عن المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩ كتبه أحد البحارة الذين اشتركوا مع الرحالة البرتغالى الذائع الصيت فاسكودى جاما فى رحلة حول رأس الرجاء الصالح وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد

وكتاب ابن ماجد هذا يسمى « الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد ... والاراجيز والقصائد » وهو أحد الكتب التى استخرجها واهتم بتصويرها أحد العلماء فى فرنسا ضمن مجموعة مكونة من أربعة كتب عن الملاحة عند العرب : وهى كتاب الفوائد لابن ماجد ، وكتاب الفوائد فى الملاحة لسليمان النهرى ، وترجمة الاقسام الجغرافية فى المخطوطات المذكورة وشرحها مع تفسير الاصطلاحات العربية فى فن الملاحة ، وتراجم بعض الادلاء القدماء البرتغاليين .

وغنى عن البيان أن الدول الموحدة فى أوربا اتجهت نحو توسيع أملاكها فى هذا العصر داخل القارة على حين اتجهت الدول القائمة فى شبه الجزيرة الاسبانية بطبيعة مركزها الى التوسع فيما وراء البحار والاستيلاء على موارد التجارة الشرقية التى كانت تدر الربح الوافر ، وكانت التجارة فى يد الغرب والهنود ينقلونها الى أوربا بطريقين : أحدهما يخترق آسيا الوسطى الى البحر الاسود ، والآخر يخترق المحيط الهندى والبحر الاحمر الى السويس فالاسكندرية والبحر الابيض ، فلما قامت فكرة الدوران حول رأس الرجاء الصالح وأذن الملك أمانويل لفاسكودى جاما بتنفيذ الفكرة فكر فى ربان عربى يهديه فى رحلته ، ويكون على المام تام بالمحيط الهندى على الخصوص ، وقد وجد فى شخصية ابن ماجد ضالته المفقودة وعونه على ارتياد البحار المجهولة .

وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية الى معاونة بعض البحارة الهنود لفاسكودى جاما ، ومن المرجح أن يكون هؤلاء البحارة من العرب وعلى رأسهم ابن ماجد ، اذ ثبت لبعض علماء العرب أن فاسكودى جاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الارض الذى أبحر من تاجوس فى ٩ من يوليه سنة ١٤٩٧ فى منطقة مالندى على ساحل افريقية الشرقية الى فاليفوت فى الهند .

وقد استطاعت سفن فاسكو دى جاما أن تتغلب على الانواء والاعاصير التى منعت بارتليمودياز من التقدم ومتابعة رحلته ، فعاد أدراجه مع رجاله بعد أن كانوا على وشك الهلاك . وعندما عاد فاسكو دى جاما الى البرتغال فى سبتمبر عام ١٤٩٩ كان يحمل لابن ماجد فضلا لا ينسى ومعروفا لا ينكر .

دراسة علم البحار

وقد لقب المستشرق الفرنسى جبريل فران ابن ماجد بأسد البحار وربان فاسكو دى جاما ٠

والواقع أن من يتناول كتابه المخطوط يلاحظ مدى تفوقه فى دراسة علم البحار وطوفانه فى أنحاء مختلفة من أرجاء العالم ، فقد أتى على وصف جميل لكثير من البلاد التى طاف حولها أو نزل فيها فى أسفاره : كساحل الهند الغربية وشبه جزيرة العرب وجزيرة مدغشقر وسومطرة وفرموزة وسيلان وزنجبار ، كما ضمنه طريق سير السفن فى البحر لمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة وأصول الملاحة وحجر المغناطيس وأقسام الابرة المغناطيسية ٠

وقد ختم كتابه « بحاوية » تشمل أراجيزه وقصائده كأرجوزته عن الملاحة فى خليج عدن عام ١٤٨٥ ومعرفة القبلة عند العرب والاستدلال عن النجوم وذكر المراسى على ساحل الهند الغربية وأرجوزته فى فوائد لبعض النجوم الشمالية فى سير السفن وأرجوزة الضرائب فى ذكر الكواكب النافعة فى الملاحة ، وهى فى ١٩٢ بيتا ، وأرجوزته المنسوبة لعلى ابن أبى طالب فى معرفة منازل القمر وحقيقتها فى السماء وأشكالها وعددها وأوصافها ، وأرجوزة « الهاوية » فى النجوم التى توافق رسو السفن فى وصف المراسى ٠ وأرجوزته فى الضفدع والاسماك والحيتان، وأرجوزته فى الصخور البحرية وأعماله وغير ذلك من الاراجيز الطريفة التى تشتمل على تجارب ابن ماجد فى مضمار الملاحة وعلو كعبه فى هذا الميدان ٠

ومن طريف ما ذكره عن علم ركوب البحار : « اعلم أيها الطالب أن لركوب البحار أسبابا كثيرة ، فأفهمها ، فأولها معرفة المنازل والاضفاف والمدير والمسافات والباشيات والقياس والاشارات وحلول الشمس والقمر والأرياح وأسمائها ومواسم البحر وآلات السفينة وما تحتاج اليه وما يضرها وما ينفعها وما يضطر اليه فى ركوبها ٠

وينبغى أن تعرف المطالع والاستويات وحالة القياس ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها ، وينبغى أن تعرف ما فى الاعماق كالطين والحشيش والحيتان ومد البحر وجزره وآلات السفينة » ٠

واشتمل كتابه كذلك على الآداب التى ينبغى أن يتوخاها المسافرون فى البحر مما يعد دستورا طيبا للبحارة والمسافرين فقال :

« ينبغى أنك اذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة فانك فى السفينة ضيف من أضياف البارىء عز وجل فلا تغفل عن ذكره ، فانه شديد العقاب وانه لغفور رحيم لانه يمهل ولا يهمل فلا يغرنكم بالله الغرور واترك ما يعنيك وانه جميع الركاب عن كثرة المزاح فى البحر ، فما ينتج منه الا الشر والبغض والعداوات ومن أكثر منه لم يخل من حقد عليه أو بغض له أو استخفاف به » ٠

ثم يوجه ابن ماجد بعد ذلك الخطاب الى ربان السفينة فى تأكيد وتصميم : « ولا تركب سفينة الدلالة والهداية وأنت فيها غير مطاع ولا تأخذ دركها على نفسك درج الدلالة فلا تكن الا مطاعا ، وهذب الرأى فان ركوب البحر عند من لا يسير مسبره صعب فى بر أو بحر » .

اقامتى بين من لا يقتفى أثرى ... أمر من خطرات البحر فى المطر
دعنى بفلك أقاسيها على خطر ... فانها خير من صحب على خطر
ذى آية الله مثوى لى ومصطحبى ... رب كريم وعون المرء فى السفر
أنفقت عمرى على علم عرفت به ... فازددت بالعلم توقيرى على كبر

(ص ٥٩ مخطوط باريس)

معرفة القبلة

وقد أتى لنا ابن ماجد فى كتابه على طرق لمعرفة القبلة ونظم هذه الطرق فى أرجوزة من أراجيزه الطريفة وقدمها بمقدمة نثرية يقول فى أولها :

لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم أصل يعرفونها به خصوصا فى المدن اللواتى بقرب البحر وجزره التى يمر بها المسافر نظمت هذه الارجوزة وأقمتها بأوضح الادلة وأسهلها بأربعة وجوه :

الوجه الأول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذى فيه الانسان وعرضها .

والوجه الثانى على الجدى

والثالث على بيت الابرة .

والرابع على جهات الكعبة الاربع .

ويحتوى كتاب الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد على تغييرات علمية كثيرة فى علم الفلك والنجوم وقد أشاد فران فى مقدمته الى أن ابن ماجد لا جناح عليه فى استعمال هذه الاصطلاحات لانه بحار ، وقد كتب كتابه الى بحارين مثله ، غير أن ابن ماجد كان يشعر دائما بأنه لا يزال عند أبواب المعرفة فكان يقول :

يأيها الناس مهما شئتمو قولوا ... الارض معلومة والبحر مجهول

وكان فى بعض الاحيان يزهو بعلمه ويفخر بتجاربه الكثيرة فيقول :

فان تجهلوا يا قوم قدرى فانما ... سيأتى رجال بعدكم عارفو قدرى
بطول الذى قاسيت شرقا ومغربا ... وقست شمالا أو جنوبا الى القمر

***

فينبغى للانسان أن يعرف الشر أكثر مما يعرف الخير لان الخير للزيادة ومعرفة الشر للوقاية ، وكأنما أدرك ابن ماجد فى هذه العبارة أن

العلم ضرورة ، غير أن هناك علوما لا بد من معرفتها وان كانت الشجى فى الحلوق ٠

وقد وصف ابن ماجد فى كتابه البحر الاحمر وصفا جيدا ، غير انه ادعى أنه أكبر البحور ، ولعل ذلك يرجع الى قلة الآلات المستعملة وقت ذاك فى المساحة وقيل : ان ابن ماجد قد اخترع الابرة المغناطيسية ، كما ذكر برتن الانجليزى ان بحارة عدن فى سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون الفاتحة اكراما للشيخ ماجد ٠

ومهما يكن من شىء ، فان هذا المخطوط الذى بين أيدينا يلقى كثيرا من الاضواء على ربان عربى كان له شأن عظيم فى الملاحة وكان من أبرز المعاونين للرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما فى رحلته حول رأس الرجاء الصالح ، كما يلقى الاضواء على علم البحار مثلما يراه ذلك الربان العربى وكما كتبه فى أسلوب نثرى حينا وأسلوب شعرى حينا آخر حتى يكون أقرب حفظا عند البحارة وأشد مساسا لقلوبهم وعقولهم جميعا ٠

حديث فى الصحافة
لعالم غربى

يعد الكاتب الصحفى الانجليزى ويكهم ستيد Wichham Steed من أعلام الصحافة فى العصر الحديث ، وقد عمل فى الصحافة مدة طويلة وقام بنصيب مشكور فى خدمة صاحبة الجلالة فخبرها خبرة واسعة ووصل فى ميدانها الى غاية بعيدة حيث أشرف على تحرير جريدة التيمس الانجليزية فترة طويلة من الزمان ، ودام عمله فى الصحافة خمسين عاما ، فتعلم الاختزال وأتقنه ، وخبر التحرير وأحسنه،وعرف كيف يلج المجتمعات ويحضر المحاضرات ، وقد ألف ويكهم ستيد كتابين فى الصحافة سمى الاول The press كما سمى الكتاب الآخر Journalism ، وله غير هذين الكتابين كتب أخرى ومقالات جميلة فى الصحف ، وقد لجأ ويكهم ستيد الى الصحفى الكبير ى٠ت٠ستيد يسأله النصح فى ميدان الصحافة فقال ستيد لستيد :

(كل ما يحضرك فى الكتابة فأسرع ودونه وبعد أن تدونه تصور أنك سوف ترسله بالبرق وأنت فى بلدك انجلترا الى استراليا على نفقتك الخاصة بحيث تكلفك الكلمة الواحدة شلنا ، وعلى هذا ينبغى أن تحذف ما لا فائدة منه ولا غناء فيه وستجد فى النهاية أنك حذفت كثيرا وأبقيت قليلا ، ولكن هذا القليل هو ما ينبغى أن ترسله الى صحيفتك) ٠

هذه هى نصيحة رجل صحفى قديم من أساطين الصحافة أرخ حياته فردريك وايت : Fredric Whyte فى مجلدين لويكهم ستيد ،فالصحافة اذن لا تقبل المراوغة ولا المداورة ، ولا تحتمل الاسهاب ولا الاطناب ، ولا ترغب فى دوران الجمل الكثيرة حول معنى واحد ، انما تريد الصحافة شيئا سهلا يسيرا قصيرا يقبله القارىء ، فى سهولة ويسر دون أن يكلف نفسه عناء القراءة ودون أن يكلف كاتبه عناء الكتابة كذلك فيستريح ويريح ٠

وقد بين ويكهم ستيد مهمة الصحافة فى جمع الاخبار التى تهم الرأى العام واعلانها وتفسيرها ، وهذه المهمة مفيدة قيمة ما فى هذا شك وفيها كثير من المسئولية ، ولكن فيها أيضا كثيرا من الشرف والفخار :

فمنذ فجر التاريخ ومنذ مستهل الحياة فى هذه المعمورة ولا نستطيع أن نعين بالتحديد ذلك الوقت الذى قامت فيه الأخبار بدور حيوى كبير فى حياة الانسان بل وفى حياة الحيوان أيضا ، فمجرد اتقاء الحيوانات للخطر ما هو الا (أخبار) بذلك ، وكذلك الحال فى المجتمعات المتحضرة ، فالحكام يحاولون أن يستشفوا الاخبار الوثيقة والبيانات الصحيحة عن الشئون المؤثرة فى

مصلحتهم ، ولذلك وجد السفراء كما وجد المنادون على الاخبار أو الجارون لتبليغها ، كما وجدت المراكب السريعة لنقل الاخبار ووجد من يحملون الاخبار والرسائل على ظهور الدواب ووجد المتكهنون والعيون والجواسيس . ولذلك قالوا فى الامثال (أن تقدر الخطر قبل وقوعه وهو أن تستعد قبل حدوثه) فمعنى الاخبار أن تعطى الشعب تحذيرات أو تبليغات بين الحين والحين عن الاحداث التى وقعت أو الاحداث التى قد تقع ودورة هذه الانباء بين أفراد الشعب خدمة اجتماعية لها قيمتها ولها خطرها .

فالصحافة اذن صورة حديثة من الخدمة الاجتماعيـــة قد نهضت وانتعشت بفضل الطباعة ، ولم تلبث أن ازدادت نهوضا وانتعاشا وامتلأت حياة ونشاطا بفضل الانتقال من المرحلة البدائية الى المرحلة الميكانيكية ، فأمكن بذلك أن تجمع الاخبار ، وأن توضع فى اطارات معدنية وأن تنشر على الناس بكميات كبيرة .

ولم تكن للصحافة فى منشئها الا حرية محدودة حتى وضعت الدساتير السياسية ، وحررت الطبقة الثالثة أو السلطة الثالثة بتعبير آخر ، وأطلقت على الصحافة السلطة الرابعة ، ومن ثم أخذت الصحافة تزدهر وتنتعش ، وكان بعض الصحفيين يخرجون دوريات تناقش المصلحة العامة كما تناقش شئون الشعب ، ولكن لم تكن فى انجلترا صحافة مستقلة كاملة الا فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وأسست بعض المطابع التى ســـاهم فى تكوينها كثير من الممولين ، كمـــا أنشئت جريدة التيمس The Times فى سنة ١٧٨٥ تحت اسم (الديلى يونيفرسال Daily Universal register وقد أسسها طباع يسمى جون ولتر John Walter حتى تؤكد للناس قيمة فن الطباعة الحديث ، وتثبت الصلة الوثيقة والوشيجة القوية بين تقدم فن الطباعة والخبرة الصحفية .

وطفقت الصحافة تنمو وتزدهر منذ أن أصبحت معرفة الاخبار عملا قانونيا خاصا ، وكان من الطبيعى أن تحاول الحكومات أن تسيطر أو أن تحد من سلطة الصحافة سواء بفرض عقوبات أو غرامات رادعة ولاسيما عندما خاضت الصحف فى المسائل السياسية والشئون الدبلوماســـية ، فكان من اللازم الحرص فى هذه المسائل والحيطة فى تناول هذه الشئون ، ولا تزال الصحافة حتى اليوم معرضة لكثير من القيود ، ومن أمثـلة ذلك قانون تسوىء السمعة والقذف والتشهير Law and libel

ولذلك كان كثير من الصحفيين مقيدين فى نقدهم وتعليقهم على الانباء ، فيفرضون بذلك رقابة من أنفسهم على أنفسهم ويتخذون الحيطة فى نشر الاخبار .

ويعتبرون هذه الحيطة واجبا مفروضا عليهم لا مفر منه ولا محيص عنه ، وقد صرحت بذلك جريدة نيويورك تيمس الامريكية التى جعلت من مبدئها (نشر كل الاخبار الجديرة بالطبع) فللمجتمعات الديمقراطية وقت السلم الحق فى معرفة كل ما يمس مصلحتها العامة وما حرية الصحـافة أو بمعنى آخر غياب القيود الرسمية على استقلال الصـحفيين فى الظروف

العادية الا منحة لاستتباب السلام الاجتماعى ، أما فى وقت الحرب حيث تنتشر الاخبار المثيرة الخطيرة وحيث يمكن الخبر الكاذب أن يهدد كيان الأمة جمعاء فقد وجب أن تفرض رقابة رسمية على الصحف لان هذه الرقابة لا يمكن الاستغناء عنها فى مثل هذه الآونة الحرجة .

ولكن تحت تأثير أى الظروف والاحوال يستغل الصحفيون هذه التجارة ؟

أما اذا كانت الصحافة مهنة فما المؤهلات التى تطلب من الصحفيين ؟ وما الشىء الذى يؤهلهم أن تطبع أخبارهم وتباع أفكارهم وبأى الدرجات العقلية والميزات الاخلاقية يتحلى الصحفيون قبل أن يسيطروا على روح الاستطلاع فى الشعب ؟ فالصحفيون لا يجتازون امتحانات مهنية والصحفيون ربما لا يكونون حاصلين على دبلومات أو درجات علمية، وربما لا تزيد ثقافة بعضهم عن ثقافة فنان صغير ، فمن أين أتتهم هذه السلطة ، وكيف حصلوا على هذا المركز وهذه المكانة العظيمة ؟

المفروض أن الصحفيين ينبغى أن يكونوا أصحاب (أقلام مستعدة) Ready Pens للكتابة فى أى موضوع من الموضوعات بغض النظر عن الموضوعات التى لا يعلمون عنها الا النزر اليسير والقدر الضئيل ، فهناك أخبار صادقة ، وهنالك أخبار كاذبة ، وهنالك موضوعات يضطر الصحفى الى الخوض فيها تكون مما تميل اليه نفسه وتستهوى قلبه ، ولكن كثيرا من الصحفيين يخطئون فى نصح المبتدئين بالدخول فى ميدان الصحافة والمضى فى سبيلها .

ويرى ويكهم ستيد عكس هؤلاء جميعا ، فبعض الشباب يسألونه عن كيفية الدخول فى ميدان الصحافة وعن كيفية اتخاذ الصحافة كمستقبل لهم ، فيلقى ويكهم ستيد بالماء البارد على مطامحهم (الحارة) ويضعهم فى امتحان عسير حتى يخلص عقولهم مما بها من آمال كاذبة وأحلام براقة ..

فبعض الهواة يرون ـ وبدون سبب معقول مقبول ـ أن للصحفيين قدرة أدبية ، ولكنهم فى الواقع يبعدون عن الحقيقة كثيرا ولا يعرفون أن الانسان قد يكتب عبارات صحيحة سليمة من الأخطاء ، ولكنه يكون غير صالح للصحافة ، على حين يرى الآخرون أن لديهم أفكارا كثيرة يرغبون فى نشرها ، ولكنهم لا يعرفون أن الصحافة تعتمد على الجانب التجارى كذلك، وان بعض الافكار ربما لا تجد عند جمهور القراء قبولا ، وقد تجذب الهواة الآخرين المرتبات الضخمة والأجور المرتفعة التى يحصل عليها الصحفيون الناجحون ، ولكنهم لا يدرون ما وراء هذه المرتبات وهذه الاجور .

غير أن أكثر طلاب الصحافة يتمنون أن يدخلوا فى ميدانها كقاعدة عامة بجوار عجلة الطباعة ، وأن يشاركوا بأيديهم فى تكييف الفكر للأمة.

وقد يكون من حق هؤلاء جميعا أن يأملوا وأن يستلهموا آمالهم من الصحافة ، ولكن ويكهم ستيد الصحفى المجرب الخبير يرد عليهم : كلا ،

الا اذا كنت مستعدا أن تخاطر وأن تكابد الفقر ابتغاء وجه الصحافة وتفضل ذلك العمل على أن تكسب رزقك من عمل مريح فى أى مكان ...

انه بالرغم من وجود مدارس للصحافة ومعاهد لتمرين الصحفيين فان الصحفيين يولدون ولا يصنعون ، وقد تمر سنوات كثيرة على شاب تعلم الصحافة والكتابة الصحفية الفنية (النظرية) حتى يعلم أنه ينقصه الاستعداد الشخصى والميل الحقيقى الذى بدونه تكون حياة الصحفى فارغة .

ليس كل من يعمل فى صحيفة صحفيا ، فالجريدة تضم كتبة مثل كتبة البنوك ، كما تضم مستخدمين وأطباء ومحامين ورجال أعمال . وهؤلاء جميعا لا تفتقدهم الجريدة فى وقت من الاوقات ، ولكنها دائما تفتقد الصحفيين فهؤلاء الصحفيون لا يمكن أن تستكفى بهم صحيفة من الصحف، انهم رجال ونساء بعقول ذكية وأفكار نيرة وعزيمة ماضية للبحث والتنقيب فى أرجاء المعمورة أملا فى الوصول الى ذلك اليوم الذى ينشرون فيه آراءهم ويبثون فيه معتقداتهم فى عقول الآخرين . وعندما يذكر ويكهم ستيد الصحفيين يعنى ما يقول بهذه الكلمة ، غير ان للصحفيين الموهوبين الحق فى معرفة التفاصيل الدقيقة والصعوبات الكثيرة فى عملهم والعقبات التى تحول بين الجوانب المثالية والمناحى المادية ، تلك العقبات التى تصرف الصحفيين عن تدوين خبرتهم .

فرأيهم فى الصحافة عظيم غير أنهم يحسون بالثغرة الواسعة التى تفصل الجوانب النظرية عن العملية والمثالية عن الحقيقة ، وهم يعتقدون فى قرارة نفوسهم أنهم لا يستطيعون تقرير كون الصحافة صناعة أو عملا أو مهنة حرة أو وزارة ، فالتجربة قد علمت الصحفيين أن الصحافة قدتكون هذا كله أو بعض هذا كله . والصحفيون قد يكونون هذا كله أو بعض هذا كله .

والصحفيون لا يستطيعون أن يضعوا تعريفا جامعا مانعا للصحافة وان كانوا يعرفون أن الصحافة تتكون من جمع الاخبار وطباعة ونشرأخبار الحوادث يوما بعد يوم بتعليق أو بدون تعليق وبوجهة نظر أو بدون وجهة نظر .

والصحفيون يعرفون أن الصحافة عمل فيه كثير من المسئولية ،لان الاخبار ينبغى أن تكون صحيحة كما أن التعليق ينبغى أن يكون أمينا ، وعندما تطبع وتنشر الاخبار ينبغى أن تباع ، غير أن الجمهور ربما لا يحب الاخبار السيئة أو الآراء التى لا طعم لها ، فمنتجو الصحف يعتمدون على ذوق الشعب ، ولكن كيف يؤهلون لذلك ؟ والى أى مدى يخدعون أنفسهم ويدعون ثقتهم ليجعلوا أخبارهم وآراءهم توافق ذوق الجماهير ؟ وهل نلومهم فى هذه الحال كما نلوم التاجر الذى يطفف فى ميزانه ، والصانع الذى يزيف فى صناعته ؟

وهذه الاسئلة تساعد على بيان المبدأ السائد أو الذى ينبغى أن يسود فى الفن الصحفى ، فالأمانة الصحفية ثقة اجتماعية ضرورية قد وضعت

كاتفاق مع الشعب حتى تكون الاخبار صادقة ، ويكون هؤلاء الذين يقدمون الاخبار للبيع صادقين فى تعليقاتهم ، وهذه الثقة المتبادلة نفسها توجد بين الاطباء والمرضى ، غير أن الاطباء يسيرون وفق نظام وقانون مهنى دقيق، كما أنهم مضطرون الى الحصول على مؤهلات طبية ، على حين ان الصحافة (مهنة حرة) تخضع لقليل من القيود الخارجية فى قوانين البلاد .

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو : هل الصحفى هو الذى يبيع أخبارا يعلم أنها كلها كاذبة أو أن بعضها زائف ؟ وهل الصحفى الذى يموه الحقائق ليجعلها قريبة الى النفس أكثر جرما من التاجر الذى يطفف فى ميزانه أو الصانع الذى يقدم بضائع مغشوشة ؟...

الواقع أن نشر تصريح كاذب أو اذاعة فكرة خاطئة أكثر خطرا وأشد أذى من بيع البضائع الزائفة على أنها بضائع جيدة ، ولكن الصحفى الكبير ويكهم ستيد يعتقد أن الافكار الكاذبة أشد خطرا من السكر الزائف أو الصابون المغشوش .

ان الصحفى الذى يخون ثقته يقع عليه اللوم أكثر من التاجر المحتال، ان الصابون الفاسد يفسد الجلد ولكن الافكار السيئة تنفث السم فى العقل . والصحافة مهنة حساب على اعتبار أنها أساس لما يطلق عليه الآن (صناعة الصحف) ، لان مواردها الاولية ليست فى الحقيقة الا عقل الجماهير ، فهى تتاجر فى (القيم الانسانية) أو بمعنى آخر : ان المسئولية الخلقية التى يتحملها الصحفيون تختلف عن تلك المسئولية التى يتحملها رجال الدين والزعماء أو قادة الرأى ، فالصحافة تتأثر بحالات صناعية وظروف تجارية على عكس الحال عند الافراد القيمين على عقلية الجماهير أو أخلاقهم .

وليس من شك فى أن صناعة الصحف تحتاج الى رأس مال عظيم ، فهى تستهلك يوما بعد يوم آلاف الاطنان من ورق الصحف ، وهذا الورق مصنوع من لباب الخشب المستخرج من بعض أنواع الشجر ويطحن هذا المستخرج الابيض بمطاحن شديدة القوى، وأغلب مواد هذا الورق يستورد من وراء البحار على ظهور السفن خاصة ، ويلزم كذلك صناعة الصحف مئات من البراميل الملأى بحبر الطباعة لتحبير الاوعية المعدنية التى تغطى الاسطوانات المعدة للطباعة ، كما انها فى حاجة الى آلات للطباعة وآلات لطى الورق وآلات لقطع عشرات آلاف من الصحف فى الساعة ...

وتحتاج صناعة الصحف كذلك الى رأس مال عظيم لجمع الاخبار من جميع أنحاء العالم ، ولدفع مرتبات لهؤلاء الذين يرسلونها ، ولدفع نفقات الارسال ، كما تحتاج الى رأس مال كبير لدفع مرتبات هيئة التحرير وأجور العمال ولقضاء بعض المصالح فى البلاد ، وتحتاج كذلك الى مقر كبير توزع منه الصحف المطبوعة على وجه السرعة ، كما أنها تحتاج الى رتل من السيارات للتوزيع السريع ، لهذه الاسباب ولغيرها كان انتاج الصحف صناعة حقيقية .

والصحف الى جانب ناحية الاخبار والتعليق تنشر اعلانات المعلنين

وتكون هذه الناحية مقدارا كبيرا من دخل الصحف . أما ضرورة الحصول على هذا الدخل فمتأثرة بأكثر من سبب فان ثمن بيع الجريدة يعتمد على نوع توزيعها أو بمعنى آخر يعتمد على درجة الثقافة والوعى والقوة الشرائية عند الجماهير . ولو أساءت هيئة التحرير الى القراء فى أثناء أداء الواجب عليها للجماهير فقدت الجريدة حركة التوزيع ، ومن ثم لابد أن يتأثر بذلك دولاب العمل ، فربما لا ينسى كثير من الصحفيين أن ما يعتبرونه مهنة أو فنا أو حتى وزارة يتأثر وله صلة وثيقة ببيت المال .

وبرغم هذا كله فان الصحافة تحسب مهنة تعصم من الحاجة ويتمرن عليها كثيرون ، كما يتمرن الاطباء والمحامون على مهنهم . والصحافة فن كذلك ، لان النجاح فى الجريدة قد يعتمد على الطريقة التى تستعرض بها الاخبار والافكار . والصحافة بعد هذا كله وزارة وليس هناك صحفى يستحق هذا الاسم ، جدير بأن يؤثر فى عقول القراء الا اذا كان يشعر بالمسئولية الخلقية تجاه القراء .

ان كل الغابات المقطوعة لاستخراج ورق الصحف وكل الاطنان السوداء من الحبر الذى يحبر الاوعية المعدنية التى تضغط الكلمة المطبوعة على اسطوانات الورق الملفوفة . وكل هذه الملايين من الجنيهات التى تصرف فى سبيل الاعلان تعتمد فى النهاية على دعاء الصحافة لعقل الجماهير ، هذه هى الصحافة الحق .

والفكرة التى تقول بأن عقل الجماهير سهل التأثر وسهل الخضوع الى أى لون من ألوان الدعاية فكرة خاطئة ، فان الرأى العام أو ما يتصوره الصحفيون بالرأى العام يؤثر فيهم أنفسهم ، فذوق الجماهير يؤثر فى حركة التوزيع والتوزيع يعين قيمته ، ولهذا يعمل الصحفيون على اعطاء الجمهور (ما يريده) .

والصحفيون الذين يستطيعون التخمين بما يريده الجمهور هم (الأوز) الذى يبيض بيضا من الذهب لأصحاب الصحف اللهم الا اذا كانوا هم أنفسهم أصحاب الصحف .

ولكن ماذا يريد الجمهور ؟ انه كقاعدة عامة يريد العواطف ويكره ويمتنع سريعا عن شراء أو بيع الصحف الكئيبة . أو بمعنى آخر الصحف التى لا تقدم الى قرائها شيئا طريفا فيه حماس وفيه حياة وفيه حوادث مثيرة ومحادثات خطيرة وأفكار نيرة وأخبار مسبوق اليها . ويمكن تعريف الأخبار بأنها ما هو حادث فى نطاق الحياة ، وهناك مثل يقول وقد يكون فيه بعض المجون (الرذيلة تكون أخبارا أما الفضيلة فلا تكون) وهذا المثل يثبت أن الفضيلة شىء عادى أما الرذيلة فشىء غير عادى وعندما لا تكون هنالك أخبار فى الجريدة وأشياء تخرج على المألوف يعتقد القراء أن جريدتهم كئيبة ويتطلعون الى جريدة أكثر حياة ، ولهذا كان الأمر الأول فى الرواج الصحفى ألا تكون الجريدة كئيبة ، والكآبة معناها فقد التوزيع ، وفقد التوزيع معناه فقد قوة الاعلان ، وفقد قوة الاعلان معناه فقد الدخل الذى يغطى ما بين ثمن البيع للجريدة وثمن الانتاج .

وأغلب الصحف فى انجلترا تباع الى متعهدى الصحف الذين يمونون الجماهير بالجرائد بثمن أكثر قليلا ان لم يكن أقل فى الواقع من تكاليف الورق الأبيض الذى يستعملونه فى الطباعة . فالصحافة الناجحة ينبغى اذن أن تحرز انتصارا يوميا على الكآبة ، ولكن أفكار القراء عن الكآبة تختلف من فرد الى فرد ، فالطعام الذى يقدم الى الاوز لا يقدم الى غيره من الدواجن . وكل جريدة تحتاج الى وسائل كثيرة للتأثير فى أذواق الجماهير فهى فى حاجة الى مضحكات تهز الأشداق لنفر من الناس ، وفى حاجة الى جديات لهؤلاء الذين يؤثرون الجد ، وفى حاجة الى شئون مالية والى رجال الأعمال والدائنين وفى حاجة الى رياضيات للرياضيين والى أدب على اختلاف درجاته للمثقفين ولكن هنالك قاعدة عامة تسبب الجودة .

ان القراء على اختلاف مشاربهم وتباين نزعاتهم يحبون أن تجلب اليهم الطرافة والمتعة والتسلية ، ويكرهون أن يقدم اليهم الزجر وتساق اليهم الموعظة ، ولا يتعقلون أن يعلموا أو يلقنوا حيث لا توجد أية سلطة مدرسية فى هذه العملية .

والواقع أن العلاقة بين الصحيفة والجمهور تجربة دائمة فى دراسة نفسية الجمهور . ويعلم الصحفيون الماهرون المكان الأول الذى ترمقه عين القارىء والمكان الذى توضع فيه الأخبار الهامة والفروق بين حروف الطباعة التى توضع للعنوان والتى توضع للتعليق . والنصف الأعلى من الصفحة أحسن عند القراء وأكثر أهمية لأن القراء فى العادة يركزون أنظارهم جهة اليمين (فى الجريدة الافرنجية التى يتحدث عنها ويكهم سنيد) ولهذا كانت الزاوية اليمنى من الصفحة أنسب مكان للاعلان . فالجزء الأعلى من العمود الأيمن من الصحيفة هو الجزء الذى يركز فيه القراء أنظارهم فى العادة اللهم الا اذا كانت العادة فى توضيب الصفحة غير ذلك فعودتهم قراءة الاخبار الرئيسية اليومية عند طرف العمود الأيسر من الصفحة .

والقراء المعتادون على نوع معين من « التوضيب » يحتاجون الى احترام عادتهم ، غير أن بعض الصحفيين الماهرين يغيرون (توضيب) صفحاتهم بين الحين والحين حتى يبعثوا روح التغير فى القارىء ويبعدوا القارىء عن روح السأم والملل .

وينبغى أن تكيف الاخبار المهمة بجو خاص ان لم يكن هنالك اختلاف فى عرضها فلا يشعر القراء بأنهم محتاجون الى أن (يحفروا) ابتغاء الوصول اليها بدلا من أن تصل اليهم فى فكرة واضحة وأسلوب مناسب .

ان الكفاح فى سبيل التوزيع والدخل من الاعلان يسيطر على شكل وأسلوب كل جريدة تقريبا وأنه كفاح قد يصل الى حدود غير ظاهرة ان لم يحتفظ بدائرته فى أصحاب الصحف والصحفيين أنفسهم .

وعلى العموم يمكن أن نقول : ان الجمهور يهتم قليلا بالوسائل التى تصل بها الاخبار والافكار الى الجريدة ، ولكنه يهتم كثيرا بأن هذه الاخبار

أو الافكار تناسب ذوقه كما أنه يهجر الصحف التى تفتقد الاخبار أو تتاجر فى نشرها أو التى تشذ فى بيان آرائها كما أن الجمهور لا يهتم بأن الجريدة أساس قوى قدر اهتمامه بشعوره الخاص .

ورئيس التحرير يحتاج الى قدر كبير من الشجاعة ليمحو تعصب قرائه حين يعتقد أنه على حق وأن الحوادث سوف تثبت ذلك لأن القراء لا يحبون أن يظهر خطؤهم أمام أى صحفى يعتز برأيه .

وقد يثق أكثر القراء عقلا فى حكم صحيفته ، ولكن كثيرا من القراء قد يضايقه ذلك ، ومن الصعب على الجريدة أن ترتفع عن مستوى القراء ، ولذلك كان من الصدق أن نقول : ان للأمة الجريدة التى تستحقها . كما نصدق أن نقول أيضا : ان الذوق العـــام للجمهور قد يتأثر بالصحف التى تؤثر فى الغرائز المنحطة للقارىء .

وبعض الصحف تعتمد لزيادة نسبة توزيعهـــا على تقديم ميزات للتأمين لقرائها ، لأن هذا يشجع الطبقات الفقيرة على شراء الجريدة ، ولكن مثل هذه الأشياء ليست صحافة حقا ، وينبغى أن تحرم مثل هذه الأمور لمصلحة الجمهور فانها ليست الأصل لزيادة التوزيع ولا تمت الى الصحافة بصلة

ويمكن أن نعتبر هذه المسألة فى نظر الصحفيين أنفسهم غشـــا أو نصف غش لأنهم يدفعون القراء الى شراء الجريدة لا لأخبارها ، بل لمـــا تمنحه من سندات التأمين ، وفى مثل هذه الأحوال يدفع المعلنون للنشر ما لا يمكن أن يتسلموه فى الواقع .

أمجاد العرب فى صقلية

صقلية جزيرة رابضة فى البحر الابيض المتوسط فى جنوب ايطاليا ، وهى على شكل مثلث تتساوى أضلاعه ، ولذلك أطلق عليه القدماء « انترينا كريبا » أى المثلث ، ويفصله بحرا عن فلوريا بايطاليا مضيق مسينا ولا يكاد يجاوز ثلاثة كيلومترات ، ويفصله عن تونس معبر صقلية وعرضه مائة وعشرون كم ، وتبلغ مساحة الجزيرة كلها نحو ٢٥٤٦١ من الكيلومترات المربعة

وقد وصلت أمجاد العرب الى هذه الجزيرة منذ قرون طويلة وظل الحكم العربى بها من عام ٢١٧ هـ الى عام ٤٥٠ هـ أى نحو ٢٣٣ عاما .

وعند ما انقسمت الامبراطورية الرومانية قسمين ـ الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، والامبراطورية الرومانية الغربية ـ كانت صقلية من نصيب الامبراطورية الأخيرة وأدركها ما أدركها من تدهور وانحطاط وفشل واضطراب .

وكانت الدولة الأغلبية فى ذلك الوقت قد مدت نفوذها على بلاد المغرب ونشرت العمران فى شتى أرجائها ، وبنت المدارس والمعاهد والمساجد فى مدينة تونس وسوسة ، كما شيدت ، صهاريج المياه فى القيروان التى أحالت الصحراء المقفرة المجدبة الى جنة وارفة الظلال .

وكان أول الفيث عند ما جهز موسى بن نصير حملة لغزو الجزيرة ، وسميت غزوة الاشراف بعد ما أنشأ بتونس دار صناعة صنعت له السفن للقيام بهذا الغزو بيد أن موسى بن نصير لم يطل المقام فى الجزيرة وعاد بعد أن حصل على غنائم وافرة .

ولما تولى أمر افريقيا ـ من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ـ عبيد الله بن الحبحاب أراد أن يقتفى أثر القائد موسى بن نصير ويعيد الغزو ، وفى هذه المرة تقابل أسطول الروم وأسطول المسلمين ، ودارت بين الفريقين معركة بحرية رهيبة أسر فيها الروم القائد العربى عبد الرحمن بن زياد .

حينئذ صمم العرب على اعادة الكرة مهما كلفهم ذلك من التضحيات ، وقامت حملة بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع بمصاحبة القائد عبد الله بن حبيب

ولم تطل اقامة هذه الحملة فى جزيرة صقلية طويلا ، اذ سرعان ما عادت على اثر اندلاع نيران الفتن فى المغرب .

ولم تستقر الحالة بين العرب والدولة البيزنطية عقب ذلك انما زادت القرصنة البيزنيطة الرومية ، وأشتدت هجمات قطاع الطرق

على السفن العربية مما أوغر صدر العرب حتى عولوا على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة ، وكان عدد الأسرى العرب قد زاد فى هذه الآونة فى جزيرة صقلية زيادة كبيرة برغم الاتفاق الذى عقده زيادة الله الأغلبى مع حاكم الجزيرة على ارجاع أسرى المسلمين الى البلاد الافريقية.

وشجع العرب على القيام بحملة كبيرة استنجاد الأمير «أوفيماس» الصقلى بالأمراء العرب ضد قسطنطين عامل امبراطور الروم فى القسطنطينية الذى استبد بأهل الجزيرة استبداد عظيما ، وسام اهلها الخسف ، وأذاقهم كئوس الهوان .

حينئذ لم يجد العرب مندوحة من ارسال حملة لتأديب ، ولقطع دابر الفتن المشتعلة فى الجزيرة ، وتأمين حال العرب هناك . وترددت أسئلة كثيرة حول قائد الحملة المنتظر ، وأخيرا استقر الرأى على أسد ابن الفرات وهو شيخ كبير من مواليد خراسان ، وتربية معاهد القيروان، وكان أسد بن الفرات فى ذلك الوقت فى العقد السابع من عمره ، فعند ما ولاه زيادة الله امارة الجيش الغازى قال أسد : واها يامولاى ! أتعزلنى عن القضاء لكى تولينى الامارة ؟ فقال زيادة الله : كلا ! بل امارة الجيش مع القضاء !

وكان القائد القاضى الشيخ يقول مفاخرا : أنا أسد والأسد خير الوحوش . وابن الفرات ، والفرات خير الماء ، وجدى سنان ،والسنان خير السلاح !

وقد سارت الحملة باسم الله مجريها ومرساها من مدينة « سوسة » يوم الأحد الموافق ١٤ من ربيع الأول عام ٢١٢ هـ ١١ من يونيو عام ٨٢٤ ووصلت الى مدينة مازرة بعد ثلاثة أيام من اقلاعها .

وخرج الرومانيون يحاولون رد الحملة على أعقابها ، والقاء المسلمين فى البحر ، بيد أن العرب صمدوا أمام العاصفة الهوجاء ، وقال ابن أبى الفضل وكان حاضرا المعركة : « ورأيت أسد بن الفرات وبيده اللواء وهو يزمزم فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فأقبل أسد على قراءة « يس » فلما فرغ منها قال للناس : هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم ، لا تهابوهم وحمل باللواء وحمل الناس معه فهزم الله جل وعلا « بلاطة قائد الروم » وأصحابه فلما انصرف أسد رأيت والله الدم وقد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه » .

ومعنى قول أسد بن الفرات هؤلاء عجم الساحل أى هؤلاء الذين هربوا أمامكم من السواحل الافريقية .

وبعد جهاد مرير دام ١٣ شهرا انتقل أسد الى رحمة الله ودفن بمقر استشهاده تحت أسوار سرقوسة ، فتولى مكانه محمد بن أبى الجوارى الذى حمل رسالة سلفه الصالح فى توطيد الحكم العربى فى أرجاء الجزيرة ، ثم فتح زهير بن عوف مدينة « بالرمو » وهى العاصمة بعد حصار عنيف ونضال طويل .

واتسعت فتوح العرب فى جنوبى ايطاليا حتى بلغوا روما وارتج

عرش البابوية ، وبرغم انقضاء الحكم العربى عن صقلية عام ٤٥٠ هـ بعد أن دب الخلاف بين العرب وكثرت الفتن الداخلية فان مظاهر الحياة العربية ظلت سائدة فى الجزيرة قرونا طويلة ، بل لا تزال لغتهم تحمل بعض الألفاظ العربية حتى وقتنا هذا ومثال ذلك دار الصناعة التى أطلق عليهـــا أهل الجزيرة Darcena ، والأمراس وهى الجبال وقد أطلق عليهـــا أهل الجزيرة Amarra ، ورياح الموسم التى أطلق عليها أهل الجزيرة Moussone وغير ذلك من مئات الكلمات العربيـــة التى دخلت الى اللغة الايطالية أو الفرنسية .

وقد أدخل العـرب الى الجزيرة زراعة القطن وقصب الســكر والزيتون والفستق والبرتقال والليمون ويقول الرحالة ابن حوقل : ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على أكثر أقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

كما أدخل العرب الى الجزيرة صـــناعة الحـــرير ، وفى متحف « نورمبرغ » بألمـــانيا معطف من الحرير كان يرتديه ملوك صقلية وهو محاط بنسج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هـ ١١٣٣ م .

ولا تزال فى الجزيرة حتى يومنا هذا آثار من قنوات الرى والترع التى أنشأها المسلمون فى شتى أنحائها لتسهيل المواصلات ، ونقل البضائع والسلع من مكان الى مكان ، كما لا تزال القرية فى صقلية تحمل الطابع العربى الى الآن من اتساع وتنوع كما أن بها قصر العزيز الذى يطلق عليه الأهالى « لازيزا » وقصر القبة بجوار مدينة بالرمو ، أما كاتدرائية بالرمو فقد بنى المسلمون قسمها الشرقى والأوسط .

وحكم جزيرة صقلية فى العهـــد النورماندى عدد من الملوك الذين يحبون العرب ، نذكر منهم الملك غليوم والملك روجر الثانى الذى وصفه ابن الأثير بقوله : « سلك طريق ملوك المسلمين من الخبـــائب والحجاب والســـلاحية والجاندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفـــرنج ، فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك ، وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين ، فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فأحبوه » .

وقد زاره الرحالة العربى الشريف الادريسى فى مقر حكمه فرحب به ترحيبـــا عظيمـــا ، وأعجب بعلمه وخبرته حتى أنه كان ينهض من مجلسه لتوديعه ـ وقد صنع الادريسى للملك روجر الثانى كرة أرضية وزنها ١٨٠٠ أوقية وقسم الدنيا المعروفة اذ ذاك سبعة أقاليم متوازية يبتدىء الاقليم الأول عند خط الاستواء تقريبا ، وينتهى الاقليم السابع عند المتجمد الشمالى الذى يدعوه بحر الظلمات .

ويقول المسيو لوريش فى دائرة المعـــارف الفرنســـية الكبرى عن الكتاب الذى وضعه الأدريسى بعنوان نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : « هو أكمل كتاب جغرافى تركه لنا العرب ، وان ما دققه الادريسى من

تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا فى مستهل القرون الوسطى » .

وقد قام الصقليون بنهضة ثقافية واسعة فى الفكر العربى ، وأخرجوا مؤلفات كثيرة فى شتى المعارف الانسانية نذكر منها كتاب الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى — وينبوع الحياة فى التفسير ، وأعلام النبوة لابن ظفر المتوفى عام ٥٦٨ هـ ، كما ظهر كتاب الأفعال وتصاريفها للشيخ أبى القاسم بن القطاع المتوفى عام ٥١٥ هـ ، وكتاب تاريخ صقلية ، والشافى فى علم القوافى ، والملح العصرية ، وطبقات الشعراء للمؤلف الآنف الذكر ، كما ظهر كتاب المختار فى النظم والنثر لأفاضل أهل العصر لابن بشرون الصقلى .

وكذلك ظهر منهم علماء نذكر منهم أبا الحسن أحمد بن الحسن الكيلى ، وعمر بن خلف بن مكى ، وطاهر بن عمر بن الرقبانى وغيرهم من العلماء .

وظهر من الصقليين شعراء بارعون نذكر منهم عمار بن المنصور الكيلى ، وعبد الرحمن بن أبى العباس ، وابن حمديس .

وكان هذا الشاعر الأخير من أشهر شعراء صقلية الذين ترنموا بمجد العرب فيها ، وأرساوا الزفرات الحارة من أجله ، واستحث المسلمين وخاصة أمراءهم على الأخذ بيدها واستخلاصها من براثن المعتدين الفاصبين .

وقد عاش عبد الجبار بن حمديس حتى بلغ الثمانين من عمره وأصبح يقول :

أسلمنى الدهر للرزايا وغير الحادثان نفسى
وكنت أمشى ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشى
كأننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش

***

وقد سأله بعض الأدباء عن تشبيهه نفسه بالنسر فقال : ليس فى الحيوان من يطعمه ولده اذا هرم الا النسر

ومن قوله فى عصاه التى يتوكأ عليها لكبره :

كأنها وهى فى كفى أهش بها على الثمانين عاما لا على غنمى
كأننى قوس رام وهى لى وتر أرمى عليها زمان الشيب والهرم

***

وقد لاقى ربه عام ٥٢٧ هـ فتحطم الوتر الحزين والموج يرتطم بصخور جزيرة صقلية فى قوة وعنف

ملك صقلية يستقبل عالما عربيا

جلس الملك فى قصره وحوله الامراء والوزراء يلتفون حوله من كل جانب وكان الملك يتنقل فى الحديث من موضوع الى موضوع :

فتارة يتحدث فى العلم وتارة يتعرض للفلك وحينا يعرج على الفلسفة ومرة يعرض للفن ، فقد كان مولعا بمجالسة العلماء ومحادثة الفقهاء وكان يجلس أمامهم فى هدوء ، كما يجلس الطالب المجتهد أمام أستاذه أو المؤمن المتبتل أمام واعظه ، وكان يعتبر اليوم الذى لا يلتقى فيه بالعلماء يوما لاطائل تحته ولا غناء فيه ولا فائدة منه فلا خير فى يوم من غير علم ، ولا خير فى ساعة يقضيها من غير فائدة فتذهب كالهشيم تذروه الرياح أو كأوراق الخريف فى الفضاء

تلك كانت حياة روجر الثانى ملك صقلية فى القرن الثانى عشر الميلادى الذى كان يحكم هذه الجزيرة فى هذه الآونة ، فنشر فيها العلم والمعرفة ، وكان ينظر الى السماء فيتمنى أن يعرف أسرار نجومها ومدارات كواكبها ، وكان يخرج للصيد فى بقاع الجزيرة فيصيد بعض الحيوانات ، ولكن هذه الحيوانات التى يصيدها تثير فى نفسه أفكارا شتى وخواطر متنوعة ، فهو يتمنى أن يعرف شيئا عن حيوانات البلاد الاخرى ، بل انه يريد أن يعرف شيئا عن أهل البلاد الاخرى ، وكان يقف على شاطىء البحر والموج يرتطم بالصخور تحت قدميه ، ويتناثر الزبد كالقطن المندوف حوله ، فيفكر ويطيل التفكير ويقدر ويطيل التقدير ويتمنى أن يعرف تلك البقاع التى تجثم وراء هذا البحر الخضم ، ولكن كيف يتاح له السفر ولديه مالديه من مشاغل الملك وعنده ماعنده من اعباء الحكم .

ويهبط الليل فيجلس الملك مع علمائه يتحدث فى أمر هذه الدنيا العجيبة ويتمنى أن يهب الله له من العمر ومن فراغ البال وسعة الوقت مايسمح له بعمل هذه السفرة الطويلة واجتياز هذه الشقة البعيدة .

وفجأة ترامت الى القصر أنباء وصول عالم عربى وجواب آفاق طالما قطع البيد والقفار وركب متن البحار وعبر السهول والانهار وهو العالم العربى الادريسى .

قال سمير الملك للملك : ان عالما عربيا قد وطئت قدماه أرض صقلية ولعل مولاى يجد عنده متعة فى الاجتماع به والتحدث اليه ، فقال الملك : هذا من غير شك ماكنت أطمح فيه منذ زمن بعيد ، لقد علمت أنه طاف بشتى الاقطار والامصار وعرف أوصاف البلاد والممالك وقاس أبعادها بالميل والفرسخ

وذهب المنادى لينادى الادريسى ليمثل بين يدى روجر الثانى ،

وعلت وجه الادريسى مسحة من الدهشة وقال متعجبا : أحقا يطلبنى الملك ؟ فأكد له الرسول أنه المعنى وهو المراد ، وحينئذ تأهب الادريسى للذهاب الى قصر الملك روجر الثانى ، ومضى حتى بلغ القصر ووقف عند بابه مدهوشا أمام روعة البناء وفخامة القصر ، ودلف مع حارس الى القصر فى بالرمو ، وما ان دخل البهو الملكى حتى سمع صوت الملك روجر يتردد فى قاعة الاستقبال فتملكته الرهبة ، وأخذته الدهشة مرة أخرى ، ولكنه تمالك نفسه ، وأخذ يحث خطاه حتى وصل الى الملك ، فهش الملك لمقدمه ، وبش فى وجهه ، والغريب أن الملك كان يتكلم العربية لولا بعض الرطانة التى تشوب كلماته

جلس الادريسى فى حضرة الملك وكان الملك يتبعه نظراته ويترقب كلماته ، والادريسى لايفتأ يصف البلاد التى زارها والبحار التى اجتازها ويقسم الارض سبعة أقاليم أو مناطق ، ثم يقسم كلا من هذه الاقاليم أو المناطق أحد عشر قطرا ، والغريب أنه أخذ يقول كلاما عن كروية الارض والجاذبية فى القرن الثانى عشر قبل أن يتنبه أحد سواه اليه وقبل أن يجىء كابرنيك وكوبلر ونيوتن وغيرهم من علماء الطبيعة والجاذبية فقال :

ان الارض مدورة كتدوير الماء والماء لاحق بها وراقد عليها رقودا طبيعيا لا يفارقها ، والارض والماء مستقران فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ووضعهما موضع متوسط والنسيم محيط بهما من جميع جهاتهما ، وهو جاذب لهما الى جهة الفلك أو دافع لهما والله أعلم بحقيقة ذلك

وعندئذ سأله الملك : وكيف يكون موضع الارض اذن من الفلك ، فقال : ان الارض مستقرة فى جوف الفلك وذلك لشدة سرعة حركة الفلك وجميع المخلوقات على ظهرها والنسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة والارض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل بمنزلة حجر المغناطيس الذى يجذب الاشياء اليه .

وليس من شك فى أن الادريسى فى هذا الحديث كان قد سبق نيوتن الذى ظهر فى حوالى النصف الاول من القرن السابع عشر ومات فى حوالى الربع الاول من القرن الثامن عشر فى معرفة الجاذبية والدلالة عليها وهذا مما يشرف العرب ، ويرفع قدر العلوم العربية بين العالمين

وطفق الملك يسأله عن البلاد التى زارها ، فكان مما تحدث عنه انجلترا وفرنسا وغيرهما من بلدان أوربا وآسيا مما دهش له الملك دهشة عجيبة .

وعندما جاء الحديث عن مصر طلب منه الملك بعض التفصيل فى الحديث وطلب منه أن يعرف شيئا عن نهرها الخالد وكان مما قاله الادريسى للملك : أن عرض النيل فى بلاد النوبة ميل واحد ، وعرضه فى قبالة مصر ثلث ميل كما أن فى بعض أجزاء النيل الحيوان المسمى بالتمساح ، وفيها أيضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم أكبر من الجاموس يخرج الى الجهات المجاورة الى النيل فيأكل بها الزرع ، فيرجع الى الماء وفى النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها

« اللاش » لا تظهر به الا ندرة وهى كثيرة اللحم طيبة الطعم ، وفيه أيضا سمك يسمى « الابرميس » وهو حوت أبيض مدور أحمر الذنب ويقال: انه ملك السمك وهو طيب الطعم لذيذ يؤكل طريا مملحا

فاشتدت دهشة الملك من هذه المعرفة الواسعة وكان خبيرا بما فى البحار لموقع الجزيرة التى تحفها المياه من كل جهة وطلب منه أن يقدم له عملا يذكره به فوعده الادريسى بتحقيق طلبه وقال له الملك : اننى أريد شيئا جديدا لقد اتسعت أعمال مملكتى ، وأحب أن أعرف كيفيات بلادى حقيقة وأن أقتلها يقينا وخبرة وأن أعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى اقليم هى مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار ، وقد أحضرت الكتب المؤلفة فى هذا الفن مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى ، وكتاب الكيماكى ، وكتاب أبى القاسم عبيد بن خردا ذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب أرسيوس الانطاكى ، وكتاب بطليموس التالوذى فلم أجد فى هذه الكتب جميعا ذلك مشروحا مستوعبا مفصلا ، فطالبت العارفين بهذا الشأن ، ولكنى لم أجد عندهم أكثر مما فى الكتب المذكورة .

ولم يكد يتم الملك هذه العبارة حتى طمأنه الادريسى وطلب منه أن ينتظر عدة أيام ، وهم أن يودعه ويطلب الاذن منه بالخروج ، ولكن الملك نهض من أريكته وضغط على يده وربت على كتفه وخرج بنفسه يودعه عند باب القصر مما لم يحدث فى تاريخ العلماء .

وتوالت زيارة الادريسى لقصر روجر الثانى ، فما كان الملك يسمع بمقدمه حتى ينهض عند الباب لاستقباله، ويجلسه الى جانب سرير الملك فاذا ما أتم المحاضرات معه وافاد ما أراد ثم هم بالخروج ودعه الملك بنفسه الى عتبة القصر .

ولم تمض أيام حتى صنع الادريسى للملك كرة أرضية ليشرح عليها دروسه ، وكانت كرة عظيمة الجرم ضخمة الحجم فى وزن أربعمائة رطل رومى فى كل رطل منها مائة واثنا عشر درهما وتضم صور الاقاليم ببلادها وأقطارها ومدنها وريفها وخلجانها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها والطرقات والاميال والمسافات والمشاهدة وكتب عليها بأحرف عربية كل ماكان يعرفه من البلدان المختلفة، وكانت مصنوعة من الفضة الخالصة .

وقد سر الملك سرورا عظيما بهذه الهدية العلمية الثمينة وشكر الادريسى شكرا جزيلا على فضله وحرصه على توخى الحقائق العلمية حتى اذا ما انتهى المجلس خرج الملك يودعه بنفسه عند الباب والادريسى مزهوا بهذا الفخر العظيم .

وتشاء الايام أن تفقد هذه الكرة بعد ذلك ولولا فقدها لزاد فهم المؤرخين لقيمة المعارف الجغرافية فى القرن الثانى عشر الميلادى زيادة عظيمة .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
حديث فى الشتاء بين الشرق والغرب	٥
الخريف فى الأدب الانجليزى	٩
الصيف فى الأدب الانجليزى	١٤
الربيع فى الأدب الانجليزى	١٧
بين الربيع والخريف	٢١
المسرح المصرى والمسرح الانجليزى يلتقيان فى حركات تطورهما	٢٤
كشف مسرحى عظيم عن المسرح فى الشرق	٢٦
أمير الشعراء الانجليزى فى الأدب العربى الحديث	٢٨
امارة الشعر بين شوقى ودريدن	٣٣
بين لورد بيرون وعمر بن أبى ربيعة	٣٥
الليل بين الشرق والغرب	٣٩
الليل فى العصر الاسلامى	٤٠
شعراء الحرب	٤١
الليل فى العصر الحديث	٤٢
البحر بين الشرق والغرب	٤٦
خليل مطران والفريد دى موسيه	٥٥
القمر فى الأدبين العربى والغربى	٥٨
الموت فى الأدبين العربى والغربى	٦٤
لغة الزهور بين الشرق والغرب	٧٢
حديث القصة بين الشرق والغرب	٨٠

الموضوع	الصفحة

لفتنا أمنا الكبرى ووسيلتنا الى نهضة الشرق ٨٥

الأدب العربى أدب عالمى ٩٠

المذهب الرومانسى فى الشعر العربى ٩٢

كنوز بين المعرفة فى آداب الشعوب الآسيوية والافريقية ٩٤

أحلام البحيرة بين الشرق والغرب ٩٨

فلسفة الألوان فى الغرب ١٠٢

عالم غربى يضع الوسائل الى السعادة ١٠٤

كاتب غربى وزوجته ملهمة ١٠٦

حضارة الغرب فى العالم الجديد ١١٠

من عجائب العلم والاختراع فى الغرب ١١٣

قصة كفاح الفريد كروب ملك الفولاذ ١٢٠

الموسيقى تفزو مصانع العمال فى الغرب ١٢٣

الروس يستفيئون بالموسيقى ١٢٥

الضمان الاجتماعى والتأمينات الاجتماعية بين الشرق والغرب ١٢٨

كاتب غربى داخل افريقية ١٣١

سندباد بحرى جديد حول افريقية ١٣٥

دراسة علم البحار ١٣٦

حديث فى الصحافة لعالم عربى ١٣٩

أمجاد العرب فى صقلية ١٤٧

ملك صقلية يستقبل عالما عربيا ١٥١

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد روض الفرج
تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

DATE DUE

30 JUN 2000
Circulation Dept. 1

19 JAN 2008
Circulation Dept. 5

809:R16fA:c.1
الرمادى ،جمال الدين
فصول مقارنة بين ادبى الشرق والغرب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030571

809
R162fA
c.1